المثقّفون

حَمزة قِناوي

دار الثقافة الجديدة

المثقفون

المثقفون

حمزة قناوي



دار الثقافة الجديدة

المثقفون

تأليف:
حمزة قناوي

الطبعة الأولى ٢٠٠٩م

الناشر
دار الثقافة الجديدة
" شركة ذات مسئولية محدودة "
٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة
ت وفاكس ٢٣٩٢٢٨٨٠
e-mail: elguindimohamed@hotmail.com

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٣٦٩٤
الترقيم الدولي (I.S.B.N): 7- 977-221-132

الإهداء:

إلى د. فكري اندراوس، صديقي الكبير، الذي علمني كثيراً في الحياة، وأدين له.

في أحد مساءات ديسمبر من عام ٢٠٠٤ اتصل بي كاتب كبير صديق وبعدما تبادلنا التحية والسؤال عن الأحوال سألني إن كنت أعرف الدكتور (.........). فأخبرته بأنني أعرفه معرفة عامة، قرأت له أكثر من مرة في الأهرام، وقرأت له كتاباً واحداً فقط يتحدث عن أحوال الشارع المصري وقضاياه، فسألني.. هل تود أن تعمل معه؟! فصمتُّ ولم أجب.. وقد بوغتُّ بالعرض، فماذا سأعمل مع أستاذ علم الاجتماع الأشهر وأنا شاعرٌ وأدرس الأدب؟ غير أن الكاتب الصديق كان مُشجِّعاً – وكنت أثق في رأيه، وأثق به إلى أبعد الحدود، ولا أزال – أكد لي إنها فرصة جيدة للتقارب مع أستاذ كبير والتعلم منه واكتساب الخبرة ومعرفة الحياة والعلم، (إضافة إلى أنني لم أكن أعمل وقتها)، فوافقت مبدئياً، على أن أتصل بالدكتور في حال استقراري على الموافقة، وأخذت الرقم من الصديق وشكرته على ثقته، إذ كان هو من رشّحني له للعمل معه.

يومان كاملان لم أستطع أن أقوم فيهما بشئ سوى التفكير في هذه المسألة، لعلمي بحساسيتها وأن العمل مع الأساتذة الكبار مسئولية تضع الإنسان على المحك أمام الكثير من الأمور كالقدرة على الإنجاز والكفاءة والصبر والتحمُّل أيضاً.

في نهاية الأمر وافقت، قلت لنفسي – كالمعتاد – فلنُجرِّب!، ولم يكن هذا بعيداً عن توجهي وطبيعتي التي تميل للتجريب عموماً وترى أن الحياة بأكملها فلكاً كبيراً تتقاطع فيه الأقدار والحركات والبشر وعلاقاتهم بدون أن تتضح لكل هذا الزخم نتيجة واحدة قاطعة، إنما كلها احتمالات في طريق الحياة.

اتصلت بالرقم الذي أعطاه لي الكاتب الصديق، فردَّ عليَّ صوتٌ مُرحِّب – لاحظت أنهُ مُتعبٌ أو أن صاحبه كبيرٌ في السن بشكلٍ واضح – فسألت عن الدكتور، فازداد الصوت ترحيباً والكلمات مودَّة.. وكان هو صاحبها.. أخبرني بشكلٍ مبدئيٍ أنه يحتاج إلى (مساعد) يعاونه في الكتابة والأعمال المكتبية والبحثية.. فأبديت موافقتي. أعطاني العنوان الذي لم أنسهُ منذ تلك اللحظة. مصر الجديدة. واتفقنا على اللقاء في منزله في مساء اليوم التالي.

في الموعد كنتُ في مصر الجديدة، أمام بيته، أخبرني البواب أن المصعد مُعطَّل!.. بعدها بدقائق كنت أمام الشقة، أرن الجرس، فُتِحَ الباب، لأجد نفسي أمام الدكتور (كنت أعرف ملامحه من صورته المنشورة بجوار عموده في الأهرام). لاحظت في الثواني الأولى لالتقاء الأعين أنه نافذ النظر وأن عيناه حادتان وينظر في عينيْ من يواجهه بعمق، تيقنت بعدما طالت هذه الثواني أنه كان يحاول سبر غوري و(قراءتي) من خلال الانطباع الأول. واجهت (فحصه) هذا بهدوئي الطبيعي وبابتسامتي قبل أن يبتسم فجأة ويبتعد عن الباب قليلاً مُرحِّباً (أهلاً وسهلاً)!

كان انطباعي الأول عن بيته أنه وحيدٌ في هذه الشقة، حيث ظللت جالساً لدقائق بمفردي في الصالون الذي تطل نافذته على حديقة شاسعة.. أكثر من ٣٠ فداناً من الزهاء والخضرة، كنت وحيداً أجلس في انتظاره حيث تركني وغاب بالداخل، فلم أسمع نفساً لمخلوق في المكان ولم أستمع لأي شيءٍ ينبيء بوجود إنسان آخر..

(بعد ذلك ومع الأيام تيقنت من صدق توقعي). كان بيته هادئاً، ثمة موسيقى خافتة تنبعث من جنبات المكان، راديو في الغالب، أخبرتني تلال الشرائط والأقراص الإلكترونية على الرف أنه مستمعٌ جيد للموسيقى، ثمة لوحة مائية زرقاء على الحائط، توقعت أن تكون لمونييه.. ولوحات أخرى للفن التشكيلي، كان المكان بأكمله تخيِّم عليه السكينة، ظللت هادئاً أكوِّن انطباعاتي من مقعدي إلى أن يعود الدكتور، إلى أن عاد مُرحِّباً مبتسماً، ولاحظت أنه يتحرك بحماس معظم الوقت ويتكلم بحيوية.

جلس وسألني عمن أكون وماذا أفعل في حياتي؟ فأوجزت التعريف بنفسي واهتماماتي في نقاط سريعة. صمت قليلاً وراح ينظر تجاه النافذة المفتوحة على المساء الذي بدأ تسلُّله العميق يحيط مصر الجديدة. نهض فجأة وأحضر ورقة وقلماً وطلب مني ان أكتب أية جملة تعن لي..! فجلست على المقعد وكتبت عبارة. تناول الورقة من أمامي، وراح يقربها من عينيه (كان من الواضح أنه يعاني من مشاكل في الإبصار) فجأةً تهللت أساريره وراح يبتسم وينظر نحوي بود، وقال لي: (أشكرك.. خلاص.. سنتعاون معاً!)

أخذ يشرح لي ما سأقوم به، وأن المسألة لا تتعدى أن أساعده في كتابة مقالات الأهرام – مساعدته فنياً وإجرائياً وليس فكرياً إلا إذا طلب مني ذلك – فهو سيقوم بإملائها لي وأنا سأكتبها، ربما أناقشه فيها أثناء كتابتها، و أخبره برأيي، وبعد ذلك أراجع المقال لغوياً، باعتبار أن هذا تخصصي أيضاً.. ثم يرسله هو للأهرام. " هذا هو أساس عملك معي.. ربما تظهر بعد ذلك أعمال أخرى.. ووقتها سنرى ماذا يُعمَل "! وافقت.. وحييته وانصرفت، بعدما اتفقنا على أن يكون العمل يومياً من التاسعة صباحاً حتى الثانية والنصف ظهراً. ويوم الجمعة أجازة.

غادرت منزله عائداً لبيتي الذي لم يكن يبعد عنه كثيراً.. كنت أسكن حياً لا يبتعد عن مصر الجديدة، وهو حي المطرية. أثناء سيري في الطريق رحتُ أتأمَّل لقائي معه وأكوِّن رؤيتي وفكرتي عنه.. وقبلهما إحساسي به! كأنما كنت أشعر أنني في بداية رحلةٍ وطريق لا أعرف أين سينتهيان! أخبرني إحساسي أن المسألة لن تتوقف عند كتابة مقالات الأهرام.. وأن هناك مجهوداً آخر أكبر سيُبذَل، لم آكن آبه لذلك. فلم أعتد الشكوى من العمل، وإنما كانت هواجس أخرى تسيطر عليَّ.. هواجس حول علاقة عمل مع أستاذ كبير بهذا الحجم، ولكنني شعرت أنه بلا بشر حوله فيما يبدو! كيف يعيش؟ ومن يزوره؟ ولماذا كان هذا الصمت يخيم على البيت؟ والدقة والصرامة والنظام الصارم حتى في ترتيب الأشياء؟ أم أنني تسرعت في الحكم عليه من خلال انطباعي العابر ومقابلتي الوحيدة له؟ وماذا سأفعل سوى مساعدته في كتابة مقالات الأهرام هذه؟

كانت الأسئلة تتناثر في عقلي وأنا عائد، كأنما كنت أستعدُّ لرحلة الإبحار للمجهول هذه، شارد ومتوتر. وضعتُ يديَّ في جيبيْ بنطالي، فتحسست يدي ورقة في الجيب الأيمن (لم آتِ وفي جيوبي أية أوراق!) أخرجتها وفتحتها.. ابتسمت! كانت ورقة (اختبار الخط) الذي طلبه مني فيما يبدو! رحت أقرأ العبارة التي كتبتها أمامه مرة أخرى (.. أنا متحمس للعمل معك. حمزة قناوي)

وتذكرت ابتسامته وتهلل أساريره فابتسمت أنا أيضاً.. قبل أن يبتلعني ظلام الليل في شوارع مصر الجديدة!

*

في التاسعة صباحاً كنت أمام شقة الدكتور، مستعداً متأهباً، في يدي أوراق وفي جيبي ثلاثة أقلام زرقاء وسوداء حمراء، فتح الباب.. كان نشيطاً وخفيف الحركة والكلمات، خمنت أنه معتاد على الاستيقاظ مبكراً. سألني.. ما الذي أحمله؟ وما هذا الذي يظهر من جيب قميصي العلوي.. فأخبرته بأنها اوراق وأقلام.. فضحك، وقال لي: تفضل: دخلنا إلى حجرة المكتب، فوجدت على سطح مكتبه العديد من الأوراق البيضاء ودفاتر الكتابة وكافة أشكال الأقلام بأعداد كبيرة، قال لي: لا تتعب نفسك بعد ذلك، فكل شيء موجود، وأشار بسبابته إلى رأسي ملامسها مستطرداً.. (والأهم من هذا ما يوجد هنا!).

.. بعدها غاب دقائق – كعادته – ثم عاد إلى غرفة المكتب وقد كست الجدية والصرامة ملامح وجهه. وجلس على مقعده الكبير الهزاز أمامي بينما اتخذت أنا مكاني خلف مكتبه، وبدأ إملاء مقاله الأول.. كانت الكلمات تخرج منه سريعة منفعلة كالطلقات، وكنت أركض خلف القلم والأفكار بلا جدوى من الجمع بينهما! فإما أن أتدبر ما يُكتب أو أن أكتبه بدون أن يسقط مني شيء! وقررت ان اقوم بعملي الوظيفي أولاً على أفضل ما يمكن ثم أتدبر المعاني بعد ذلك. وهكذا صرت ألاحق الكلمات بينما هو مستمرٌ في تحليل العالم، والكتابة عن الشرق الصاعد والصين الطالعة وروسيا العائدة وأفول نجم الغرب – أمريكا وأوروبا - الذي يتورط في العراق وأبو غريْب و فضيحة الرحلات الأوروبية لنقل المعتقلين إلى معتقلات وسجون سرية تملأ أركان القارة العجوز، و جوانتانامو و الديمقراطية الكاذبة، ويحلل ذلك من خلال الإحصائيات والدراسات التي كان يعتمد في الحصول عليها من صحف الغرب الأساسية الكبيرة في الأساس (الإيكونوميك واللوموند واللوفيجارو والهيرالد تريبيون والواشنطن بوست ونيويورك ريفيو أوف بوكس.. الخ) وينهض بين الفينة والأخرى ليحضر كتاباً مرجعياً يأخذ منه معلومة ويعيده إلى مكانه أو يحضر أحد الأطالس ليبحث عن نقطةٍ أو موقع استراتيجي صغير في خريطة العالم. كنت مندهشاً من هذا كله، أراقبه في صمت التلميذ، وفي دهشة المتعلم! رأيت كيف يُكتب المقال ذي الصفحات المعدودة في ست ساعات أو أكثر! (ومع مرور الأيام.. رأيته يكتب في أربعة أيام أو في أسبوع كامل)!

استمر الدكتور في الإملاء إلى أن قارب المقال على نهايته. وهنا فوجئت به يهتف: " Half Time "! (وهي الجملة التي سيظل يرددها باستمرار على مدى فترة تعاوني معه كلما تعب من المقال وأراد أن يستريح، قبل أن يقفز بعدها مثل شابٍ يافع من كرسيه الهزاز إلى حيث يغادر حجرة المكتب إلى الصالون وأنا أركض وراءه!)

في الصالون يجلس أمام النافذة المطلة على الحديقة في مقعد خصصه لنفسه، وأمامه مقعدٌ آخر اتخذت منه مكاني الدائم في هذا المكان.

دقائقٌ تحط العيون فيها على زهاء الحديقة وبهجة خضرتها، يسود الصمت، وألاحظ أنه يفكر لا يشرد! بعدها يلتفت إليَّ ويخاطبني: " هيا نكمل! " وكما نهض سريعاً من المقال ينهض هذه المرة سريعاً أيضاً ليعود إليه.. ويتجه عبر ممر الشقة الطويل إلى غرفة المكتب وأنا أركض خلف خطوته الواسعة وفي ذهني رقم الصفحة التي توقفنا عندها وآخر معلومةٍ كتبها وآخر علامة ترقيم، وقبل كل هذا.. الأسئلة التي أثارها المقال في ذهني.. وتعليقي على ما يكتب.

وتستمر الكتابة... إلى أن ينتهي المقال..

مع العبارة الأخيرة التي يضع فيها خلاصة المقال وفكرته الأساسية من خلال إطار مصري شعبي يجمع بين الحكمة وخفة الظل يعتمد فكرة طرح الأسئلة وترك النهايات مفتوحة للقارىء.. مشاركة لـهُ في صياغة الفكر.. مع هذه العبارة الأخيرة أجد وجهه يتهلل.. أراه سعيداً لإنهاء مقاله.. يتناوله من أمامي.. وتعانقه عيناه.. ويهتف: " في الجون! " وكنت أبتسم لطرافة العبارة وحيويتها... وأشعر بالسعادة لإنجاز المقال وكأنني شاركت فيه – وربما أكون فاعلاً بالفعل!

*

في قيلولة الظهيرة اعتادت شوارع مصر الجديدة أن ترى فتىً يهبط وحيداً من إحدى البنايات العالية القديمة ويسير بمفرده في شارع نهرو، في طريق العودة لحيه بالمطرية.. وقد امتلأت يداه بالحبر وقميصه أيضاً، وامتلأ رأسه بدرسٍ آخر جديد عن حضارات الشرق القديمة والعالم البديل عن عالم الحاضر.. التصورات والممكن.. قياساً على الحاضر ومعطياته، وهو يبحث عن ميكروباص يستقله نحو منزله القريب!

*

مع الأيام، ومع توالي اللقاءات من أجل العمل... من أجل كتابة المقالات، صرت أستكشف في الدكتور الكثير من طبيعته، ونقاط شخصيته، أساس هذه النقاط الجدية الشديدة في التعامل مع الحياة بصورة خلتها أحياناً لا إنسانية وغير متسامحة، فالخطأ البشري غير موجود في قاموسه، أو إن وجد فلا بد أن يكون ذلك مرةً طائشة ضمن آلاف المرات والنتائج الصحيحة والصائبة. باختصار لم يكن يؤمن بما يسمى (الظروف) و (الأمر الواقع)! فهناك دائماً إرادة، أما الظروف فتطوَّع!

وسوَّمني ذلك الأمرَّين!

فكان تأخير دقيقة واحدة عن موعد التقائنا الصباحي للعمل يستلزم لفت نظري (بلطف في بداية العمل معه.. وبقسوة بعد ذلك!)

ولكنني لم أغضب من مسلكه هذا وإنما أردت أن أفهم! فدقيقة واحدة للتأخير ليست نهاية العالم ولا شيئاً ذا خطر يستدعي المحاسبة بكل هذه القسوة، ونسيان كلمة في مقال لا يستدعي محاضرةً من نصف ساعة كان يظل يرددها معي دائماً عن أن عنصراً واحداً لو لم يكن موجوداً في تكوين الكون لاختل بناؤه بأكمله، ".. وقِس ذلك على عناصر الأرض.. وعلى مقال الأهرام! " (كان يذكر ذلك بجدية شديدة وقسوة وعصبية.. تجعلني أحار في الأمر)

ما الذي يدعو هذا الرجل إلى التعامل مع الحياة بهذه القسوة الشديدة والجدية واللاعاطفة؟

لم يكن هناك تفسيراً مباشراً واضحاً

غير أن الأيام وحدها كانت هي الكفيلة بالرد على هذه الأسئلة..

ومع الأيام كانت عناصر الصورة تتضح لي يوماً بعد آخر

وكان المفتاح الأساسي للرد يتمثل في (الطفولة)!

كانت مرحلة الطفولة والنشأة التي مر بها هي المفتاح الأساسي لفهم أسلوب تعامله مع العالم، والمسلك الصارم الذي يتعامل فيه مع عناصر الحياة بلا رحمة!

فقد نشأ في ظروف قاسية بعد وفاة والده، وتولت والدته تنشئته والعناية به والإنفاق عليه، لم يكن يملك ثروةً ولا مالاً يتكئ عليه مع الأم، فكافحت الأم لتربي وحيدها، وعانيا معاً ظروف شديدة القسوة. مما جعل هذه القسوة تترسب في نفسيته وتحدد علاقته بالعالم والآخرين. أما عن سوء الظروف فقد كان ذلك من صنع الثورة التي صادرت أراضي عائلته في الإصلاح الزراعي وكانت هذه النقطة ستشكل أيضاً مفتاحاً آخر لفهم انتقاده للثورة عند التطرق لها من الكثير من المناحي، أو نتائجها على الإنسان المصري! فكنت عندما أناقشه في مسألة من المسائل حول ثورة يوليو، يتجهم، ويبدأ في التأكيد لي على أن كثيراً من (الظلم الاصطلاحي) يلحق بمفهوم الثورة إذا كنا نعير مدلولها لـ "حركة" ضباط ٢٣ يوليو!

كان رأيه في مسألة الثورة هذا يربكني كثيراً.. لأنني وعبر كثير من المناقشات معه كنت أجد أنه شديد الاعتداد والاعتزاز بالثورة المصرية، ومن ناحية أخرى كان ممروراً من الكثير مما قامت به أيضاً. وقد يتوهم المرء أن المسألة قد تجتمع في سياق واحد يحتملها باعتبار أن الثورة لا شك لها بعض أخطائها، مع الاتفاق على الأرضية الكبيرة التي رسختها بالأساس من التحرير والعدالة الاجتماعية وبناء مصر الحديثة. كان هذا مفهوماً، ولكنني في كثير من المواقف كنت أجده يربط ما انحدرت إليه مصر من تفشي أميةٍ وتراجع في مستوى الفكر العام والآداب والفنون بالثورة! يقول لي إن أسوأ ما قامت به الثورة أنها قامت "بترييف" مصر وأتت (بالفلاحين) ليسكنوا المدن! فكنت أعبّر عن استغرابي لموقفه، متسائلاً " وما الخطأ في ذلك؟ " فيشرح لي أن هذا هو ما أوصلنا إلى الترهل المديني، واكتظاظ العاصمة بالسكان واحتلال هؤلاء القرويين غير المؤهلين سوى لحياة الريف وظائف لا يتقنوها، وتدهور الخدمات والمرافق والطاقة الاستيعابية للسكن بالمدينة وهجر الأرض الزراعية وتكاثر المهن الهامشية.. و.. و... ثم يؤكد لي أن كل هذا سببه الثورة التي لم تراع هذه الآثار الاجتماعية التي ستقع لا محالة حينما أرادت تطبيق العدالة الاجتماعية بشكل غير ممنهج!

سألته: أنت ضد الثورة إذن؟

فراح ينظر لي مندهشاً ويتمتم في سره بما خلته سباباً وتوبيخاً – وهو كذلك ولاشك، وتحسراً على جهل الشباب بتاريخ مجتمعاتهم! - قال لي: إن ثورة مصر بقيادة عبد الناصر كانت أهم حدث في القرن العشرين إلى جانب ثورة الصين بقيادة ماو تسي تونج – وكانت إشكالية الثورة المصرية بقيادة عبد الناصر إشكالية غاية في التعقيد، فقد كان عليه أن يقتلع الاستعمار وأن يواجه نظام الدولتين المهيمنتين حسب نظام مؤتمر يالطا، وأن يجمع شتات الأمة العربية وكانت في معظمها لا تزال تحت الاحتلال العسكري الغربي وأن يواجه إسرائيل ويجمع بين الجيش والشعب ومن أجل هذا كان عليه أن يستأصل الموجة الغربية في طلائع الفكر والسياسة في مصر وأن يجمع القوى الوطنية المؤمنة بالقومية العربية وبالدائرة الإسلامية والإفريقية، أي أن عليه أن يقلب الدفة تماماً في الحياة العامة السياسية والفكرية في مصر، وإلى حد ما في المشرق وشمال أفريقيا. وكانت هذه عملية جبارة، ولا بد أن تكون لها أخطاؤها، لاسيما وأن معظم القوى السياسية لم تدرك المغزى التاريخي لجمال عبد الناصر وأن من أدرك هذا المغزى حاول ان يحصره في النظام السياسي أو الطبقي. ورغم هذا ففي الثمانية عشر عاماً التي قاد فيها عبد الناصر مصر والأمة العربية زال الاحتلال العسكري من أراضي الوطن العربي وتمت التجربة الوحدوية بين مصر وسوريا – بالرغم من أخطائها المعروفة – وأدخل مفهوم الاشتراكية العلمية

إلى صلب الحركة الوطنية، وركز على السيادة والاستقلال الوطني العربي، وهو الذي أرسى حدود السياسة الخارجية العربية وأوجد صيغة التحالف الموضوعي مع الدول الاشتراكية على أساس شعار نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا. فهذه المعاني والدروس. هذه التجربة لا يمكن أن يعاديها إنسان ؛ صحيح إن هناك (حربٌ في الظلام) قامت بالفعل في عهد عبد الناصر وفرّقت شمل الحركة الوطنية وزجت بروادها وعناصرها المخلصة في المعتقلات والسجون، ولكن الحركة اليسارية الوطنية المخلصة أدركت معنى جمال عبد الناصر، وكانت معه دائماً منذ عام ١٩٥٤ وصاعداً وحتى عام ١٩٦١ عندما قام التنظيم السياسي كان اليسار الوطني في صلب ذلك التنظيم (الاتحاد الاشتراكي العربي) وفي حرب ١٩٦٧ وفي حرب الاستنزاف وفي إعادة الحياة بعد عام ١٩٦٧.

فالثورة بقيادة جمال عبد الناصر قامت بكل هذه الأفعال خلال فترة قصيرة نسبياً وهي ثمانية عشر عاماً، قبل أن يذهب عبد الناصر نفسه ضحية الحملة المضادة من الغرب.

ثم التفت لي قائلاً: في رأيك.. هل يوجد مصري واحد يمكن أن يقف ضد الثورة بعد ذلك؟

شاكست قائلاً: ولماذا إذن تُرجِع معظم السلبيات التي نعاني نحن منها اليوم في الحياة الاجتماعية إلى الثورة. فقال لي: لأنها الحقيقة. ولأن الثورة لم تضع الكثير من الأمور في حسبانها وهي تقوم بالإصلاح الاجتماعي الوطني.. ودعكَ من الترهل المديني والموجات المتلاحقة لتريف مصر، ومسألة تفريق القوى الوطنية تحت شعار (أهل الثقة وأهل الكفاءة)، فقد عاودت الانضواء تحت لواء الثورة مرة أخرى والتلاحم بعد عدوان ١٩٦٧، فليس ذلك كل شيء، وإنما أهم ما يؤخذ على الثورة ما فعلته بمناهج التعليم.. وتحديداً مقررات التاريخ!

فهل تعرف شيئاً عن التاريخ الملكي الحاكم مصر قبل ثورة ١٩٥٢ غير أنه كان كله مفاسد ونهب وسلب لثروات مصر، وأن القيادة السياسية كانت ضعيفة، وأن المُلاّك كانوا متوحشين، وأن مصر بأكملها كانت تعيش في ظلمات! هذا غير صحيح، في العهد الملكي كانت مصر تضج بالحرية السياسية والديالكتيك الاجتماعي والسياسي، وكان الملك ذا شعبيةٍ كبيرة ومحبوب بين الناس، وله شخصية سياسية قائدة. والأهم أن من يسمونهم

(بالإقطاعيين) كان منهم قطاع واسع يؤمن بالحركة الوطنية المصرية ويقوم بدعمها – وهم من يمثلون القطاع الرأسمالي الوطني ومن هؤلاء ظهر طلعت حرب وغيره. لم يكن كل المُلاّك طغاةً وفاسدين، ولم يكن تاريخ مصر قبل الثورة كله ظلاماً!

رحت أتأمل كلماته التي استشعرت موضوعيتها وحقيقتها إلى حد كبير... ولكن لم يحُل ذلك بيني وبين أن ألمح مشكلته الذاتية الشخصية في قلبها.. كان لابد أن يهاجم الثورة فيما يتعلق بالإصلاح الاجتماعي والطبقي.. فقد ذهبت ثروة أسرته مع الإصلاح الزراعي.. ولم تتحدد حياته بشكلها الحاد إلا لهذا السبب في الأساس.. وقد كان مؤيداً لتحرير الإنسان على يد الثورة.. ولكنه ظل طيلة حياته – العملية على الأقل والتي أعايشه خلالها يومياً – يرى الناس صنفين: أبناء ذوات أو أبناء من قاموا ب (حريق القاهرة) واستولوا على قاهرة العهد الملكي وحولوها إلى صورة من الريف العشوائي بقيمه اللامدينية!.. وكان كلما رأى مصرياً ذا أصول ريفية بادية في تعاملاته ويعمل ويعيش بالقاهرة يسأل في دهشة وهو يستنكر: "ما الذي أتى بهذا للقاهرة" ؟

كانت فكرة الطبقية تسري في دمه.. رغم أن كتاباته تحاول تفنيدها وتحليلها.. وكان هذا تناقضاً آخر لم أفهمه فيه أبداً! حتى أننا عندما نمتدح عملاً قام به أحد الأشخاص أو الوجوه أو

الشخصيات العامة التي ربما تمتد جذورها إلى أرستقراطية ما قبل الثورة.. كنت أقول له مبتهجاً " يا سلام.. شايف الوطنية! " فيقول لي " لا والأهم .. ابن باشا.. بل وطني لأنه ابن باشا "! وكان دائم الإشارة إلى رفيق رحلته "محمد سيد أحمد" بذلك، وراهب الوطنية المصرية " نبيل الهلالي "! وغيرهما.

كانت مشكلته الخاصة – كما أسلفت- في قلب ذلك كله..

كان وحيد والديه، ثم أمه فيما بعد. واضطرت هي تحت وطأة الموقف بعد وفاة الأب الذي لم يترك ثروة أو معاشاً إلى تحمل هذه الظروف بشجاعة واجتهاد، فعملت وكدحت بشكلٍ متفانٍ من أجل وحيدها، ولم يكن حولهما من يساعدهما من العائلة، وكانت ذاكرة الطفل في ذلك الوقت حساسة ومرهفة، ولا سيما الذاكرة البصرية التي أخذت تتابع وتسجل مسيرة الحياة والكفاح والشقاء التي احتوت رحلة الأم مع ابنها في زخم العالم اللامبالي بهما أو بظروفهما، إلى أن شب يافعاً، ثم ناضجاً، لا يرى من العالم سوى استقلال كل إنسان بظروفه ومسئوليته بدون أن يساعد أحدٌ الآخر، أو ربما يحدث ذلك.. ولكن لابد أن يكون لمصلحةٍ في الأساس ومن أجل مقابل!

عند ذاك عذرته! وبدأت أتلمس أسباب الفهم، وتفسير مواقفه.. لم أعد أغضب أو أحزن عندما أراه يعنفني على ما لا يستحق.. إضافة إلى أنني كنت أدرك أن للوحدة أحكامها مع هذا الرجل الذي بلغ الثمانين بلا إنسان بجواره! كان يجب أن أعامله كأبي، وبالفعل، ومع مرور الوقت صرت أشعر بألفة شديدة له، ولعصبيته، و لوحدته، و لقسوته على نفسه، غير أنه كان حريصاً – كالمعتاد وكدأب حياته – على أن يحتفظ بمسافات كافية لمحو أية صبغة إنسانية على طابع علاقتنا العملية، فكان يرفض الاعتراف – أو التصديق – بأن هناك إنساناً قد يود آخر بلا مصلحةٍ ترتجى من وراء ذلك، أو أن هناك مفهوماً ومعنى للعلاقات الإنسانية من الأصل، إلا علاقة واحدة.. هي علاقة الأم بابنها! وأحسب أن هذا كانت أسبابه واضحة! على عدم صحتها، وعلى ما أضاعته عليه من أسبابٍ للسعادة والسلام النفسي، حين أبعد الأصدقاء والرفاق من طريق حياته، أو أحاطهم بسياج من العملية الصارمة، فظل وحيداً في طريق طويل!

أما المفتاح الثاني من مفاتيح فهم شخصية "الدكتور" فيمتد زمنياً أيضاً إلى مرحلة الطفولة، وإن كان ليس من عناصر هذه المرحلة في حد ذاتها، وإنما يتداخل معها زمنياً فحسب، و يتمثل في التحاقه بمدرسة الجيزويت (اليسوعيين)، هذه المدرسة التي تُعد – إلى اليوم – من أكبر معاهد التعليم في العالم بأكمله، وتحاول الجمع بين التكوين العلمي من ناحية والروحي والأخلاقي من ناحية أخرى. إضافة إلى نظامها الداخلي الصارم الذي يقربها كثيراً من مبادئ العسكرية وتقاليدها، مما جعله يتشرب الشدة والصرامة في هذه المرحلة من مراحل العمر، لتظل هذه الصفات تلازمه طوال رحلة حياته.

هناك الكثير من المفاتيح الأخرى التي راحت تتكشف أمامي يوماً بعد آخر، وصرت أراه من ورائها، فالطفولة ليست الحياة بأكملها، ولكنها أكثر الفترات التي تتشكل فيها شخصية الإنسان، غير أن هذه الطفولة تلتها فترات أخرى لم تكن أقل تأثيراً في شخصيته، بدءاً من المعتقل الذي دخله أثناء الحكم الناصري (تحديداً في الفترة من أبريل ١٩٥٥ إلى مايو ١٩٥٦) قبل أن يهرب منه، ثم الرحلة الطويلة التي قطعها لاجئاً سياسياً في فرنسا باحثاً وطالباً وكاتباً فيما بعد، وحيداً، منعزلاً، ثم المتن الأساسي الكبير لحياته من خلال عمله بالمنظمة الدولية بباريس، حتى وصل إلى مشارف رئاستها حين صار نائباً لرئيسها، ثم عودته إلى مصر بعد انتصار ١٩٧٣، وصدمته

بمعاهدة كامب ديفيد، وعودته إلى فرنسا التي ستظل المرفأ الأخير، والحزين البارد، لحياته التي قطع معظمها بها، وحيداً إلا من اتصال هاتفي يدق على فترات بعيدة للغاية، أو فاكس عابر من مؤسسة، أو إيميل (بعدما "علمتهُ" بصعوبة بالغة وصبر طويل كيف يتعامل مع الشبكة الإلكترونية!).

حياةً كبيرة، كأنما هي بحرٌ متلاحق الموجات...

غير أن الرابط الأساسي لهذه الحياة، والعنصر الذي ظلَّ يربطها هو الوحدة والانعزال، وعدم الاستمرارية، استمرارية التواصل مع البشر، أو البحث عن علاقات إنسانية غير عملية، والتفكير في الحياة باعتبار أن عمادها المصلحة والنجاح.. التفوق على حساب أي شيءٍ آخر، عدا ما قد يجلب العار (على حد القول الذي ظل يردده لي طيلة حياته):

- " *لا تخشَ شيئاً ولا تخجل من شيءٍ إلا العار أو ما يجلبه* ".

لا شك أن هذه الموجات المتلاحقة من الحياة الكبيرة التي قطعها هذا الرجل حفرت شخصيته حفراً، باختلاف طبيعتها، باختلاف سمات كل واحدةٍ عن الأخرى، من يتم أبوي وظروف عسيرة، إلى اعتقال، وغربة، ودأب من أجل التفوق بعدما شحذت كل هذه العوامل همته من أجل تحقيق الذات فحسب، ثم التكوين العملي في قلب الغرب، الذي عاش فيه أكثر من نصف قرن، بكل ما يحويه الغرب من مادية وشراسة وعنصرية وعملية وانسحاب للمفاهيم والقيم الإنسانية وتراجعها باعتبارها مرتكزات للتعامل.

*

في أحد الأيام، وبينما كان الدكتور يقرأ بجوار النافذة العريضة المطلة على الحديقة، كنت أنا مُنكبّاً على الطاولة العريضة بالصالة - التي صارت – أو عُدَّت! - فيما بعد مكتباً لي، ومكاناً للعمل.. منكباً على تجهيز بعض الأوراق والقصاصات البحثية التي ستشكل موضوع المقال القادم، كنت أقرأ المجلات الأجنبية، وأنتقي ما يتعلق بين صفحاتها بموضوعات معينة، سياسية في الأعم الأغلب، وأرتبها ترتيباً تصنيفياً في ملفات خاصة، قبل أن أضعها بين يدي الدكتور، ليرى ماذا سيحتاجه لكتابة مقاله القادم، كانت المهمة شاقة فعلاً، فعلى سبيل المثال كانت التصنيفات التي تُدرّج القصاصات على أساسها هي: (الشرق الأوسط، إسرائيل، منظمة شنغهاي للتعاون الدولي، مصر، الوطن العربي، أديان، فلسفة، تاريخ، استراتيجية، الولايات المتحدة، اجتماع، آداب، متفرقات، بترول..) وغير ذلك. كانت صعوبة المسألة تكمن في انتقائيتها! فقد كنت أتعامل مع عشر مجلات وصحف بين العربية والإنجليزية، أما المجلات الفرنسية – كاللوموند واللوفيجارو مثلاً – فكنت أترك التعامل معهما للدكتور، فلم أكن أجيد الفرنسية.

كان الدكتور منهمكاً بالقراءة بجوار النافذة حيث البقعة المشمسة الوحيدة بالشقة، وكان يعاني من مشاكل في الإبصار، ويستعمل ثلاث نظارات، إحداها للقراءة. وبينما كان يقرأ.. رفع رأسه وقال لي: "أتعرف ما هي المادة الأساسية للحياة؟ " فتأملت سؤاله بعض الوقت بعدما رفعت رأسي المُتعب من العمل في القصاصات والتصنيف، ورحت أبحث عن الإجابة بسرعة في ذهني، قبل أن يفجؤني هو بالرد، وكان شيئاً من الغموض يلف السؤال.. فما المقصود بمادة الحياة؟ ربما تكون (الخلية) إذا كان يقصد المعنى البيولوجي! وربما الذرَّة أو العنصر إذا قصد التكوين المادي، وربما...! أجابني قبل أن أنطق بأي من الاحتمالين أو سواهما (ليس أي شيء مما في ذهنك! فمادة الحياة هي الوقت).

كنت أعلم أنهُ طالما ابتدرني بسؤال أنه يريد الكلام! كان هذا خطأي الأكبر الذي ارتكبته مع هذا الرجل الوحيد ذي الثمانين عاماً، أو لعلها شخصيتي الهادئة هي التي ارتكبت ذلك الخطأ. فقد كنت ولا أزال صموتاً قليل الكلام! وكان من الممكن أن يمر يومٌ كامل بيننا في بيته، يكون كل منا منشغلٌ في عملٍ ما يقوم به، فتمر الساعات ولم يخدش الصمت سوى عبارتيْ (أهلاً وسهلاً) و(إلى اللقاء)! كان هذا يبعث على الجنون، غير أن تكوين شخصيتي لم يكن يسمح بأكثر من ذلك، وكنت كثيراً ما أحاول جاهداً أن أختلق حواراً من الهواء! أفتح باباً لخلق الكلام من العدم، كأن أقول مثلاً (الجو جميل اليوم) فأفاجأ بالدكتور يسهب في أن يؤمّن على حديثي، ويسترسل مستبشراً بأن الجو جميل (وقد لا يكون كذلك!) لأن في هذا العام من السنة تكون الشمس متعامدة على كذا ومتقاطعة على كذا، والأهم أن هذا مرتبط بالتاريخ الفلكي القديم لدى الصينيين أو الفراعنة، قبل التوصل إلى اختراع آلات الرصد الفلكي الحديثة.. إلخ! والحديث عن الصينيين – الصينيين بالأخص! - كان يفتح لهُ الباب للحديث عن الحضارات القديمة، وتداخل الحضارات وتواصلها، والتاريخ الإنساني... و.. و!

كل هذا لأنني قلت (الجو جميل)!

كل هذا لأن إنساناً يعيش الوحدة والصمت في بيتٍ متسع لا يرن هاتفه إلا مرةً أو مرتين في الشهر! ولأن حياةً حافلة بالبشر والضجيج والسفر حول العالم والعلاقات تتراجع وتنحدر إلى زوايا الظل والوحدة بلا رفاق ولا صحبة.

كان هذا ماثلاً في ذهني طوال الوقت وأنا أتعامل مع الدكتور، فأتحمل ساعتين أو أكثر من الحديث حول كل شيء وأي شيء لمجرد الكلام والبوح، قبل أن يصمت فجأة، ويستمر هذا الصمت بيننا لبرهةٍ قبل أن ينظر لي وللعمل المتراكم أمامي ويسألني في نبرةٍ مفاجئة:

(لماذا لم تنهِ العمل أمامك؟) فأجيبه في هدوءٍ وثقة: (لأننا كنا نتحدث منذ ساعتين) فيسأل وقد مسحت صوته عصبية ما: (وما المانع أن تعمل ونحن نتحدث؟) فأؤكد له أن ذلك سيكون من العبث! فتصنيف القصاصات ومراجعة المقالات والجمع بينهما وبين الكلام لن ينتج سوى عملاً مهلهلاً. وكانت نتيجة مناقشتي له محسومة دوماً، فليس هناك سوى التوبيخ والتعنيف! واتهامي بالثرثرة والتكاسل وعدم التركيز. وكنت أتحمل كل ذلك في هدوء وصبر، وأنا أثق في أنه سيصفو بعدها بأقل من ساعة، وهو ما يحدث حين يتركني في أوج غضبه وعصبيته منسحباً إلى حجرة المكتب، لينشغل فيما لا أعرفه، أو يذهب إلى غرفة نومه، ويستلقي، وربما تأخذه إغفاءة صغيرة، قبل أن أراه واقفاً أمامي في الردهة يسألني بوجهٍ مبتسم: (هه! ما أخبار العمل يا بطل! أنت نشيط للغاية)!

كان هذا يبعث على الجنون! وكان هذا دأبه دائماً، التقلب وعدم الثبات، ومراجعة نفسه فيما يتوصل إليه من قرارات أو انفعالات، قبل أن ينقضه في ثوانٍ!

كنت صبوراً متسلحاً بالتحمل والرويّة، وأنا أتحمل الحياة الغريبة لهذا الرجل، فبعد شهر كامل من العمل معه، لاحظت أنني لم أفتح باب الشقة ونحن نعمل إلا نادراً! فالباب لا يرن جرسه إلا محصل الكهرباء أو المياه أو ساعي البريد، وربما (الشغالة) أو البواب. ما عدا ذلك فلم أرَ أحداً من أقارب أو أصدقاء أو معارف! كأنما كان منعزلاً عن العالم، وبلا علاقة واحدة مباشرة بالناس.

وكان لهذا انعكاسه الكبير عليَّ وعلى عملي معه. فمع الأيام، صارت العلاقة الإنسانية التي يحرص هو على وضع الحدود والضوابط لها وجوداً فعلياً متحققاً بيننا وإن لم يعترف به! ففي إحدى المرات طلب مني أن آتي مساءً لنكمل العمل. فأبديت دهشتي، وأخبرته بأن العمل قد انتهى اليوم ككل يوم، وسأكمله غداً، في نطاق مواعيدنا الطبيعية! فإذا به ينفعل ويحتد وهو يطلب مني ضرورة أن آتي ليلاً – وقت المغرب بالضبط - لأن هناك عملاً آخر سأقوم به، وهو متعب الآن ولن يستطع أن يشرحه، فهدأت من انفعاله ووعدته بالمجيء.

وبالفعل عدت إلى منزلي فاسترحت من عناء العمل.. وتهيئت بعد العصر للعودة إلى بيته مرةً أخرى لأرى ما هو العمل الذي سأقوم به... بعدها بساعة كنت لدى الدكتور أسأله عن العمل المنوط بي، فلم يرد، وطلب مني أن أستريح وأن أشاهد التليفزيون إلى أن يعود! فجلست أخبيء حيرتي في صمتي وتعابيري المحايدة إلى أن يعود من الداخل.. وفتحت التليفزيون، وكانت هناك مباراة كرة قدم بين مصر وفريق آخر.. أخذت أتفرج.. بعدها بدقائق ظهر الدكتور وهو (يجر) منضدة ذات عجلات، وعليها بعض المأكولات وعصير! وضعها أمامي، وجلس، وإذا به يهتف (ماتش جميل.. في الجون!)

وشعرت بالدهشة!

. (يبدو أنه لا عمل هناك ولا يحزنون.. هكذا أنبأني إحساسي! فهذا الرجل لا يضيع ثانية واحدة عندما يعمل، ويكون متحفزاً ويتعامل مع العمل بشراسة بالغة، والذي يحدث الآن يؤكد أنه لن يعمل.. فلماذا طلب مني المجيء؟) وكالعادة.. لجأت للصبر وأنا أؤكد لنفسي أن الدقائق القادمة ستسفر عن معنى هذا اللقاء! غير أن شيئاً لم يزد عن متابعة المباراة وصيحات الدكتور المتوثبة المشجعة وهو يتخيل نفسه يشارك في المباراة، ويثني على هذا اللاعب ويعنف الآخر! ويسألني رأيي في هذه اللعبة أو تلك بين كل فينةٍ وأخرى! وأنا أحاول مجاراته لكيلا أخرجه عن جو حماسته هذا.

ساعتان مرتا هكذا.. إلى أن انتهت المباراة وانتهى هو من تناول عشائه، الذي لم أنل منه سوى العصير، والتفتُ إليه لأعلق على المباراة أو أقول له أي شيءٍ ذا معنى، لمجرد كسر الصمت بيننا فإذا بي أجده نائماً على مقعده، رأسه مائلٌ على صدره وقد علت وجهه ابتسامة من استراح بعد إرهاق.. فقد ظل ساعتين يشجع ويشارك وينفعل.. كان سعيداً!

ولم أكن أعرف ماذا افعل! لو أوقظته فمن الصعب أن أسلم من عصبيته وصراخه لأنني أوقظته. ولو تركته نائماً فربما يظل نائماً هنا على كرسيه إلى اليوم التالي.. فمتى سأعود لمنزلي؟ ولماذا أتيت من الأصل؟

واضطررت بعد مرور ساعة كاملة على هذا النحو أن أختار الحل الثاني وأوقظه، وكان أن حدث ما توقعت.. فقد بدأ يثور، وينفعل.. فهدأته وأكدت له أنه على هذا الحال منذ ساعة، وأنني لا أعرف ماذا افعل بالضبط، وسألته: أين العمل الذي سأقوم به؟ فازداد ثورةً وغضباً وأخذ يكيل لي التوبيخ وهو ينهض متوجهاً لغرفة نومه... ويغلقها في عنف!

كنت أشعر أنني على وشك الانهيار مما يفعل!

فإذا كان مجيئي من أجل مشاهدة مباراة كرة قدم أو تناول عشاء معه، فلماذا لم يخبرني فقط؟

وهل من المعقول أن يكون ذلك سبب مجيئي؟

تأملت سؤالي قليلاً، ووجدت أن الإجابة المنطقية هي: نعم! معقول جداً

فهذا الإنسان الذي يعيش في سجنه الانفرادي الثمانيني في قلعته المحصنة العالية لا شك أنه يهفو إلى المشاركة.. مشاركة الناس له أو مشاركته إياهم.. وتأملت معنىً بعيداً زارني فجأة واندهشت!

هذا الرجل الذي يعيش العزلة التامة أستاذ في علم الاجتماع الإنساني!

لف العالم أكثر من مرة، واختلط بمعظم شعوب الأرض، وعمل في أربعين دولة، واحتك بالكثير من المجتمعات شرقاً وغرباً، وعامل آلاف الأشخاص من عشرات الجنسيات.. وانتهى بعد كل هذا الزخم وحيداً مفرداً في شقةٍ لا يزوره بها أحد!

كان ثمة خللٍ قد حدث في هذه الحياة، فمقدماتها لم تفض إلى النتائج الطبيعية المتوقعة لها! ثمة حلقةٍ ناقصة في هذا كله، ولكنني لم أعثر عليها بعد. فأين أسرته؟ ولماذا لا يزوره أحد في بيته؟ وماذا حدث لينتهي به المطاف إلى هذه النتيجة وحيداً معزولاً؟

كان هناك الكثير من الأسئلة.. ولم يكن يجيب عليها سوى الأيام..

فانتظرت أن تجيب.

ولعلها أجابت بالبعض وبخلت بالآخر!

*

كان اليوم يبدأ من الخامسة صباحاً، حيث يستيقظ الدكتور فيأخذ حماماً دافئاً، ويمارس التمارين الرياضية السويدية، ثم يعد إفطاره في السادسة، ويتناوله وهو يقرأ الصحف ليعرف ماذا يدور بالعالم من لحظة النهار الأولى، وبعد ذلك يتابع نشرات الأخبار العالمية على الشاشة، حتى السابعة، ومن السابعة إلى الثامنة ينهي كل التليفونات الضرورية – وغالبيتها للعمل - أو يرد على المكالمات المتأخرة المسجلة على هاتفه، ويتهيأ للكتابة بعد ذلك، إلى أن آتي في التاسعة صباحاً، فنعمل معاً حتى الثانية ظهراً، وبعد ذلك كان يتناول غداءه – وحيداً في أول شهر من معرفتي به – ثم معي وأنا أشاركه الغداء بعد ذلك، ثم يخلد للنوم حتى الرابعة والنصف، ثم يستيقظ، فيبدأ في التمارين الخفيفة مرة أخرى، قبل أن يجلس إلى المكتب للقراءة، وفي السادسة أحضر لأعاونه مرةً أخرى (فقد صار العمل فترتين يومياً!) ومن السادسة للتاسعة نكتب، وليلاً نشاهد الأوبرا في التليفزيون أو نشرة الأخبار الصينية.. ونحن نتناول العشاء، وفي الحادية عشرة يكون الدكتور قد نام على مقعده، وأنا في نفس الحيرة التي يخلفها لي دائماً، فلا أعرف إن كنت أوقظه أم أغادره!

عايشت هذا الرجل عامين.. فلم أره يغير هذا النظام يوماً واحداً!

والأهم أنني لم أرَ أحداً يقتحم هذا النظام ولو على سبيل المصادفة والتقاطع الحياتي الوارد وكان هذا يدعو للأسف والدهشة معاً!

حياةٌ بلا معية اجتماعية ولا صداقات ولا بشر، ولا شيء بها سوى العمل والصرامة، كيف يمكن أن تُحتمل؟

مع الأيام.. صرت وحدي الذي أدفع ثمن هذا بأكمله! كأنما غددت مسئولاً عن هذه الحياة الموحشة لهذا الرجل، فصار من واجبي أن أملأها، واتضح هذا من البداية على مواعيد العمل بيننا والتي كانت تبدأ من التاسعة صباحاً وتنتهي في الثانية ظهراً، فصارت من التاسعة للثانية، ومن السادسة إلى الحادية عشرة!، وكنت أحصل على إجازة يومين في الأسبوع هما الجمعة والأحد، فصارت الأجازة بعد الشهر الأول قاصرة على الجمعة فقط، وبعده بأسابيع قليلة لم يعد لي اجازات نهائياً. وصار العمل سبعة أيام في الأسبوع، فترتين يومياً، وكنت أركض خلفه متقطع الأنفاس. أما العمل نفسه الذي بدأ بإعداد المقالات وكتابتها ومراجعتها، فقد بدأ ولكن لم ينتهِ أبداً! فإلى جانب ذلك، صرت أعد كتب الدكتور التي سيتعاقد عليها أو يجهزها للطباعة، صرت أجمع له المادة الأساسية للكتاب من مقالاته المتناثرة عبر أربعين عاماً بالصحف، وأناقشه فيها، ونظل طيلة أسبوع كامل تنقح فيها ونعاود الانتقاء والمناقشة والجدل، قبل أن نتفق وندفع بالعمل للناشر، وهنا تنتهي مهمته، وأتولى بمفردي الشوط حتى نهايته!

فقد كان عملي الأساسي المراجعة اللغوية، وكان هذا يجعلني أتولى مراجعة الكتاب بالاتفاق مع الناشر، فأراجع بروفاته وأصححها، وأعود بالذي صُحِّح إلى الدكتور، فيقرأه، ويبدى ملاحظاته على عجل، ويترك لي باقي المهمة بعدما نتناقش في الخطوط العريضة حول الكتاب. أما مسألة (باقي المهمة) هذه فلم تكن سوى العذاب بعينه! فكان يجب عليَّ أن أتحمل الأخطاء التي تقوم بها بعض المؤسسات التي سيخرج الكتاب منها، وأتعامل مع القائمين على إخراج الكتاب من ألفه إلى يائِه، من جامعي وصافِّي الكلمات، إلى مراجعيها، إلى مصممي الغلاف، إلى المسئولين عن شِق الترجمة به، وحتى باب المطبعة.

أذكر أن هيئة حكومية استغرقت عاماً كاملاً في تصحيح بروفات أحد كتبه فقط، وجاهدت معهم لإنقاذ ما أفسدوه من العمل، حتى خرج الكتاب وبه أخطاء كثيرة على ما فعلت، فكان جزائي التوبيخ من الدكتور، رغم أن الهيئة بها أعلى وأفضل من يدَّعون قيامهم بتنفيذ المؤلفات! فكان خطأ المؤسسات بكاملها يُلقى على كاهلي وحدي، وكان موظفو البيروقراطية المصرية الأصلاء يجدون في هذا المتطوع بحكم عمله صيداً ثميناً يريحهم من عناء إتقان العمل، فكانوا لا يسلمون لي الكتاب إلا وهو (مخطوط أخطاء)! بدعوى أن (البركة فيك)! فكنت أعمل مترجماً ومراجعاً لغوياً ومراجعاً تاريخياً ومشرفاً على الأغلفة ولم أكن ألاحق الركض بين دار الهلال والمجلس الأعلى للثقافة وهيئة الكتاب ومكتبة الشروق ومركز المحروسة وروزاليوسف.. وغيرها.. وأنا أتأرجح بين المواصلات كالبهلوان قاطعاً المدينة من أقصاها إلى أقصاها) قبل أن أعود للدكتور منهكاً خائر القوى في آخر النهار، مع بدء فترة العمل الثانية، فكان عندما يراني يقول لي متعجباً: "مالك!! لماذا أراك كأنما قطعت البلد على قدميك ركضاً؟! " فأؤكد له أن هذا ما فعلته بالضبط بسبب كتبه! فيبدأ في التمتمة الغاضبة التي تصل إلى أسماعي منها كلمات..

(جيل خيبان.. شباب ضعيف)!

وكنت أعلم أنه تشرَّب هذه العادة.. عادة عدم الرضا بشيء من منبعين:

الأول طفولته التي لم يشاركه فيها أخ في والديه.. وأزمة الطفل الوحيد هذه يعرفها الجميع، لأن كل طلباته تكون مجابة ولا يُرفض له طلبٌ، مما يجعله لا يرى سوى ما يريد، حتى ولو على حساب الآخرين.

والثاني هو تأثره بأستاذ الفلاسفة عبد الرحمن بدوي، أستاذه المقرب إلى نفسه، والذي منحه الليسانس من جامعة فؤاد، فقد كان عبد الرحمن بدوي عصبياً شرساً في التعامل، لا يرضيه شيء، دائم السخط على تلاميذه وعلى معاصريه، ولعل من يقرأ مذكراته قبل وفاته يتأكد من ذلك، حيث لم يترك اسماً ولا أديباً أو فيلسوفاً أو كاتباً إلا وصب عليه غضبه، وقد تشرَّب هذه الصفات منه. (كأنما أرادت الحياة لهما التشابه فيما هو أكثر من ذلك، فعبد الرحمن بدوي الذي كان يعيش في أحد فنادق باريس عندما شارف على نهايته سقط وحيداً في باريس عندما كان يتمشى كعادته صباحاً ونقلوه إلى مصر في الأيام الأخيرة بصدفةٍ غريبة، وكان صديقي الدكتور، حتى السنة التي انفصلت عن العمل معه فيها قد قارب على السنة الحادية عشرة التي لم يُحدِّث فيها مخلوقاً في باريس وقد تجاوز الثمانين! فكان يشتري طلباته بمفرده ويتمشى بمفرده، ويتنزه على غير هدى، قبل أن يعود إلى شقته الصغيرة ذات الخمسين متراً في " بلاس دي ايتالي " ليتأمل العالم عبر النافذة دون أملٍ في أن يرن هاتفه حتى! تشابه في الطباع والمصائر إلى حدٍ غريب ومُلفت!

وهكذا راح الدكتور يلقي على كاهلي عبء العمل التنفيذي بأكمله، بينما استمر هو في التفكير والكتابة، بعدما ساعده ذلك على التفرغ للتأليف وعدم القيام بشيءٍ آخر .

وكان مشهداً عجيباً يتكرر يومياً..

فتىً في العشرينيات جالسٌ على المكتب وحوله مئات الأوراق وعشرات القصاصات والمقالات، وشيخٌ مكتهلٍ جالسٌ أمام النافذة المطلة على الغابة الخضراء يفكر في إصلاح العالم ويبحث توازناته!

لم يتوقف هذا المشهد يوماً بين عامي ٢٠٠٤ و ٢٠٠٦! في هذا الركن الركين من مصر الجديدة.

ولم يكن يقطع الصمت بينهما سوى صوت التنفس المنتظم للكبير حين ينعس أمام الشمس والأسئلة التي تضطرب في عقله أو صوت تنهد الفتى الحزين الذي يغرق شبابه يومياً في السياسة وأسئلتها والحروب المؤتمرات ودروس التاريخ بينما لا يحب من الدنيا سوى الشعر!

وينتهي اليوم إلى يومٍ جديد لا تتحرك فيه العادات قيد أنملة عما هي عليه.

لا المشاهد لوناً..

ولا الساكن حركة!

*

ثمة منطلقات أساسية ودعائم فكرية كانت هي التي تصوغ الإنتاج الفكري للدكتور، وكانت مصر في قلب هذه المرتكزات.

ولعل هذا قد رسخ بصور أساسية الخط العام لمؤلفاته الفكرية وكان مفهوم الثقافة الوطنية يعود إلى مرحلة صياغة الخط العام للحركة الوطنية المصرية من كتاب - أو فلنقل من بيان - شهدي عطية الشافعي (نريد حزباً من نوع جديد). وقد كان الداعي الذي حفزه على تأليف ذلك الكتاب – كما أخبرني هو - أن نقصاً في التفسير السائد بعد الحرب العالمية الثانية لمفهومي الاستعمار والإمبريالية كان شائعاً، إذ كان التركيز آنذاك على أولوية البعد الاقتصادي – المالي للسيطرة والاحتلال الأجنبي للشعوب الضعيفة. فكان هذا الكتاب الافتتاحي لهذا الخط التنويري، حتى إعلان برنامج (اللجنة الوطنية للعمال والطلبة) عام ١٩٤٦.

بعد ذلك نحت مؤلفاته الفكرية إلى توجه آخر صاغته المرحلة، فكانت المرحلة الثانية في إطار حركة الفكر الاجتماعي المصاحبة للمعارك الدائرة على ساحة العلوم الإنسانية والاجتماعية التي سادها منذ الستينيات الفكر السالب، أي الفكر العالمي المناهض للتحليل النقدي المتجذر في الصياغة التاريخية. كانت هذه مرحلة جديدة من مراحل الفكر التي ستصوغ التحرك التاريخي لفترة طويلة من الزمن عبر القارات وتصوغ صورة جديدة للعلاقة بين الشرق والغرب، تحديداً منذ عام ١٩٦٨، منذ تلك الأحداث التي وقعت في الغرب ذلك العام وما صاحبها من موجات الوجودية والتفكيكية وما بعد الحداثة وحتى العدمية. لم يعد هناك مجالاً لسلم القيم أيًا كانت طبيعتها، سواء أكانت حضارية أم دينية أم سياسية أم أخلاقية. في ذلك العام ظهر شعار

(الممنوع هو أن تمنع) في مظاهرات باريس ١٩٦٨، كانت هذه المظاهرات هي نقطة التحول والمرتكز الفكري الرئيسي الذي أوجد التغييرات الاجتماعية والسياسية للغرب آنذاك، فكانت مؤلفات الدكتور ومقالاته وإنتاجه الفكري بعد هذا التحول الحضاري – أو اللاحضاري الذي رآه بنفسه عندما كان في باريس يوم المظاهرات – تتناول هذه الإشكالية الجديدة والتوجه الغربي الإيديولوجي للغرب الاستعماري تجاه الشرق .

كان سؤال الاستشراق ومحاكمته يعد المحور الأساسي لمشروعه الفكري. كان الطلقة الأولى التي أطلقت تجاه هذه القضية هو مقاله عن الاستشراق الذي نشره عام ١٩٦٣، والذي حدا بمؤلفين وكُتَّاب آخرين بعد ذلك إلى النزول إلى هذه الساحة الفكرية الشرسة، فكتب إدوار سعيد مؤلفه عن الاستشراق عام ١٩٧٨، ومنذ ذلك الوقت توالت ردود الفعل الغربية!

وقد كان للمقالة الأولى التي نشرها صديقي الدكتور دوياً كبيراً في الوسط الثقافي الغربي، بعدما هاجم مقاله الاستشراق مؤكداً على الأزمة الأخلاقية التي سقط فيها، بسبب صلته بالحملات الاستعمارية للغرب على الشرق. انفعل علماء ومستشرقوا الغرب وردوا بتعالٍ معهود من جراء عنصريتهم وإحساسهم بامتلاكهم مركزية العلوم والحضارة. ذكر (مكسيم رودنسون) في رده على مقاله في بحث له بعنوان "وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات: مكتسباته ومشاكله" إن الأوربيين في تأسيسهم لمباديء وقواعد علم الاستشراق قاموا بجهدٍ كبير وجبار في اكتشاف ودراسة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية فأرسل العلماء، الذين كانوا في معظمهم آنذاك من العلماء اللغويين فجمعوا المخطوطات العربية ثم قاموا بتصنيفها وفهرستها وترجمتها وإزالة الغبار عنها. أي أن المستشرقين الأوائل قاموا بعملية جمع كم هائل من المعلومات وتبويبها ومن ثم الانتقال ابتداءً من القرن التاسع عشر إلى دراسة هذه المعلومات والوصول إلى مرحلة التنظير، وكان هذا مما جانبه الدكتور، وإدوار سعيد فيما بعد. وقد أكد رودنسون أن الدافع الأساسي الذي دفع بالعلماء الغربيين إلى وضع أسس علم الاستشراق هو دراسة تاريخ وفكر ومجتمعات هذه الشعوب، ولم يعترف بأن ثمة تحولٍ دفع بهؤلاء المستشرقين إلى الاستفادة من هذه المعلومات التي جمعها علماء الغرب عن الشرق من أجل غزو هذه البلاد واستعمارها.

وكان الدكتور يربط دائماً بين النشاط الديني الذي تقوم به الإرساليات التعليمية والدينية وبين الأهداف الاستعمارية والتجسسية لصالح الغرب.

لا شك أن هذه الأفكار التي كانت تقود توجهه الفكري كان لها كبير الأثر على حياته في قلب الغرب الذي يهاجمه بينما يعيش فيه.. يهاجم عنصريته ورؤيته لنفسه باعتباره مالك الحضارة والتاريخ والاكتشافات والحقيقة المطلقة.

قال لي ونحن في باريس يوماً بينما ينظر عبر النافذة إلى الأفق ونظرته شاردة مليئة بالمرارة!: إن الغرب يرانا استثناءات! كلنا استثناءات.. الشرق بأكمله! ثلثا البشرية استثناء.. هل هذا ممكن؟ الأمم التي تعيش في الشرق، جيوش الشرق، الفكر والعلماء.. كلنا يجب أن نظل على هامش التاريخ، بينما يحتلون هم مركزيته وقيادته! من هنا تتجلى حقيقة أن " الاستشراق في أزمة " لأنه لم يتعامل مع العالم ـ الذي يريد إعادة صياغته وتحليله وفهمه من خلال جمع المعلومات عنه واستكشافه بموضوعية، وإنما من زاوية الأعلى والأسفل.. القائد والمتبوع، من هنا مثلاً أصبح خبراء المستشرقين في عصر النهضات القومية بعد الحرب العالمية الثانية عاجزين عن فهم أو عاجزين عن قبول الظواهر الجديدة، لما يفهموا قبل ذلك اليابان قبل الحرب العالمية الثانية، حقدوا على صعود الصين والعالم العربي والإسلامي بعد ذلك. إذن أين العالم؟ لاوجود لآسيا ولا أمريكا اللاتينية ولا إفريقيا.. فأين العالم إذن؟

العالم لديهم هو الغرب فقط. هو أنفسهم.

كعادتي رحت أشاكسه، لا أبغي من وراء ذلك سوى المعرفة والتعلم! فقلت له: ولكن الغرب له بالفعل فضل الريادة التاريخية فيما يتعلق بالكثير من الأمور مثل الاستكشافات الجغرافية وتقعيد العلوم وتطوير الاختراعات، لا شك أن هذه النهضة التي يجنيها الغرب اليوم لم تأتِ من فراغ!

وكعادته أيضاً.. راح ينظر لي نظرة المندهش، وراح يتأملني قليلاً في صمت (كأنما كنت أسمع في أعماقه صخب التأسف والتحسر على الشباب الذي لا يعرف شيئاً عن تاريخ البشرية وقصة التفوق والانحدار للأمم!)

سألني: لو كان لك جار ثري للغاية، وأنت فقير للغاية.. ألا تسأل نفسك لماذا أنت هكذا؟ بينما هو على هذا النحو طالما انكما تعيشان في محيط واحد.. وسط واحد.. وموارد متساوية؟ وإن كان هذا الثراء قد أتاح للجار أن يتفوق علمياً ويتقدم.. ألا تسأل نفسك لماذا حُرمت أنت من التفوق نفسه؟ هل هبطت عليه الثروة والأريحية بمظلة مثلاً وجانباك أنت؟

التزمت الصمت.. فأكمل : هذه القسمة التي تراها الآن بين الشمال والجنوب- بيننا وبين الغرب - لم تأتِ من فراغ.. نحن ندفع ثمن فائض القيمة التاريخي لعصور الاكتشافات البحرية وغزو القارة الإفريقية وتركيز مواردها في يد الغرب. لا تظن أن للغرب كبير فضل فيما يعيش فيه من ثروةٍ وتقدُّم، فبعد عصر الاكتشافات البحرية تم تهجير ثلاثين مليون شاب إفريقي إلى أوروبا ليبنوها. تخيل المشهد! بعد ذلك جاء نوع آخر من الغزوات، هي الغزوات الدينية التبشيرية، التي كان لها دور كبير في إتاحة الدور للاستعمار العسكري ونهب الثروات والمواد الخام التي قامت عليها الثورة الصناعية الأوروبية. ونفس النهب الاستعماري المنظم تم في أمريكا الجنوبية وآسيا، فبدءاً من القرن السابع عشر تم غزو ونهب القطاع الجنوبي والجنوب شرقي من آسيا، ومن نهاية القرن الثامن عشر بدأ "غزو الموانئ"، لكي يضع الغرب يديه على السيطرة على حرية التجارة والطرق البحرية. فهذا هو فائض القيمة التاريخي وليس فائض القيمة الذي تخيلته عندما ذكرت لك التسمية (رأى شفاهي تتمتم ب ماركس عندما سمعت الكلمة!) فهذا الفائض الذي أقصده فائض قيمة سلب ونهب، وهذه العملية التي مكّنت الطبقة الرأسمالية في الغرب من هذه الثروة الهائلة التي تراها الآن. باختصار.. هذا (العز) الذي يعيشونه هو الوجه الآخر لفقرنا!

قلت لـه: أنت هكذا تجعل الغرب عدواً لنـا طوال الوقت.. أليس من وسطية.. اعتدال.. إلا يمكن أن تكون الأحداث الكبرى التي وقعت فيها مواجهات أو أحداث تاريخية صاغت التوجه الحضاري لنا من خلال رؤية الغرب كانت مقترنة بشرط تاريخي؟ ظرف سياسي زمني مثلاً أو...

لم يتركني أكمل!

- اسمع!.. هناك مقولة شهيرة قالها تشرشل: عندما تكون في حالة حرب فإن كل ما يقال حولها ويكتب عنها هو ساتر دخاني للتغطية والتمويه على حقيقتها وشراستها!

- يعني؟!

- يعني هذا المفهوم عن عداء الغرب لنا وعن دخوله معنا في حالة حرب مستمرة متواصلة من أجل مص دمائنا ونهب مواردنا وشل قدرتنا على التقدم أو الاعتماد على النفس والنهضة لا يُمكن الاعتراف به في تراثنا الفكري ولن تجده في شيءٍ من التاريخ الرسمي لسببين.. أولاً هناك العملاء الحضاريون من الحكام المستسلمين للغرب والمروضين بالامتيازات التي يمنحها لهم.. أموال واستثمارات مشتركة، رحلات ومؤتمرات وامتيازات، وجوائز وموائد، والأهم.. غض النظر عن ديكتاتورية الحكم ببلادهم مقابل الانحناء للغرب والاعتراف بتفوقه.

والثاني هو التزييف التاريخي لمسميات الأحداث لتمرير ما يفعله الغرب، فضرب التوجهات الثورية في الحركة الوطنية في الشرق العربي في الأربعينيات كان تحت شعار (الإمعان في التوجه للشيوعية عن طريق الجبهات الوطنية)، واليوم ابتكروا مفهوم (الإرهاب الإسلامي) لضرب القوميات الناهضة أو التمسك بالجذور الفكرية ورفض التذويب في الإطار الكوكبي الغربي، وغداً سنسمع تسميات جديدة لضرب قوانا النهضوية.. يا عزيزي هذا مسلسل مستمر منذ ضرب نهضة محمد علي الكبرى لمصر والمشرق العربي، وإعادة ضرب بعثها في العصر الحديث على يد عبد الناصر! هل وقع كل هذا مصادفة وتلازماً مع ظرفٍ تاريخي مؤقتٍ أو لتوجهات شخص سياسي آنذاك؟

.. أومنت بما يعني أنني فهمت ما يريد أن يقول..

استطرد: على العموم الغرب يعيش حالة انهيار حضاري. هذه الحروب الشرسة التي يقودها في العراق ويحاول الزج بلبنان بها، وإعلان الحرب على الأصولية الإسلامية واستعادة الحس العنصري في دوله، تجويع حكومة حماس المنتخبة، وحصار الدول التي تتمسك بهويتها وقوميتها.. كل هذا يؤكد أنه يعيش مأزقاً حضارياً ويشعر بالضعف والهزيمة تفتته، وجنونه من هذا الهاجس يجعله يطيح بما أمامه ليثبت استمرار تفوقه وقوته! أما الشرق فسيعود!

رأى في عينيَّ مسحة ابتسامة مستبعدة لما يقول.. فقال لي: سنرى.. أو لعلك سترى وحدك عودة قوة الشرق وتسيده الساحة الحضارية العالمية.. فلن أكون أنا موجوداً آنذاك!

*

في أحد الأيام وبينما كنت في بيت الدكتور منتظراً أن ينتهي من بعض الأمور في غرفة مكتبه لنبدأ كتابة المقال رحت أتجوَّلُ في الشقة كعادتي حينما أشعر بالملل. استأذنته، فأشار بيده دون أن يرفع وجهه عن الصحيفة التي في يده وهو جالسٌ بجوار شباكه الأثير!

قطعت الطرقة قاصداً غرفة المكتب..

على الجدران صور لمحمد علي وجمال عبد الناصر وماوتسي تونج وصورة لشخصية صينية مرسومة بالرصاص.. لم أعرف من هي.. خمنت أنها لكونفوشيوس أو صون تزو. لاحظت أن صورة محمد علي تعلو مقعد مكتبه، فتكون دوماً فوق رأسه وهو يكتب ويقرأ. بينما صورة عبد الناصر أمامه.

كنت أعرف حجم تقديره لعبد الناصر – رغم أنه هرب من معتقلاته عام ٥٩ – وكنت أراه دائم الاستشهاد بمحمد علي في مقالاته. رحت أتأمل الصورتين... ولم أدر كم من الوقت ظللت واقفاً. عندما سمعت صوتاً يهمس خلفي:

- انتهيت من التأمل؟

نظرت ورائي فرأيت الدكتور واقفاً يبتسم!

-.. نعم...

- سأتجاوز هذه المرة عن منهجك الذي تواجه به العالم.

- أي موقف؟!

- الموقف التأملي! لقد قرأتك جيداً من أول أيام معرفتي بك، ولاحظت كيفية تعاملك مع العالم. أنت تتأمل العالم طوال الوقت، ولا تحاول أن تتخذ نحوه شيئاً.. خطوةً أو موقفاً! أنت حر طبعاً، ولكن أريد أن أعلمك شيئاً وهو أن الحياة تتحرك بالتفاعل.. بالجدل والحركة وليس الصمت والاستيعاب..

- ولكني شاعر.. والشعر يحتاج إلى التأمل والرؤية و... والاستيعاب عموماً أحد عناصر الفكر والتغيير... و

- نعم... (أحد) عناصرها الأولى.. التجميعية.. ولكن حتى الشعر.. بل الشعر بالأخص أكثر ما يحتاج إلى التفاعل.. التفاعل مع قضايا العالم واتخاذ موقف!

- ... نعم و آ..!

- لا تجادل أكثر!

ثم دار حول المكتب.. واستطرد: هاه يا بطل! ماذا كنت تفعل؟ من كنت تتأمل؟

قلت له.. لا شيء! كنت أحاول أن أتأمل فيما وراء معاني هذه الصور المعلقة، وليس في أصحابها! بالأخص عبد الناصر.

قال: *" عبد الناصر كقيمة.. أعتقد أنني حدثتك عنه سابقاً ولا أحسب أن هناك مصرياً أو عربياً واحداً لا يدرك مغزى عبد الناصر.. "* عدت أشاكسه.. " ولكنك هربت من مصر أثناء حكمه وفررت إلى باريس لاجئاً سياسياً! " . هنا شعرت أن صوته كساه الغضب. قال لي: *" كان هروبي من مصر آنذاك واجباً! اضطررت أن أكون خارج مصر أيام اضطهاد قطاع كبير من الحركة السياسية المصرية والنضال الوطني. وقد قام عبد الناصر بالاحتفاظ لي بجنسيتي المصرية بعد هروبي إلى فرنسا واستقراري بها لاجئاً سياسياً، وكان ذلك استثناءً للقوانين المصرية السائدة. هذا ما فعله معي عبد الناصر. لم يخوّني ولم يعاقبني. بل على العكس.. أرسل لي رسولاً إلى باريس وأبلغني أن كتابي عن مصر والجيش هو أهم كتاب مصري ينشر في القرن العشرين، أرسل لي ١٣ ملحوظة على الكتاب. كان بها حوالي ٩ صحيحة تماماً، وطلب مني البقاء في فرنسا عندما طلبت منه العودة إلى مصر.. قال لي إن وجوده هو نفسه غير آمن بمصر لأنه،*

وحسب تقديره لا توجد ضمانات كافية نظراً لتآمر اليمين المصري على سياساته نفسها.. وطلب مني البقاء بفرنسا.

- ولكن لم أفهم عبارة " أن هروبك من مصر كان واجباً "!

"لقد اضطررت لمغادرة مصر عام ١٩٥٩ هرباً من التدمير. ألا يُعد ذلك واجباً؟ ولعلمك لم أطلب العودة من الرئيس إلا بعد هزيمة ١٩٦٧ . ساعتها طلب مني ما أخبرتك به سابقاً، وأعاد لي جواز سفري ومنحني حق العودة، ورأيت أن أعمل بنصيحته!

- ولكنك عدت بعد عبور أكتوبر . لماذا بعد الحرب بالأخص، وبعدما انتصرنا؟

راح يتأملني طويلاً... وكأنما شابه الحزن - " تعرف! هذا المعنى الذي تريد أن تقوله من وراء كلماتك قاله آخرون! لا أزال أذكر مقال لطفي الخولي عن (العابرون بعد العبور) قرأته؟ فأشرت برأسي علامة النفي فأكمل:.. كان الكلام فيه موجهاً إليّ والحديث عني.. رأى أن هناك مفكرين مصريين ظلوا بالخارج فترةً طويلة أثناء كانت مصر تئن من ظروف الحرب، وفي قمة هزيمتها، وبمجرد أن عبرت مصر عادوا ليحصدوا المكاسب. كان الكلام عني! غريب أن يتم تخوين إنسان لأنه يريد أن يسهم مع إخوانه بما تيسر له من طاقةٍ وجهد وعمل. عدت في ٧٤ تاركاً مناصبي في فرنسا. كنت أستاذاً بالسوربون، وأشغل منصباً مرموقاً في المنظمة الدولية كما تعلم. تركت كل هذا وعدت إلى مصر لأعمل في جامعة عين شمس! وأتعاون مع جامعة الدول العربية وأقيم مشروعاً تعاونياً فكرياً يربط بينها وبين مؤسسة الأهرام... كل هذا كان من أجل خدمة وطني. ولكن هذه المرحلة شهدت تصفية الأهرام وخروج هيكل منها، وبدأت عمليات سلبية تحدث في الجامعات المصرية. حدث نكسة وردّة في الجو العام كله! وكانت عودتي لباريس أمراً لا مفر منه .

- لهذا صرت أستاذاً (زائراً) في الجامعات المصرية؟ و(مستشاراً) في المركز القومي للدراسات العربية في الجامعة العربية؟ يعني كأن أدوارك تشريفية بغرض التمثيل فحسب؟

- نعم.. لم أتمكن من لعب أي دور وقتها بسبب المناخ السائد في مصر آنذاك. وعدت لفرنسا!

- لهذا هاجمك الكثيرون من طليعة المنخرطين في العمل الوطني والقوى السياسية آنذاك.

هنا تحولت لهجته إلى لهجة حادة للغاية: " وما الذي كان يجب أن أفعله؟ أن أبقى في الخارج وبلدي تنتصر؟ أليس الواجب أن أعود لأفتش عن دور، ولأرى ما الذي يمكن أن أفعله؟ وإن لم أستطع أن أفعل شيئاً.. فقد حاولت على الأقل.. ولكن لم أترك بلدي وقتها. كان العداء وجو الاستنكار والتخوين لمصر وجيشها وقادتها يتردد في جنبات أوروبا بأكملها وأنا في قلب ذلك كله.. أي إنسان يرى بلده تنتصر ويظل وسط أعدائها وراغبي النيل من نهضتها وعبورها يستمع لشتيمتها بأذنه ويطيق! كان لا بد أن أعود لبلدي، أم كان المطلوب مني أن أظل بها.. أشتمها كمن حولي.. وأخوّن جيشنا الذي عبر في ظرف ساعتين فوق خط بارليف كاسراً أنف التعالي والهيمنة؟

رأيته منفعلاً.. فقررت التوقف عن مناقشته.. كان وجهه محتقناً.. ورأيت أن أدير المناقشة بعيداً إلى وجهةٍ أخرى فرفعت صوتي قائلاً وأنا أتكلم بلهجةٍ مرحة.. نعم.. ولكن كل هذا صار من الماضي الآن.. فقد انتهت هذه الحقبة الكئيبة التي حوصرت فيها الوطنية المصرية وتم استبعاد

المثقفين الطليعيين إلى السجون والمعتقلات والمنافي في أحوال أخرى.. نظر لي بجانب عينه.. — أنت تتحدث عن مرحلة كامب ديفيد؟ - نعم..!

تنهد قبل أن ينظر لي عميقاً: اسمع! ماذا تظن ما نعيش فيه الآن من انهيار كامل لمعنى الدولة؟ التزمت الصمت فأكمل.. هذا الذي تراه حولك من فساد كامل في هذا البلد وانهيار في كافة مناحيه ليس سوى امتداد لنتائج كامب ديفيد. سألت.. فأجاب.. كامب ديفيد هذه هي الضربة الثانية للصعود الوطني المصري في العصر الحديث، كانت الضربة الأولى التي وجهت لمصر قد حدثت في عصر محمد علي عندما راح يبني مصر الحديثة الصناعية ويكوّن الجيش النظامي تحت الإشراف الفرنسي ويتسع بحدود الامبراطورية المصرية التي رأى فيها الوريث الوحيد للامبراطورية العثمانية.. هذا الضابط الألباني الذي أدرك بعبقرية نادرة مغزى مصر، واستطاع أن يصل بفتوحاته إلى حدود روسيا، وأن يجعل الغرب يستنفر طاقاته بأكمله لمواجهة طموحاته، حتى هُزم في معركة نفارين ووقع مرغماً على بنود معاهدة لندن التي وأدت طموحاته النهضوية وقصرتها على الاحتفاظ بحكم مصر وانتقال هذا الحكم بالوراثة إلى أبنائه من بعده. ألم تلاحظ من الذي قام بضرب نهضة محمد علي؟ ومتى تم ذلك؟.. أكمل دون أن أرد: الغرب! مرةً أخرى الغرب.

تساءلت: وما علاقة ذلك بكامب ديفيد؟ ما علاقته بالانهيار الذي وصلت له مصر الآن؟

أجاب وهو يحدجني بابتسامةٍ كأنما شابها السخرية: خطؤنا أننا نقرأ حوادث التاريخ منفصلة عن بعضها البعض! التاريخ يا بني لا يتجزأ.. لا يمكنك فصل حوادثه وأحداثه عن بعضها كوحدات مستقلة. فهذا الغرب الذي تآمر على محمد علي في أوروبا هو الغرب الذي صدَّر لنا إسرائيل.. كانت لندن هي المركز في الحالين! والشاهد الذي أردت التدليل عليه في الأصل هو أن هذا الغرب.. عندما رأى نهضة مصرية صناعية وتحديثية تقوم في مصر محمد علي قام بضربها على الفور. وعندما رأى هذا الغرب أيضاً أن مصر ستنهض مرةً أخرى على يد الثورة قام بمحاصرتها لضربها.. وعندما رأى أن مصر تنهض من انكسارها بعد النكسة وأن مصر قامت بالعبور كان لا بد أن يوأد هذا العبور مباشرةً، فأوجدت اتفاقية كامب ديفيد التي كانت هي البوابة التي أوصلتنا لما نحن فيه من انهيار.كانت هذه هي الضربة الثانية الكبرى في تاريخ النهضة المصرية الحديثة.

سألته.. ألا يمكن أن توضح لي قليلاً؟

- اسمع! بمعاهدة كامب ديفيد تقطعت أوصال الروابط الطبيعية التي تربط مصر بالمحيط الحيوي العربي، من خلال الاعتراف بإسرائيل وتطبيع العلاقات معها، كان ذلك هو الجسر السحري للتطبيع الاقتصادي مع إسرائيل في مراحل تالية، وها نحن وصلنا إلى الكويز كما ترى! فاومات برأسي إيجاباً! فاستطرد.. هذه المعاهدة (المُخزية) للأسف هي التي أنتجت لنا إفرازات ما نعيش فيه اليوم من تهلهل اقتصادي واعتماد على الاستيراد والانفتاح على الاستهلاك وتراجع لقيم ومعاني العمل والوطنية. كامب ديفيد هذه كانت المفتتح لخراب الجامعة المصرية وانتشار فساد البحث العلمي، وشراء الأساتذة والقيم العلمية، هي التي أفرزت لنا النخبة التي تسيطر على الحكم اليوم وعندها استعداد للتحالف مع الشيطان وليس إسرائيل والغرب فقط من أجل الاستمرار في مناصبها. هذا بأكمله — من وجهة سوسيولوجية أوجد هذه الأجيال المصرية التي لا تشعر بقيمتها في ذاتها، الضائعة، التائهة، التي لا ترى في مفهوم الوطنية سوى شعارات، ولا تعرف

للوطن معنى، لأنها لم ترَ العبور ولم تدرك قيمته. هذا الذي يحدث الآن في مصر حقبة عابرة ستمُر، هذا الوادي عاش طيلة وجوده يدرك بفطرته أعداءه من إخوانه ستستقيم به الأمور وستعود لنصابها.. لا يصح في النهاية سوى الصحيح.

قلت له.. كلما أرى ما يحدث لمصر لا أتخيل أن قائمة ستقوم لها بعد.. رأيته يبتسم: أنت متشائم كعادتك! اعلم أن التغير هو الثابت الوحيد في الحياة، وكل ظاهرة محكومة بالسبب الذي أوجدها، مصر بالأخص استثناء في التاريخ.. استثناء نادر في أصول التمسك بالهوية والتماسك والأصالة، والعبور فوق الوهدات.

*

توجهت إلى غرفة المكتب بمجرد أن فتحت لي الشغالة..

كان الدكتور منهمكاً في قراءة البريد الوارد إليه بمكتبه.. حييته فلم يرُد، وكانت هذه علامة ليس على انشغاله فقط وإنما على توتره الشديد.. انسحبت بهدوء وذهبت إلى الصالون لأرى ماذا ينتظرني على المنضدة/ المكتب! قصاصات.. ورق.. جرائد..!

لم أجد شيئاً.. فتنهدت ارتياحاً وجلست منتظراً أن يعود الدكتور من الداخل.

بعد قليل كنت أسمع وقع أقدامه في الممشى قبل أن أجده أمامي.. حياني وهو لايزال واجماً
– خير يا دكتور؟

- تخيل! مجلس الشئون الخارجية سيستقبل مندوب حلف الناتو في الاجتماع القادم (كان ذلك عام ٢٠٠٥)

- وما المانع في ذلك؟ علاقتنا بأمريكا ممتازة – كما يقول الرئيس - المعونة مستمرة والإملاءات لا تتوقف ومصر مطيعة ومتزنة في اتخاذ القرارات المتعلقة بالمنطقة.. وكل يوم يأتينا مسئولون من أمريكا والحمد لله!

.. نظر لي نظرة توحي بالغيظ والغضب.. فسألته.. هل أخطأت في شيء؟

قال لي وهو يصرخ. اسمع يا ابني: مجلس الشئون هذا كوم و(العِمالة) التي تحكمنا هذه كوم آخر! فقلت له: ولكن مجلس الشئون الخارجية جمعية مدنية تضم من كانوا يعملون في السلك الدبلوماسي للدولة وفي وزاراتها يعني بأي حال من الأحوال لن ينفصلوا بشكل كامل عن توجهات الدولة التي عملوا في إطارها، وإن حادت مواقفهم قليلاً عن الخط الرسمي المعروف لتحررهم من سلك الوظيفة، إلا إن منهم من لايزال في منصبه، والذي تركه لايزال مرتبطاً بعلاقات مع كبار من في الحكم.. فالمسألة توازنات ومصالح فيما أعتقد! ثم إنك أخبرتني من قبل إن مجلس الشئون الخارجية هذا بمثابة نادٍ أو جمعية مدنية، يعني تصدر توصيات وليس لها قرارات تنفيذية أو تطبق بقوة سيادية أو..!

لم يتركني أكمل، ولم يشفع شيء مما قلته في تهدئة ثورته.. على العكس.. راح كعادته يؤكد لي جهلي وعدم فهمي لحقيقة الأمور.. و.. و..

- طيب ما حقيقة الأمور؟

- حقيقة الأمور أن المجلس الأعلى للشئون الخارجية يضم صفوة مفكري وقادة مصر في العمل العام والدبلوماسي والوطني!

- نعم! صفوة العمل الوطني بالفعل.. فمعظم أعضاؤه أعضاء في الحزب الوطني أيضاً!

لمح في صوتي نبرة تهكم.. فعلا صوته: "! أنت لا تفهم شيئاً! كعادتك لا تفهم شيئاً.. فنحن – نعم – يوجد بيننا الكثيرون من أعضاء الحزب الوطني السابقين والحالين أيضاً ولكن هذا لا يعني أنهم يوجهون دفّة المجلس أو يحركون توجهاته وقراراته كسياسات الحزب الحاكم. هناك مجموعة تستطيع أن تسميها " مجموعة الحكماء " هي التي توجِّه قرارات المجلس وتدير دفة العلاقات الخارجية، أعتبر نفسي على راسها، ومحمد سيد أحمد، وميلاد حنا، وحسن حنفي.. وآخرون!

قلت له.. ولكنني مازلت لا أرى تناقضاً بين توجُّه المجلس في مقابلة ولقاء أعضاء من الناتو، وبين تكوينه وعناصره.. هذه الشخصيات التقت كثيراً بمندوبي حزب الناتو حين كانوا يشغلون مناصبهم! ثم إذا كنت غاضباً من سياسة المجلس لهذا الحد فلماذا لا تستقيل منه؟

حدجني بنظرةٍ صامتة متأملة... ولم يرد..

طيلة اليوم لم يرد!

كست صوته نبرةٌ أخرى هادئة وقال لي.. ماذا لدينا اليوم من عمل؟

(كأنما شعرت أنه اضمر شيئاً)!

وبدأنا في العمل الروتيني الذي لا ينتهي.. الكتابة والقصاصات ومتابعة المجلات والجرائد وترجمة المقالات.. إلى أن حانت الثانية ظهراً فتناولنا الغداء معاً وانصرفت.

في المساء التقينا.. كان الدكتور صامتاً منذ دلفت إلى الشقة وإلى أن مرت ساعة كاملة.. فجأةً تحدث بعصبية كمن كان يكتم انفعالاً غاضباً من مدة طويلة:

- لماذا تريدني ان أستقيل من المجلس؟ لأنضم إلى جالسي المقاهي الذين يهيلون الركام على كل حركة وفعل ونشاط!؟

- لم أقصد ذلك ولكن لا أفهم لماذا أنت دائم السخط على النخبة الحاكمة والحزب الوطني ورجالاته بينما تعمل معهم وتنضم إلى مجالسهم وتكتب في جرائدهم؟! أنت رفيق مسيرة شهدي عطية الشافعي كان صديقك. وأحد كبار وقدامى الشيوعيين.. تكتب في جرائد الحزب الوطني، ثم تغضب مني حين أسألك عن جدوى استمرارك في مثل هذا المجلس! لا أفهمك أبداً!

- لا تفهمني لأنك لا تفهم من الأصل! التغيير لا يأتي كتلة واحدة.. مرَّة واحدة! من الممكن أن يغير الإنسان الأوضاع التي لا ترضيه من داخلها!

- يعني إيه!

- يعني أنا مؤمن بقدرتي على إحداث تغيير في الوسط الحاكم، في قلب أفكاره من داخله.. من داخل جرائده الخاصة، لهذا أنا مستمر في الأهرام.. الأمر نفسه الذي أخبرتك عنه صباحاً فيما يتعلق بالمجلس..ألم أخبرك بوجود مجموعة من الحكماء في قلبه؟ هؤلاء هم من يُسمَّون في علم الاجتماع والفلسفة (الكتلة الحرجة)! هذه الجماعة التي تخرج عن السائد وتخالف القوانين لتُحدِث التغيير! الأمر نفسه في الأهرام، فهناك – إلى جانبي: سلامة أحمد سلامة، ومحمد سيد أحمد، والسيد ياسين، وفهمي هويدي، وأمين هويدي وغيرهم، هل تشعر لحظة أن آراء هؤلاء الكتاب يمكن وضعها في سلة واحدة مع سياسة الجريدة التي يكتبون فيها؟ مع آراء الحزب الوطني وتطبيل رؤساء التحرير للسلطة بدءاً من العناوين الرئيسية وصولاً لأصغر الفرعيات والأخبار؟

- الحقيقة لا.. ليس بشكل كامل، ولكن على الأقل هؤلاء الكُتَّاب يحاولون ألاَّ يصطدموا بالسلطة في مقالاتهم ليمنعوها من الحذف، وهم لا يقولون كل ما لديهم أو على الأقل لا يقولونه كله بوضوح! فأنت مثلاً – وأرجو أن تتقبل رأيي – تُتهم دوماً بغموض أسلوبك وعدم وضوحه، أخبرتني أن المشير الجمسي قال لك ذلك بنفسه في نادي هليوبوليس! وهذا ليس رأيه بمفرده! وهناك أمر آخر! فها أنت قد قلت بنفسك إن رؤساء تحرير الصحف القومية – التي تسمى كذلك – يطبِّلون للسلطة ليلاً نهاراً.. أنت تعرف ذلك، وتكتب تحت اسمهم!

-.. قلت لك إن هناك مجموعة مختلفة تحاول التغيير من الداخل!

- وأنا أقول لك إن هناك عشرات الكُتَّاب ممن تجلبهم لجنة السياسات كل فترة تزج بهم في "الأهرام" وتُفرد لهم الصفحات ليصفقوا ويمدحوا ويلهوا الناس بأي كلام.. وأنتم للأسف تُحسبون ضمن كتاب الأهرام جميعاً.. نخبتك وهُم!

- يعني ماذا ترى يا فيلسوف عصرك؟ أستقيل من الأهرام؟

-.................................

لم أكن أعرف بماذا أجيبه! فهذا ما لم أكن مستعداً للإجابة عنه!

- ها أنت قد صمتَ! هذه هي نكبة جيلكم، أنتم ساخطون على كل شيء، تهيلون التراب على كل شيء، ولكن لا تفعلون شيئاً وليس في أذهانكم أفكار ولا تحرك ولا إيجابية ولا أي شيء!

-.................................

استمر الجو متوتراً بيننا.. فغادرته واتجهت إلى غرفة المكتب، حيث خصص لي منضدة جانبية أقوم بعملي عليها. رحت أنشغل بإعداد القصاصات الخاصة بالمقال القادم من الأحداث المعاصرة في العالم الذي لا يهدأ وأغرق نفسي في المجلات الأجنبية والصحف العربية..

انتهيت بعد ساعتين..

وعندما رجعت إلى الصالون وجدته مازال ساهماً.. شارداً لم ينطق بحرف منذ تركته.. فتنحنحت! نظر إليَّ كمن لا يراني.. وعاد إلى شروده.. كان من الواضح أنه يفكر!

بادرته:- لماذا لا تفكر في الكتابة لجريدة أخرى يا دكتور؟ حتى ولو إلى جانب الأهرام؟

- نظر لي نظرةً طويلة، كأنام أخذ يتأملني في شيء من الدهشة، وراحت شفاهه تتمتم – كالعادة حين أقول ما لا يعجبه! – وكالعادة أيضاً تناثرت بعض الكلمات الهامسة إلى أذنيَّ! (جيل خيبان.. جهل..)!

صمتُّ مرغماً فسألني: هل أنهيت العمل؟ فأجبته نعم! فقال لي حسناً.. نلتقي غداً صباحاً.. أنا اليوم سأنام مبكراً... مع السلامة!

*

في السابعة صباحاً رن جرس الهاتف في منزلي

- آلو!

(كان الدكتور!)

- صباح الخير.. خير؟

- تعال فوراً.. ارتدِ ملابسك سريعاً وتعال!

- ولكن الساعة السابعة الآن و..

(كان قد أغلق الخط!)

نهضت من سريري مغلوباً على أمري، واستعددت للنزول، ارتديت ملابسي وغادرت دون أن أفطر حتى! ونزلت أركض في الشوراع باحثاً عن ميكروباص أو تاكسي بينما عيناي منتفختان يشاكسهما غبش الصباح!

بعدها بأربعين دقيقة كنت أمام شقة الدكتور.. فتحت لي الشغالة.. وجدته جالساً في مكانه المعتاد بجوار الشباك.. الشمس تُذهِّب الشقة بأشعتها.. وموسيقى منعشة تنبعث من الراديو.. كان جالساً مرتدياً (الكيمونو) الياباني الأزرق.. ملبسه المعتاد في البيت، يقرأ الجريدة وأمامه المنضدة ذات العجلات التي يفطر عليها.. وقد علاها الإفطار المُنتهَى منه.. البيضتين المسلوقتين، العصير، القهوة والمربى، والنارنج والزبادي!. بادرته:

- صباح الخير..

- صباح النور.. تعال معي!

ترك الجريدة ونهض يمشي إلى غرفة المكتب.. دخلت إثره.. وأغلق الباب بعدما طلب من نادية الشغالة ألا تأتي أو تقاطعنا، وطلب منها أن ترد على التليفون في حال رنينه (!)

- خير يا دكتور!

- أنا أفكر في شيء وأريد أن آخذ رأيك!

- تفضل

- أريد أن أكتب لجريدة أخرى!

(يا سلام)!

- ..... عظيم.... فكرة ممتازة.. من الذي أوحى لك بها؟

- أنا! نفسي! أخذت أفكر بالأمس واهتديت إلى هذه الفكرة.. فقلت أستشيرك فيها!

- أنا أؤيدك! ولكن أية جريدة تقصد؟ أم أنك تفكر بشكل عام؟

- هناك جريدة جديدة اسمها (المصري اليوم).. ما رأيك فيها؟

- هذه الجريدة جيدة للغاية فعلاً، تكسب كل يوم أرضاً جديدة، ويزداد عدد قارئيها يومياً، لا أريد المبالغة، ولكن أتوقع لها أن تتقدم على الأهرام يوماً!

- طيب ما رأيك أنني أريد الكتابة بها؟

- هذا عظيم، اسمك محترم وأكيد سيعتبرون كتابتك إضافة لهم

راح ينظر لي متأملاً... وصمت لدقائق وهو يتطلع عبر الشرفة المفتوحة أمامه على شارعي جسر السويس والسباق.. وشرد..

- المسألة ليست بهذه البساطة! الدنيا ليست ورداً كما تراها دوماً يا أستاذ! هناك توازنات ومعادلات تحكم الموضوع! فربما لا توافق الجريدة باعتبار انها جريدة مستقلة، تريد أن توجد لنفسها خطاً بعيداً عن التوجه الحكومي وصحفه وكاتبي جرانده!

- نعم.. ولكنها قد تقبل إذا فكرت بمبدأ (مجموعة النخبة) التي حدثتني عنها بالأمس! والتزمت الموضوعية في تقييم تاريخك الكتابي، بل وفي الأهرام أيضاً.. فمقالاتك لا تتمسح في

السلطة، كما يفعل العديد من كُتّاب الأهرام، على الأقل تأخذ منهجاً موضوعياً وتتحدث عن رصد أحداث وحقائق بصورة علمية في كثير من الأحوال؟

- وماذا لو قبلت؟

- ماذا!

- ربما يتضايقون في الأهرام، ويعتبرونني أوجه لكزة لهم!

- استشر نفسك يا دكتور.. ولكن المصري اليوم جريدة محترمة وتستحق المحاولة، ولا أحسب أن الأهرام ستلغي تعاقدك معها إذا كتبت للمصري.

صمت... وطلب مني أن اتركه قليلاً، فغادرته إلى الصالون.. استمر غائباً لما يربو على الساعة بالداخل.. إلى أن خرج، وكان شيئاً ما متغيراً في ملامحه.. ربما كان قلقاً أو متوتراً.. بادرني بأن طلب مني أن أذهب الآن وأن آتي مساءً.. فلا يوجد عمل أقوم به! سنعمل مساءً.. فحييته وانصرفت.

*

وصلت لمنزل الدكتور في السادسة تماماً كما طلب مني، كان جالساً في غرفة المكتب.. فذهبت إليه، وجدت وجهه متهللاً!...

- مساء الخير.. أراك سعيداً

- نعم، أخذت موعداً مع رئيس تحرير (المصري اليوم).. سنذهب للقائه بعد غد، استعد يا بطل!

رأيته سعيداً للغاية بفكرة الكتابة لجريدة أخرى.

وكنت يوماً بعد يوم ألاحظ سخطه على الكثير مما يحدث بالأهرام من نفاق العديد من كتّابها للحكومة، والفوضى التي تسوده، ومن (يُستكتبون) باستمرار من قِبل لجنة السياسات، ويهبطون على صفحات الأهرام بالباراشوت "ليفتوا" في أي شيء وكل شيء، كان الأهرام يفقد مصداقيته لدى القراء، حتى أنه في عام ٢٠٠٥، وبعد تولي أسامة سرايا رياسة تحريره تراجع توزيعه بنسبة ٣٠ %! بينما كان هناك العديد من الجرائد الأخرى التي يتوالى صعودها وتنتشر لاعتمادها على المصداقية والالتزام. وكان من ضمنها المصري اليوم.

لم يكن ذلك فحسب، ولكن كانت هناك فوضى غريبة تسود الصحيفة من الداخل فيما يتعلق بنشر المقالات، أو مقالات الدكتور مثلاً، فمرةً ينشرون المقال ناقصاً فقرتين كاملتين، ومرةً يخرج ممتلئاً بالأخطاء ولا توجد به إشارة تنسيق واحدة، ومرة يضعون فقرةً مكانها البداية في نهاية المقال، ومرة، بل أكثر من مرة، لا ينشرون المقال من الأصل.. وبدون حتى أن يخطروه أو يعتذروا له! وكان هذا يثير سخطه إلى أبعد الحدود، ويأخذ في الصراخ ولعن الفوضى فأهديء من روعه، إلى أن تمر المشكلة!

ورغم كل هذه السلبيات التي كان يراها في الأهرام كان شديد الحرص على التواجد في مؤسسته، وإن كان متواجداً بشكل غير رسمي. لم يكن له مكتب في الأهرام أبداً! كان مستكتباً من خارجه، منذ عام ١٩٩٠. وكان مكتوباً في العقد أن يقوم بالكتابة للأهرام – صفحة قضايا وآراء *(مرتين شهرياً على الأقل)*. وقد حاول بعد ذلك أن يستغل كلمة

(على الأقل) هذه لصالحه! فكلّم أحمد القرعي كثيراً أن يكتب للأهرام مرة أسبوعياً، غير أن وعود الدكتور القرعي بالموافقة كانت تذهب كلها أدراج الرياح. ولا أعرف السبب.

وكان اليوم الذي يُحجب فيه مقاله في الأهرام بالنسبة له يوم مأتم! يظل قلقاً طوال اليوم يدور في الشقة وكأن به شيئاً من الجنون، ويزوره الشك! (سيلغون عقدي بالتأكيد طالما حجبوا المقال)! وكنت أنا أرى الأمر عادياً لأن الضغط على صفحة الرأي بالأهرام كان يزيد يوماً بعد آخر، خاصة بعد توحش لجنة السياسات في استكتاب العديد من أعضائها هناك وكأن الجريدة ملكاً خاصاً لهم! وكان الدكتور القرعي فيما يبدو مغلوباً على أمره في هذا الشأن! فلم يكن يمانع – وربما لم يكن يستطيع أن يمانع! – نشر مقالات السادة الهابطين بالباراشوت على الصفحة بكروت التوصية من الوطني!

المهم.. أنني كنت أحاول أن أؤكد له دائماً أنه ليس هناك إلغاء عقد ولا شيء من ذلك، وأن الأمر بأكمله معتاد حدوثه مع العديد من الكُتّاب الآخرين، بل والكُتّاب الكبار! وأقول له " صدقني سيُنشَر المقال في الأسبوع القادم "! غير أنه كان يقلل من شأن هدوئي وتحليلي كالعادة متهمني بالجهل (.. أنت لا تفهم شيئاً، فهناك الدسك المركزي، هو المسئول عن الإقصاء والاستكتاب، والنشر والمنع، والأهرام " دسكه " من المخابرات العامة!).. لم أكن أفهم كل هذا الكلام، فلم أعمل بالصحف من قبل، ولا أعرف معنى سلطة الدسك! كل ما كنت أعرفه أن الدكتور موسوس إلى حد كبير، ودائم تعظيم الأمور من لا شيء!

وكانوا بالفعل ينشرون المقال المحجوب في موعد النشر التالي، وما أن يراه حتى يتنهد ويبتسم.. وساعتها.. كنت أبادره قائلاً: " شفت "؟ فكان ينظر لي باستخفاف ويقول:

" طيب ما انا كنت عارف انهم هينشروه! انت يعني جبت التايهة؟ "

................................!

لكن يوماً بعد آخر كان الأهرام – شأنه شأن الصحف التي تطلق على نفسها الصحف القومية – يخسر أرضاً وقراءً! وقبلهما مصداقية.

وكان هو دائم الالتفات والانتباه إلى ذلك. ودائم المناقشة مع الدكتور أحمد القرعي معارضاً ومنتقداً ما يحدث!

قلت له في يوم أنني أريد أن أسأله عن أمر، فهز رأسه موافقاً :

- يا دكتور! أنا أعرف أنك تحاول دائماً أن تكون متسقاً مع نفسك ومبادئك إلى حد التطابق.. صح؟

- أريد السؤال!

- طيب!.. أقصد يعني إن كنت ترى في الأهرام كل هذه المساويء والتوجه عكس حقيقة الناس الذين يخاطبهم...

- السؤال!

- لماذا أنت مستمر به؟

توقعت اللعنات كالمعتاد والتمتمة التي يطيش منها ما يطيش وما أرزق به! ولكن هذه المرة خاب ظني، فقد توقعت حديثاً مألوفاً عن (النخبة) و (مجلس الحكماء) و (الكتلة الحرجة).!. ولكن شيئاً من هذا لم يُذكَر. إنما فوجئت بالدكتور يقول لي: " هل تعرف ما هو الخيط الوحيد الذي يربطني – تواجداً – بمصر؟

- ما هو؟

- " هذا المقال الذي تستخف به!

أنا ليس لي مكتب في مكان يا ابني، وليس لي وظيفة ولا تدعمني مؤسسة ولا أنتمي لجهة! فكيف أصل إلى الناس؟

صمتُّ!

- ليس أمامي سوى هذه المساحة في الجريدة التي توزع مليون نسخة، ولو قرأها عُشْر هذا العدد كل أسبوعين لكان كافياً جداً، كيف أترك هذه الفرصة الوحيدة؟ ولو تركتها ماذا أفعل؟

فجأة انتبهت للأمر من ناحية لم أكن أراها من قبل! فهذا الرجل ليس له نشاط واحد ثابت متصل في حياته الآن سوى كتابة هذا المقال! بعد ٥٥ عاماً من العمل والتدريس بجامعات العالم وتأليف الكتب وارتقاء المناصب العالمية. تخيلت فجأة لو أن حياته خلت منه، ربما ستصبح حياةً بلا معنى بالفعل! وكان هذا المقال هو النافذة الوحيدة التي أفردتها له بلده بعدما أسقطته من حساب المؤسسات والوزارات والجامعات – كما كان يردد لي دائماً!

من هنا فهمت سبب عنايته الشديدة بالمقال وكأنه أهم ما في الوجود. وعرفت سبب ارتباطه الشديد بالأهرام، واستمراره بالكتابة له رغم انتقاداته الدائمة. ورغم أن هذه كانت نقطة خلافٍ بيننا، إلا إنني لم أكن أحاول التجاوز على رؤيته، وكان هناك الكثير من الأمور الأخرى التي أعرف أننا لن نتفق فيها مثل موقفه من حركات المعارضة المصرية التي ظهرت على الساحة منذ عام ٢٠٠٤ في وجه السلطة، كحركة كفاية والجبهة الوطنية وغيرها، حيث كان دائم الانتقاد لها، بأنها.. (غير منظمة وليس بها كادر قيادي، ولا يفهمون في السياسة والتنظيم السياسي، وأنها جمعيات هواة، و..و). كان يقارنها دوماً باللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي أنشأها شهدي عطية الشافعي في الأربعينيات وونّدت سريعاً. وغير ذلك من الأمور والمواقف من الحياة والنظر لها .

ولكنني – فيما يتعلق بمناقشاتنا حول رؤيته لمقاله - كنت أعارضه مؤكداً على أن في قوله عن كتابته وعن نفسه أنه (.. يصل إلى الناس بمقاله كل أسبوعين) كثير من المجاز! فمقاله لا يفهمه سوى كبار المتخصصين بصعوبة، أو المثقفين العتاة، والأهم، أنه قد يفيد الناس من خلال تفتيح مداركهم عما يدور بالعالم، ولكن – في اعتقادي – أنه لا يخدم قضاياهم الحياتية أو المعيشية بصورة مباشرة، كنت دائماً أسأله عن علاقة مقال يتحدث عن الفلسفة الصينية والتجربة الصينية في النهضة الصناعية في وقت تمور فيه مصر بغليان سياسي من أجل رفض التوريث وتزوير الانتخابات، فالناس كلها في الشارع بين مستسلم ومقاوم! والصراع على أشده!

فكان يهزأ من ضيق أفقي، ويؤكد لي أن العالم وحدة واحدة، ودروس التاريخ في الصين يمكن الاستفادة منها في مصر! فكنت أقول له: ولكن لكل مرحلة ضرورتها والأجدى أن نخاطب الناس في شئونهم! أن نمتزج معهم ونناقش قضاياهم!

فكان يختم هذه المناقشة منفعلاً دائماً قائلاً: " اسمع! أنا لا أكتب عن الداخل، فهناك مئات، بل آلاف الصحفيين يهتمون بالشأن الداخلي لمصر، أنا أتناول مصر من خلال العالم وفي قلبه ؛ هذا خطي وهذا توجهي وأسلوبي ولن أغيرهما، ولعلمك لن تجد مقالاً لي لا يتناول شأن بلدي ولو من بعيد وبطريقتي الخاصة "! قبل أن يتمتم كعادته بما أخاله انتقاداً يطولني منه ما يطولني!

ولم أكن مقتنعاً بمسألة مصر من الخارج ومصر في قلب العالم ودروس التاريخ الصيني هذه! إنما كنت مقتنعاً بمازقه في تناول حقيقة ما يحدث بمصر وما يحدث لها بينما هو يكتب على سطور السلطة وفي صفحاتها!

كنت مقتنعاً أيضاً بما قاله لي عن (توزيع) الأهرام! فمليون نسخة عدد يدير أي رأس ليجعلها تلوي أسلوبها ليس إلى النقيض ومخالفة الضمير - لكنه لم يفعل ذلك يوماً في حياته وأنا أشهد بذلك - وإنما على الأقل (ليعوِّم) ما يريد أن يقول إذا كان (التواجد) والانتشار في حيز ذلك الرقم يتطلب ذلك!، ولن أتحدث عن مكافأة المقال في الأهرام باعتبارها اقتناعاً ثالثاً لي، فالأهرام تكافيء كاتب المقال الواحد بمبلغ محترم، ولكن أعتقد أن ذلك كان خارج حسابات الدكتور، فلم يكن محتاجاً له كثيراً ولم تكن المادة وحدها عماد تفكيره.

أقول إن هذه الأمور مجتمعة ربما هي ما دفعته إلى التفكير في اقتراحي - الذي نسبه لنفسه كعادته الألمعية! - في أن يكتب لجريدة أخرى!

من هنا توجهنا بعد يومين من اتصاله إلى جريدة المصري اليوم.

كان يوماً شديد البرودة من أيام نوفمبر ٢٠٠٥، عندما كنا في سيارة الدكتور، هو والسائق وأنا، وكان الطريق إلى جاردن سيتي ضبابياً في الليل.

وصلنا إلى مقر الجريدة بشارع جمال الدين أبو المحاسن. وشحب الدكتور عندما لم يجد مصعداً يُقِلُّهُ إلى الطابق الأول - ما فوق الأرضي - حيث مقر الجريدة! وكان يعاني من صعود أية درجات أو سلالم. فأقنعته بأنها بسيطة! وطلبت منه أن يتساند عليَّ فحسب! وقد كان، وبعدها بدقائق كنا في مقر الجريدة بعدما اجتزنا هذا الماراثون الصغير! وقف الدكتور يلهث بينما رحت أحادث السكرتير الموجود في القاعة بأن يخبر الأستاذ مجدي الجلاد بأن الدكتور جاء لمقابلته وأنه منتظر!

فغاب هذا الفتى الأسمر بالداخل قليلاً.. بينما جلس الدكتور يدير عينيه في المكان ويتأمل الجريدة، القاعة، والجالسين في الانتظار، ويقوم بهوايته الأثيرة وهي تفسير شخصيات الناس من خلال ملامحهم! ويميل عليَّ بين اللحظة والأخرى قائلاً: انظر! هذا الرجل ليس أميناً مع الآخرين، وهو كسول ومتحايل! - لماذا يا دكتور؟ - لأن جبهته ليست متسعة وعيناه ضيقتان! وكنت أحاول التدقيق في الوجوه لأصل إلى النتائج نفسها فلا أرى شيئاً يشي بهذه النتائج ولا أفهم من أين جاء بها!

كنت آخذ ما يقوله على محمل خفة ظله، وقد كان لديه الكثير من ذلك!

مرَّ الوقت، وكنت مندهشاً من غياب السكرتير عنا، فقد تخيلت أن الجريدة بأكملها، وليس مجدي الجلاد فحسب بمجرد أن يسمع كل من بها اسم الدكتور سيبادرون بالترحيب وفتح الأبواب له!

بعد دقائق أخرى خرج الشاب، مضى نحونا متقدماً وهمس للدكتور بعدما مال عليه: سيادتك تشرب إيه؟ فتدخلت أنا محنقاً: يا عزيزي.. يا أخي! هناك موعد نحن أتينا له، وقد مضى عليه ربع ساعة ونحن هنا لم نقابل أحداً، أليس من الأفضل أن نشرب بالداخل مع الأستاذ مجدي؟ فأجابني الشاب مبتسماً أن الأستاذ مجدي لديه اجتماع سيفرغ منه بعد عشر دقائق وبعدها سيقابل الدكتور! هنا توقعت أن تثور ثائرة صديقي الدكتور، حتى أنني لن أستطيع إخمادها لو بدأت الآن،

وخفت على انفعاله الشديد في هذه السن وهذه الحالة والصحة! وكان أن فوجئت به يصمت قليلاً قبل أن يرفع رأسه إلى الشاب مبتسماً قائلاً: عظيم! أوكي! عشر دقائق.. ممكن نشرب ليمون!

ولم أنطق بكلمة أثناء شربنا الليمون، لأنني لم أكن أعرف ما يدور بأعماق الدكتور آنذاك! فكان إطلاق أية كلمة بدون فهم لما يعتمل بداخله هو العماء نفسه! ربما كان ثائراً ويكتم ذلك، وربما كان متفهماً للأمر، رغم أنه لم يعتد أن ينتظر إنساناً أكثر من خمس دقائق استثنائية عن اي موعدٍ يمنحه أو يأخذه!

جلسنا صامتين...

ورحت أنا أتأمل الوجوه.. هذه الجبهة العريضة والعينين الواسعتين ماذا تعني؟ والجبهة الضيقة والوجه البيضاوي؟ طيب وماذا عن المستدير والشعر الأشقر!

فشلت في لعبة اللوغاريتمات الإنسانية التي يمارسها لاستكناه الشخصيات فعدت إلى الليمون!

بعدها بدقائق فُتح باب مكتوب عليه (التحرير) وخرج رجلٌ شديد التأنُّق راح يحيي آخراً نحيلاً بشكل ملفت، وله عينان حادتان وشارب مميز. سمعته يحييه (ألف شكر يا مجدي بيه.. والمقال هيكون جاهز كل أسبوع!) ففهمت أنه مجدي الجلاد، وفهمت الموقف بأكمله أيضاً!

بعدما خرج الرجل من باب الجريدة، تقدم مجدي تجاه الدكتور، ورحب به بحفاوة داعياً إيانا للدخول بعدما قدمني الدكتور له باعتباري مساعده الخاص!

دخلنا إثره إلى غرفة التحرير نفسها. وكان هناك ثلاثة صحفيين شباب يتناثرون على الطاولة الطويلة المخصصة للاجتماعات، بينما ظلت العديد من المقاعد الأخرى خالية. نهضوا في غير حماس وسلموا علينا قبل أن يعودوا إلى مقاعدهم وينشغل كل منهم في أوراق وصحف أمامه وعلى هيئتهم شيء من اللامبالاة أو الملل! واندهشت قليلاً! فلماذا لم يستقبلنا مجدي الجلاد في مكتبه الخاص مثلاً؟ كنت أتساءل في أعماقي عن دلالة ذلك حين ابتدر الجلاد الدكتور بقوله: شرفتنا يا دكتور! وبدأ الأخير يشرح له رغبته الشديدة في الكتابة للمصري مرتين شهرياً.. يومي ثلاثاء من كل شهر (بحيث أن الأسبوع الذي لا يكتب فيه للأهرام يكتب فيه للمصري) فنهض الجلاد وأحضر (خريطة كبيرة مجدولة).. خريطة نشر.. وفردها على الطاولة الضخمة، وراح يوضح لنا الأيام الخاصة بالكُتّاب في صفحة الرأي، وكيف أن الصفحة مكتظة على نهايتها (.. تقريباً!) وكيف أن هناك مساحات محجوزة لأسماء كُتّاب بشكل ثابت لا يمكن استثنائها ـ كان منهم - على ما أذكر - يحيى الجمل، وسليم العوا وشيرين أبو النجا ورولا خرسا، ثم حلمي النمنم، رجل الساعة ونجم المواقف الجديد لوزارة الثقافة! وغيرهم، وأخذ يطوي الصحيفة ويعيدها إلى مكانها وهو يؤكد للدكتور أنه (سيحاول) أن يوجد مساحة لمقاله نصف الشهري وسيتصل به حال الاستقرار على يوم مناسب للمقال. وصمت الجلاّد، فأخرج الدكتور من حقيبته ثلاثة كتب من مؤلفاته تتحدث عن مصر والشرق والحضارة وقد خط عليها إهداءً لأسرة المصري اليوم، وأعطاها له محيياً، ونهضنا لننصرف، وأصر الجلاّد على توصيلنا إلى باب الجريدة.

عدنا نواصل الماراثوان التنازلي للدرجات والدكتور يتكئ على ذراعي، وعندما وصلنا للشارع كانت تُمطِر، وكان السائق نائماً! أوقظته سريعاً قبل أن ينتبه الدكتور وينفعل. فأدار السيارة وبعد دقائق كانت تنهب شارع الكورنيش في الطريق إلى مصر الجديدة.

في السيارة لم ينطق الدكتور بكلمة طيلة ربع ساعة! ولم يكن ذلك من عادته.. فجأة تكلم: -
" لن يتصلوا... ولن يأخذوا مقالات!

- لماذا ؟

- هل لاحظت كيف كان ينظر لي " الجلاد " طيلة المقابلة؟

(لم أكن قد لاحظت شيئاً غير عاديٍّ مثلاً أو مُلفِت!)

- لا.. لم الاحظ.

راح يتمتم وهو يرمقني بطرف عينه ساخطاً! ثم رد بهدوء:

-.. لم ينظر في عينيَّ مطلقاً طوال مقابلتنا! كان مستوى بصره إلى رقبتي!

(هنا كدت أن أجن وأنفجر! هل هذا هو السبب؟ وأين التوازنات؟ وأين اختلاف التوجهات بين الأهرام والمصري؟ وأين الصراعات بين الجريدتين، و أين مجلس الحكماء!...)

- يا دكتور.. ألا ترى معي أنك مبالغ قليلاً في هذا الأمر!

- أنت لا تفهم في شيء، ليس لديك فراسة! انا قرأت الموقف على وجهه قبل أن ينطق بكلمة! لم يصوِّب نظره نحوي مطلقاً.. هذا يعني أنه يريد التهرب من الموقف وينتظر انتهاءه!

- يمكن نظره ضعيف!

- لا تنطق بنصف كلمة أخرى. سامع؟

- حسناً!

- ولا تقل حسناً!

*

راح السائق يدير الراديو على قناة الموسيقى.. وهي عادته كلما وجد الدكتور منفعلاً. وكان خيراً أن فعل، فبعد دقائق كنت أسمع صوت التنفس المنتظم للدكتور مما أوحى بأنه قد نام! نظرت بجانب عيني فوجدته قد نام بالفعل.

طلبت من السائق أن يطفيء الراديو.

*

مر اسبوع دون أن يتّصل أحد من المصري اليوم.

في اليوم الثامن للزيارة دخلت على الدكتور غرفة المكتب فوجدته ساهماً شارداً.. ظللت واقفاً لدقائق قبل أن يلتفت نحوي ويقول لي: (مش قلت لك؟)..

لم أرد!

ظل يشبك أصابعه ويفكهما، ثم قال فجأة.. (في الآوت)!

....

كانت الأسباب واضحة بشدة لكل من يقرأ الجريدتين اللتين نشب بينهما صراع بعد ذلك، حين راحت الأهرام تهاجم المصري، وكانت المصري ترد من خلال موضوعيتها وأمانتها، بعد فترة ظهرت فضيحة إبراهيم نافع واتهامه بالفساد المالي وتربُّحه من وراء منصبه، وكانت ضربة أخرى لمصداقية الأهرام وكُتَّابه، برغم أنه خرج منها كالشعرة، ولكن ظلت أصداؤها ودلالاتها في

أعماق الناس، ولاحظت أن المصري تأخذ مقتطفات من أقوال كُتّاب الأهرام في ذلك الوقت التي يشيرون فيها غمزاً ولمزاً إلى المصري اليوم في الوقت نفسه الذي كانت الجريدة فيه ــ الأهرام ــ تتراجع، كانت ضربة ذكية من قلب المؤسسة المنافسة وعلى لسان كُتّابها، فالذي يبرر ويدافع ويصرخ طوال الوقت لا يدفعه لذلك سوى إحساسه بضعف موقفه!

وكان من المستحيل تقريباً أن يقبلوا بكتابة الدكتور بينهم طيلة انتمائه إلى مؤسسة الأهرام! وليته كان منتمياً أصيلاً حتى! فلم يكن ما يربطه بالأهرام سوى مقال يرسله كل أسبوعين وتحويلاً مالياً يُرسل له في المقابل بنهاية كل شهر. لا مكتب ولا ضماً لمجلس فاعل في المؤسسة ولا أية امتيازات أخرى، وكان هذا حال العديد من كُتّاب الأهرام المستكتبين من الخارج، حتى أن الكثير من الرسائل كانت ترسل له على الأهرام من القراء وغيرهم ظناً منهم بأن له مكاناً في مقر الجريدة ومكتباً، ولم يكن يصله شيء من هذا، فكان كل هذا يضيع!

أما من حيث انتمائه للتيار الفكري العام السائد بالأهرام والإطار الصحفي الخاص بها، فلم يكن هذا قريباً منه أيضاً. لم يكن يتناول الشأن الداخلي لمصر، والأكاذيب التي تدبِّجها الحكومة وتمليها على الجريدة لتخرج بها إلى الناس لتواصل تعميتهم.

كان مقاله مختلفاً عن ذلك كله. وكان الخطأ أنه في النهاية يحسب على هذه المؤسسة التي تعج بكل هذا الكذب.

المهم.. أن مسألة الانتماء إلى جريدة أخرى لم يحالفها النجاح. فقرر الدكتور (تجويد) ما يفعله بالأهرام على حد قوله، إضافةً إلى كتابة مقال أو أكثر شهرياً إلى مجلات أخرى مهمة وذات تواجد كالهلال ووجهات نظر، وهو ما قام به بعد ذلك بالفعل، وإن كان بشكل غير منتظم.

... وعدنا إلى القصاصات والمراجع والترجمة من أجل إعداد مقالات الأهرام. ولكني كنت حزيناً فعلاً.. حزيناً من أجله بشكل شخصي، وحزيناً لأنني رأيت أن كتابته في المصري لو كانت تمت كانت ستفتح له المجال لتغيير أسلوبه في الكتابه عما يقوم به في الأهرام. ففي المصري اليوم كان لا بد لكتابته أن تتناول الشأن المصري الداخلي الخالص، كان هذا هو توجه الجريدة بدءاً من عنوانها ومروراً بفلسفتها وطبيعة دورها الذي ارتأته مذ وجدت، ولم يكن الدكتور ليحيد عن ذلك الخط لو كتب فيها، هو بنفسه أخبرني بذلك إثر مناقشتنا حول سلسلة مقالات يكتبها في الأهرام عن مصر والعالم الذي يعاد تشكيله! ولكن ذلك لم يتأتَّ.. فضاعت فرصة عظيمة على المتلقين حتى في قراءته لداخل مصر، ومن داخل رؤيته للأحداث مباشرةً.

واستمر الحال على ما هو عليه..

*

فجأة رن جرس الهاتف. فانتفضت كالملسوع من النوم الدافيء. أحدِّق في الساعة المعلقة على الحائط أعلى سريري، كانت عقاربها تشير للسادسة والربع صباحاً.. وكنت مُشوَّشَاً. خمنت مع الجرس الثالث من الذي يتصل.

(من سواه)؟

- صباح الخير يا أستاذ حمزة.

- صَباح النور يا دكتور!

- تعال حالاً لو سمحت.. أريدك على وجه السرعة!

لم أنطق لأنني توقعت تكة السماعة الموضوعة قبل أن أجيب حتى.. وقد كان!

رحت أتخبط في الرؤى المشوشة أمامي. أبحث عن القميص والبنطلون ومنشفة الوجه.. بعد دقائق كنت في شارع المطرية أبحث عن تاكسي يقلني إلى الدكتور حيث وجه السرعة!

وبعدها بربع ساعة أخرى كنت لدى الدكتور.

- صباح الخير

- صباح النور! لماذا تبدو نعسان هكذا؟

- (رددت متثائباً): لأنني غادرت بيتك بالأمس بعد منتصف الليل. ونمت خمس ساعات في بيتي قبل أن أعود إليك عوداً أحمد!

فجأة أخذ يصرخ وقد علا صوته!

- هل تريد النوم أكثر من خمس ساعات؟ أنت من أهل الكهف أم ماذا! ما هذا الكسل وهذه الخيبة؟ الوقت ليس في يدنا يا أستاذ.. نحن في يد الوقت!

(لم أسمع باقي كلامه لأنني كنت قد استندت بكوعي على الحائط الملاصق للباب المفتوح! ونعست واقفاً! نِمت) لم أنتبه مذعوراً إلا بصوت الباب وهو ينفجر منغلقاً في وجهي كالقنبلة فأفقت! انتبهت لما أنا فيه.. ورحت أضرب الجرس مرة أخرى وأنا لا أدري ماذا يحدث!

فتح لي هذه المرة بدون أن ينطق بكلمة وأخذ ينظر لي بغيظ. مضى بخطوات عصبية تجاه الكرسي المشمس أمام نافذة الميريلاند! فاتجهت إلى الحمام، بعدما خلعت الحذاء ولبست الخُف الصيني المصنوع من القماش الأزرق والذي طلب مني أن أرتديه كلما دخلت البيت لأنه لا يحدث صوتاً أثناء المشي.. وهو يحتاج للهدوء. كان هو أيضاً يرتدي خفاً مثله ولكن كحلي اللون، وتكون الطامة الكبرى لو أتينا من مشوار من الخارج مثلاً وارتديت خفه بدلاً من خفي سهواً! تنفجر ثورته.. ويأخذ في الصراخ من فوضاي واستسهالي لكل شيء.. وأحياناً أكون مرتدياً خفي الأزرق ولكنه لا يفرق بين اللونين وأظل أقنع فيه أن كل منا يلبس خفه فعلاً فلا يقتنع أبداً! ورغم معرفتي بأن لديه مشاكل في الإبصار، تتعلق خاصة في التمييز بين الألوان، فإنني أحسم الأمر بأن أريحه وأعطيه خفي باعتباره خفه! ويكون جزائي أن أحرم من الاثنين طيلة النهار أثناء العمل!

.. دخلت الحمام.. وغسلت وجهي.. أفقت قليلاً.. وعدت.

كان لا يزال صامتاً يقلّب أوراق الجريدة متنقلاً بين صفحاتها من الوراء للأمام في عصبية، (هذا يعني أنه لا يراها من الأصل من الغضب)! فكرت قليلاً .. قلت: (الجو جميل)!

نحى الجريدة جانباً.. ونظر طويلاً لي. وابتسم كأنما قد فهم شيئاً ما! ابتسمت أنا أيضاً.. قلت له: يعني أفطرت دون أن تنتظرني على الأقل! فقال لي: " يوجد زبادي وعسل في الثلاجة.. اذهب وخذ ما تريد!"

نهضت وأحضرت الزبادي.. وعدت له..

- خير يا دكتور...

- كنت لدى الطبيب بالأمس.

- وكيف ذهبت بدوني؟ لم تخبرني حتى!

(كأنما تجاهل عبارتي الأخيرة..)

- يريدني أن أعمل عملية (فتاق)!

- (صمت).

-.. ما رأيك؟ أخشى أن سني لا يتحمل إجهاد العمليات!

أخذت أفكر برهة.. أنا أسمع أن هذه العملية بسيطة وليست معقدة أو صعبة وأنها ليست ذات خطورة عالية أيضاً.. المهم ألا يجهد الإنسان نفسه بعدها، وألا يحمل أوزاناً ثقيلة، وألا يصعد سلالم أو.. أو..

- ما رأيك؟

- أعتقد أنها عملية بسيطة!

- لا توجد عملية بسيطة لشخص في الثمانين.. ولو خلع ضرس حتى! أنت لا تفهم في الطب..، كعادتك لا تفهم شيئاً! مسألة سيولة الدم قد تكون قاتلة لو حدث خلل في العملية.

(كنت أعلم أنه يشكو من سيولة الدم)

- طيب ما رأيك أن نستشير شقيقتي؟ هي طبيب نائب بمستشفى الدمرداش!

- عظيم.. اتصل بها حالاً!

اتصلت بالفعل بشقيقتي التي كانت في المستشفى في الوقت ذاته.. أخبرتها بالأمر، فكان أن طمئنتني بأن الأمر بسيط فعلاً، ناولته السماعة وأنا أرى البشر على وجهه، فلم تخبره بأكثر مما توقعت عن سهولة العملية ولكن على أن يجريها جرّاح ماهر فقط. لاحظت أن الدكتور يناقشها في أدق أمور الطب، والجراحة والعمليات، والسيولة، واحتمالية وضع (شبكة) بعد الجراحة في منطقة أسفل السرة، واندهشت من معرفته الكبيرة بالكثير من الأمور التخصصية للصحة العامة والطب!

بعد انتهاء المكالمة قال لي: أنت عملت "معروف كبير".. أختك طمئنتني إلى حد بعيد. ولكن.. نصحتني بأن أعمل العملية في مكان مشهود له بالتفوق! هل تعرف مستشفى جيداً من الممكن أن أعمل به العملية؟ فاقترحت عليه (مستشفى الدمرداش) فحدجني بنظرة ساخطة! فاقترحت عين شمس التخصصي، فهز رأسه غير موافق!

قال لي: اسمع، هناك مستشفى شهير في مدينة السادس من أكتوبر مختص في جراحات القلب في الأساس ومتعاون مع مستشفى أمريكي شهير.. ما رأيك بها؟

أخبرته أنني لا أثق في مثل هذه المستشفيات الاستثمارية، وإنها أسواق تجارية طبية! يبيعون فيها المريض ويستثمرون فيه! والمعاملة هناك غير إنسانية.. عمادها المادة والتربح!

فوجئت به يثور!

- أنت لا تفهم شيئاً! عُقدك الطبقية دمرتك! أنا فاهم كل شيء! أنت لديك عقدة من المؤسسات الثرية كلها. وليس المستشفيات فحسب! بل من أي شخص ثري! يا أخي خِف قليلاً! أنا أسألك عن رأيك في أدائها الطبي.. (حد جاب سيرة الفلوس؟)

- يا دكتور ليس عندي عقد ولا يحزنون، وليست مسألة فلوس، صديقك الشيوعي القديم د. فتحي عبد الفتاح كاد أن يموت على يد سماسرة أحد هذه المستشفيات الشهر الماضي ولم يتركوه إلا بعد أن يسدد فاتورة علاج لم يحصل عليه، وكان موضوعاً شهيراً، ولولا أن أحد أبنائه تدخل

وهدّد بالوصول لكبار المسئولين لحدث ما لا يحدث عقباه. حدث هذا في واحد من أشهر المستشفيات الاستثمارية المتعاونة مع مستشفيات الغرب ممن يقبضوا رسوم العلاج بالدولار!

- لا أريد كلمة أخرى! احضر لي رقم المستشفى من الدليل.. واتصل بهم واعرف لي طريقة الحجز والأسعار وحدد موعداً مع أخصائي أيضاً ليفحصني!

- حسناً!.

- أقول لك! احضر لي الرقم.. ولا تفعل شيئاً آخر!

أمنت على كلامه...

في اليوم التالي أحضرت له الرقم، أخذه مني ودخل إلى غرفة المكتب، أغلقها عليه، ورجع لي بعد فترة ووجهه يحمل علامات شرود وقلق.

- استعد! أنا حجزت موعداً للفحص في العيادة الخارجية للمستشفى، وعلى أساسه سيتقرر موعد حجزي بالمستشفى من أجل إجراء العملية. سنذهب بعد غد!

(حط على روحي قلقٌ بالغ بطريقة لم أعهدها من قبل! شعرت فجأة بتعلق شديد به! لم أنطق)

صرخ في وجهي: مالك؟

- لا شيء..!

- راح يتأملني طويلاً.. ثم أردف بنفاد صبر: خلاص... مع السلامة دلوقت... موعدنا مساءً.

- أنا ممكن أن أبقى معك إلى أن...!

- صرخ فيَّ دون أن أكمل: قلت مع السلامة.. سأبقى مع نفسي!

(طبيعي للغاية أن يفعل ذلك! لا يرى إنساناً يساعد آخر في الدنيا سوى الأم..! ماعدا ذلك لديه ادعاء ونفاق أصفر وتمسُّح!)

خلعت الخُف الصيني مغلوباً على أمري.. وجلست على الكرسي الملاصق للباب أرتدي حذائي، انتهيت منه فظللت ساهماً... أفكر وأنا قلِق.

لم أفق إلا على يدٍ تربت على كتفي..

رفعت راسي فوجدت وجهه مبتسماً ممتناً:

- انتبه لحالك! مع السلامة.

نهضت..

اتجهت للباب. وأغلقته خلفي في هدوء!

*

بعد يومين كنا في سيارة الدكتور في طريقنا إلى المستشفى الفاخر بمدينة أكتوبر. ظل قلقاً طوال الطريق، حاولت أن أخفف عنه قليلاً، أخبرته أنها ليست أول جراحة يجريها ولا شك، وأنها ستمر بسلام، و"لنر ماذا سيقول الدكتور الذي سيفحصك أولاً.. ربما رأى أن لا ضرورة لعمل العملية من الأصل ".

لكن شيئاً من هذا لم يخفف من قلقه.. ظل ساهماً متوتراً طوال الطريق.

قال لي: لو قرروا ان يُجروا عملية غد أنت والسائق إلى بيتك، سأتصل بك من المستشفى فيما بعد. فاعترضت. أكدت له استحالة ذلك وأنني سأبقى معه.. فانفعل ثائراً: (لا اريد مناقشة.. انتهى يعني انتهى!) صمتُ مغلوباً على امري.

وصلنا إلى المستشفى الشهير الفاخر، أشار لنا أحد الموظفين على بابه أن نتوقف فتوقفنا. طلب من السائق خمسة جنيهات وهو يقطع إيصالاً. فسألته: لماذا؟ قال لي: انتظار بالمستشفى. فأخبرته منفعلاً بأن لدينا موعد كشف ولم نجيء لركن السيارة في جراج عمومي. فقال لي وهو يمد يده بالإيصال عبر الزجاج: غصباً عني. الأوامر!

دفعنا الخمسة جنيهات ودخلنا. كان الدكتور يتمتم بما خلته اندهاشاً.

بعد المدخل ذي الجنيهات. ترجلنا من السيارة إلى حيث ذلك المبنى الفاخر، استند عليَّ الدكتور متوجهاً إلى باب من زجاج الفيمية يُفتح بمجرد أن تقترب منه، ويغلق بمجرد أن توليه ظهرك!

دخلنا فشعرت أنني في صالة استقبال بفندق خمس نجوم! تكييف بارد للغاية، وموظفات شقراوات.. ابتسامات أمريكية، وموظفون لامعون، وشهادات بلغة إنجليزية معلقة في كل مكان تتحدث عن شراكة طبية وتعاون علمي مع مستشفيات الولايات المتحدة.. وصور لمدير المستشفى القصير الوسيم.. ابتسامته واثقة، وحلته أنيقة للغاية، وهو يتوسط فريق من لابسي المعاطف البيضاء من أساتذة الطب في مصر وهم يبتسمون!

- ماذا تفعل؟
- أشاهد المكان!
- هل هذا وقته؟ سأجلس هنا واذهب أنت وتأكد من موعد كشفنا.. هو بعد ربع ساعة.
- طيب!

توجهت للموظفة.. حسناء للغاية.. نحيفة.. ابتسامة عريضة وأسنان ناصعة.. بمجرد أن اقتربت منها هتفت: Good Morning! Ordinary or Private? فأجبتها بأني لا أعرف الفرق بينهما! ولكن لدينا كشف وخلاص! أخذت اسم الدكتور ونقرت على أزرار الكمبيوتر أمامها.. صمتت قليلاً وقالت لي – بالعربية هذه المرة! نعم: لديه كشف الآن. وأشارت لي تجاه واجهة زجاجية: يمكنك تسديد الرسوم هناك أولاً، ثم نستعلم لك على الطبيب إن كان قد وصل أم لم يحضر!

– ولكن المفروض العكس! أن نعرف هل أتى الطبيب أم لا.. ثم ندفع أو لا ندفع بعدها.

راحت تتفحصني بنظرة غريبة وقد علا وجهها شيءٌ كفقدان الاهتمام. كأن نظرتها كساها الفراغ! عادت تنقر على جهازها وانشغلت عني تماماً!

توجهت إلى حيث أشارت فطالعني موظف أنيق مبتسم حياني بنعومة شديدة وهو يستفسر عما يستطيع أن يقدمه لي، فسألته عما أستطيع ان أقدمه أنا له من نقود للكشف. فازدادت ابتسامته وراح ينقر على الكمبيوتر أمامه وأخبرني برقم من بضع مئات! فحدَّقت فيه.. صامتاً:

– هل هناك شيء يا أستاذ؟
– أنا أسأل عن ثمن الكشف وليس العملية!

ازدادت ابتسامته رحابة حتى خلتها ستبتلع الصالة بمن فيها قبل أن يرد:

- نعم.. هذا بالضبط ثمن الكشف!

تمتمت في سري... هذا جنون! خبل أو ابتزاز! مئات الجنيهات من أجل فحص تستلزمه إجراء العملية؟ يعني هم ملزمون أن يجروه بطبيعة الحال!

- هل هناك شيء يا أستاذ؟

لم أرد... وظللت أفكر. فجأة وجدت شخصاً اعرفه فوق راسي:

- بتفكر في إيه يا فيلسوف زمانك؟ ما حجزتش ليه ؟ ما دفعتش ليه؟

- يا دكتور يريدون (٧٠٠) جنيه تقريباً من أجل الكشف.. هذا كثير جداً!

علا صوته حتى تحول كل من بالصالة إلينا بأبصارهم:

- وانت مالك؟ انت هتدفع من جيبك؟

- ولكن يا دكتور.. هذه انتهازية.. هذه المئات التي يأخذونها من أجل مناظرة الحالة قبل العملية لا تزيد عن ثلاث جنيهات في مستشفى الدمرداش! سامعني؟ ثلاثة جنيهات. هل هذا يعقل! ثم إنهم ملزمون بمناظرتك أساساً، ولعلمك سندفع لهم هذه القيمة على كل حال ضمن رسوم العملية!

- لا أريد ربع كلمة زيادة... ولا حرف!

- ولكن

- ولا نفس!

- طيب!

انتزع من يدي النقود التي كان أعطاها لي من قبل لأحجز بها، وراح يتناقش مع الموظف بابتسامة وهو يعتذر له لا أعرف عن ماذا! فتركتهما واتجهت لحيث المقاعد الوثيرة في وسط قاعة المستشفى.. لاحظت أن الوجوه المتناثرة في القاعة ترقبني باندهاش!

بعد قليل عاد وجلس إلى جانبي.

- خير ما الأخبار.

لم يرد.. فصمتّ!

أقبلت ممرضة آسيوية تتجه نحونا بابتسامة عريضة.. ترتدي بالطو التمريض الأبيض، وإن كان قصيراً تلامس حافته ركبتيها فتكشف عن ساقين ممتلئتين جميلتين! شعرها الأسود اللامع منفلت تحت غطاء الرأس القصير للتمريض، ويصل إلى ما قبل مؤخرتها قليلاً! كانت تبرق! راحت تتحدث مع الدكتور بالإنجليزية.. أخبرته بأنها سترافقه للكشف وستصحبه بعد ذلك للعملية! فنهضنا ثلاثتنا.. ومشينا تجاه غرفة الكشف... واستقبلنا الطبيب بالابتسامة النمطية ذاتها، وتمدد الدكتور وراح الطبيب يكشف عليه من وراء البارافان. بينما راحت الممرضة تسألني عن اسمي.. وما علاقتي بالدكتور.. وهل سأرافقه أم لا..! لم أكن مستريحاً لها. أو لعلني لم أكن مستريحاً لكل ما في هذا المكان!

بعد توقيع الكشف نهض الدكتور وقد ارتدى الجاكت الخاص به. وعبارات الطمئنة تتوالى من فم الطبيب الذي أكد له أنه سيجري له العملية بنفسه وأنه قد يضطر لتركيب شبكة فعلاً بعدها!

فسأله الدكتور: ومتى يمكن ذلك؟ متى يمكن حجزي لإجراء العملية؟ فقال الطبيب: في أي وقت تشاء.. لكن عليك دفع الرسوم أولاً!

(طبيعي)!

سألته أنا عن الرسوم، نظر لي فجأة كأنه لم ينتبه لوجودي في العيادة من قبل! راح يتأملني بنظرة فاحصة، لم تخلُ من استعلاء.

- يمكنك أن تسألهم في قسم الماليات!

....

عدت إلى الموظف المبتسم مرة أخرى، هذه المرة لم يبتسم.. بمجرد أن رآني تبدَّل وجهه!

- أي خدمة؟

مددت له يدي بالأوراق التي أعطاها لي الطبيب وبها طبيعة العملية والرسوم.

- سيادتك ستدفع ٥٠٠٠ جنيه الآن.

- طيب وبعد الآن؟

- سنرى! ربما تضاف تكاليف أخرى!

- ممكن أن أعرف ما هي هذه التكاليف الأخرى؟ كم قيمتها وستندرج تحت أي بنود؟

نظر لي في نفاد صبر.. وراح يقوم بمجموعة حسابات على الورقة أمامه قبل أن يضع نقطة على الورقة ويتأملها طويلاً. قبل أن ينظر لي:

- حوالي ثلاثة آلاف قبل الخروج!

- قبل الخروج؟! طيب وعند الخروج؟ وبعد الخروج؟ وبعد الوصول للبيت مغادرين الخروج؟

- والله يا أستاذ قلت لك ما أعرفه! ستدفع خمسة آلاف جنيه الآن، وثلاثة بعد ذلك تكلفة مواد طبية ولوازم، والباقي سيحدده لك فريق الجراحة!

- باقي؟ باقي ماذا أيضاً؟ وفريق؟ فريق جراحة من أجل عملية فتاق؟ كان أستاذاً واحداً منذ قليل.. صاروا فريقاً الآن؟

- سيادتك هتدفع ولا لأ؟

- لأ!

غادرته وانصرفت عائداً إلى الدكتور، أخبرته بتكاليف العملية، وصلت ثمانية آلاف جنيه، أكدت له أن هذا ما نعرفه (للآن فقط)! لم يثُر هذه المرة.. أخذ يتأمل شيئاً.. ظل يفكر صامتاً.. ثم رفعه رأسه إليَّ: حسناً.. ادفع! أخذت أنظر إليه بوجهٍ محتقن.. وعيناي لا تكادان ترمشان من الغيظ! فكرر كلمته لي لما وجدني على هذه الحال: لا بأس.. ادفع..!

عدت إلى الموظف.. كان ينظر لي بعينين مسترخيتين تماماً!

- هاه!

لم أرد! مددت له يدي بالنقود. فأخذها وقد ابتسم فجأة.

راح يعدها، ثم راح ينقر على لوحة الكمبيوتر أمامه في نشاط مفاجيء، وهو يتحدث بسرعة بصوت مرتفع: ألف سلامة على الدكتور إن شاء الله جراحة ناجحة.. شرفتونا يا فندم!

(الملعون! لم أسمع له صوتاً متهللاً لاهجاً بالدعاء والشفاء في المرة الأولى يغني!)

مد يده لي بالإيصال.. بينما أنظر له بغيظ! انتزعت الإيصال من يده بعصبية.. فنظر لي مندهشاً وأنا أشيعه باللعنات!

عدت للدكتور.. كانت الممرضة الآسيوية بجواره.. ابتسمت بمجرد أن رأت الإيصال في يدي! تفضلوا! همست لنا.. فنهض الدكتور في صعوبة واتجهت بنا نحو مصعدٍ فضي متسع، ضغطت على زر الطابق الثالث، ووصلنا له.. سارت مع الدكتور تبادله حديثاً ضاحكاً بالإنجليزية، ولاحظت أنها تتباسط معه كثيراً وتلمسه كثيراً في تودد بادٍ وهي تحدجني بنظرات مراقبة! تقدمتنا بخطوات رشيقة تجاه غرفة الدكتور.. وما أن فتحتها حتى تأكدت أنني في فندق خمس نجوم وليس في مستشفى!

سرير ضخم مفروش بمفرش أبيض ناصع، مُرتَّب، مزود بآلة كهربية لرفعه وتعديل زواياه بمجرد اللمس على زر بجوار المريض. تليفزيون مُعلَّق،، نافذة كبيرة تكشف مدينة أكتوبر على اتساعها. ثلاجة صغيرة، وجهازي تكييف. الأرضية من السيراميك الفاخر، جناح فاخر مُرفق بالغرفة من أجل المُرافِق. كل شيء يلمع!

أخذت الممرضة تشرح للدكتور كيفية استخدام السرير، وأشارت له على أرقام الخدمة الخاصة بالمستشفى والموضوعة أسفل سطح زجاجي على الكومودينو الصغير الموجود بجوار السرير والذي يستقر عليه التليفون.

شكرها الدكتور، وطلب منها أن يلتقي بالطبيب، فطلبت منا انتظارها دقيقة واحدة إلى أن تعود به! طلب مني أن أذهب معها فتبعتها، نظرت لي بابتسامة... ولم تتكلم، وصلنا إلى باب مكتوب عليه اسم "البروفيسور" الذي سيقوم بالعملية.. مكتوباً بحروف انجليزية.. دخلت ووقفت أنتظرها. بعده بدقائق خرج الدكتور معها باسماً.. انطفأت ابتسامته بمجرد أن رآني وتحولت إلى تعبير محايد! أشار لي بالتحية في فتور.. وسبقنا إلى غرفة الدكتور...

التقاه الدكتور مرحباً ودار بينهما حوار حول العملية، وموعدها، فطلب منه الطبيب أن يهدأ تماماً وقال له يمكننا أن نجريها لك بعد أربعة أو خمسة أيام.

(قال له عند الكشف أنه من الممكن أن يجريها له من الغد لو شاء!)

- ولكن لو سمحت لي يا دكتور!

نظر لي الطبيب صامتاً منتظراً، ويبدو أنه لم يسترح لتدخلي!

- ولكن هل اليوم الواحد هنا في انتظار إجراء الجراحة سيُحمِّلنا تكاليف إضافية؟
- طبعاً. وماذا تتوقع؟ أن تقيم هذه الإقامة الفاخرة بالمجان؟
- ولكن لا نريد أن نقيم... نريد أن نُجري العملية ونذهب!
- المسألة حسب جدول مواعيد العمليات السابقة عليكم! وأذكر أن هناك أربع أو خمس عمليات قبل عملية الدكتور! سيضطر للإقامة إلى أن ننتهي منها. هذا نظام.

(هذا الكلام جديد! لم يُقل من قبل!)

- آه!.. طيب ممكن أعرف تكلفة الإقامة ليوم واحد هنا.

نظر لي الطبيب ساخطاً ورد بهدوء وعصبية معاً : قلت لك منذ ساعة او أكثر.. إن هذا اختصاص قسم الماليات! وليس اختصاصي.

هنا تنحنح الدكتور وأزاحني قليلاً بما يعني أن اسكت وقال للدكتور: شباب! معلش.. الشباب مندفع هكذا يا دكتور.. أنا أعلم ان هذا ليس من اختصاصك.. أنا مطمئن تماماً للتعاون معك.. ويكفي أنني مستريح نفسياً لإجرائك العملية لي.

سألت مرة أخرى: من فضلك يا دكتور.. حضرتك تقول إن الأمور المالية المتعلقة بالإقامة في المستشفى ليست من اختصاصك وأن اختصاصك طبيٌّ في الأساس. صح؟

لم يرُد.. وهو ينظر لي محنقاً... بينما نظر لي الدكتور منتظراً أن أقول شيئاً وراء ذلك.. فأكملت:

- طيب هم أخبروني في الماليات أسفل أن هناك (اختصاصات مالية طبية) أخرى لم ندفع ثمنها بعد، وأن حضرتك الذي تعرف تقديرها! ممكن أن تخبرني ما هي وما قيمتها؟

هنا التفت الطبيب للدكتور محنقاً وسأله: هل الأستاذ ابنك أم ماذا؟ فابتسم وقال: لا... يعني نعم! تقدر تقول مثل ذلك!

فرد عليَّ الطبيب بنفاد صبر: نعم... هناك تكاليف أخرى من معدات طبية ولوازم جراحة و أدوات وحقن و..

- نعم يا دكتور.. هذه عرفناها وعرفنا أنها ستتكلف ثلاثة آلاف جنيه.. دفعناها والسلام.. أنا أسأل عن الخبايا والخفايا الأخرى!

- لا توجد لدينا خبايا! نحن مؤسسة محترمة!

هنا تدخل الدكتور.. وقال لي: ولا كلمة زيادة!

ولكنني لم أسكت! واصلت:

- طيب أنا آسف يا دكتور.. أقصد ما هي الرسوم الإضافية التي قد توضع تحت أحد البنود التي لم نعلم بها بعد؟

- هناك رسوم قد تدفعونها على الوقت الزائد المخصص للعملية!

- لم أفهم؟!

- يعني العملية محدد لها ساعة من الزمن بالضبط! لو زادت عن ذلك الوقت، فكل ربع ساعة ستكلفكم خمسمائة جنيه إضافية!

- آه طبعاً! وقد تُجرى العملية في ثلاث ساعات أو أكثر.. حسب يعني، يمكن أربعة، خمسة!

- هز كتفيه وهو يقول: ربما!

- وهذا بالطبع مضافٌ للثمانية آلاف جنيه السابقة

- نعم!

فنظرت بدوري للدكتور فوجدته واجماً محتقن الوجه!

فشكرت الطبيب وقلت له ممكن تتصل لنا بأحد يخبرنا عن تكلفة الإقامة الفندقية أيضاً التي سيتمتع بها الدكتور في مستشفاكم؟ فهز رأسه إيجاباً وهو يرمقني بنظرات سخط بينما يغادر الغرفة!

نظرت للدكتور فوجدته ينظر لي مندهشاً! كانت نظرتي له معاتبة وبها بعض قسوة! ظللنا صامتين إلى أن أتى رجلٌ لامع آخر من مرتدي الحُلل الفاخرة، طويل، أسمر، ابتسامته المطاطية عريضة، وشاربه مهذب للغاية منتهٍ بطرفين رفيعين!

- الأمر يا فندم.

- من فضلك أريد معرفة حساب هذه الغرفة لمدة خمسة أيام سيقيم فيها الدكتور من أجل إجراء جراحة!

- بمرافق أم بدون؟

- بدون!

- خمسمائة جنيه الليلة

- شكراً!

حياني الرجل وذهب، بينما نظرت للدكتور.. الذي كان قد سكن في مقعده تماماً وأخذ يفكر ساهماً.. بادرته

- كيف الحال الآن؟

- ....

- لا أعرف بم أنصحك في الحقيقة فأنا مُعقّد من الطبقية ومن المؤسسات الثرية! "فقري" كما تقول!

- ....

- آه.. الآن تسكت يعني!

نظر لي نظرة تائهة كأنه تورط! فشعرت بإشفاق كبير نحوه!...

تردد صوته في خفوت: أريد مدير المستشفى!

ظللت واقفاً لا أتحرك أنظر نحوه! إلى أن رفع رأسه فأبصرني مازلت على حالي فلم يتكلم وحول بصره.. فزفرت وتوجهت للباب.. أغادر الغرفة باحثاً عن غرفة مدير المستشفى!

حضر مدير المستشفى مهرولاً منزعجاً! كان قد سمع من الطبيب الذي سيجري الجراحة عن الدكتور وأنه من كُتّاب الأهرام، وكان يبدو أنه خائفٌ من أن يكون شيءٌ قد ضايقه.. سألني ونحن عائدين للغرفة التي يجلس بها الدكتور عما يزعجه.. فقلت له: لا أعرف! ربما لا تعجبه الممرضة الآسيوية ويريد ممرضة أوروبية! فالتفت لي المدير وسألني بنبرة كلها جدية: أوكي! أي جنسية يريد بالضبط؟

هنا كدت أن أفقد لياقتي وأدبي! فصمتّ لكيلا أنفجر! بينما أخذ الرجل ينظر لي منتظراً رداً ما!

دخلنا إلى الغرفة، وما أن رأى الدكتور المدير حتى انفجر منفعلاً: أنتم لستم مؤسسة إنسانية ولا تعرفون عن الطب شيئاً ولا عن أخلاقياته! كل شيء لديكم بمقابل! الابتسامة بمقابل

والدعاء للمريض بالدولار! أنا تعالجت في أكبر مستشفيات العالم، ومررت على كل الأنظمة الطبية في أوروبا لم أجد عملية تُحسب تكاليفها على أساس الوقت.. وكل ربع ساعة بمبلغ كأننا في مكتب مراهنات للكرة أو على طاولة قمار! وأين قسم أبقراط وشرف المهنة..؟ هل تعرفون شيئاً عنهما؟ هل سمعت عن أبقراط يا دكتور؟

راح المدير يهدىء الدكتور، إلا إنه لم يهدأ.. تناول الجاكت الخاص به في عصبية، وطلب من المدير أن يأمر (الماليات) بأن ترُد لنا المبلغ الذي دفعناه من قليل! فوافق الرجل تحت ضغط الدكتور وعدم تراجعه عن الخروج من المستشفى.

بعدها بدقائق كنت أمام موظف الماليات أناوله ورقة من المدير ليرد لي ما دفعته!

تأملني الموظف بدهشة وقد كسا الذهول ملامحه.. أخرج النقود من درج الخزينة أمامه.. عدَّ ثمانية آلاف جنيه بالضبط.. ومد يده يناولها لي! وهو يحملق في وجهي مندهشاً...

فجأة أخذت أضحك من منظره البائس..

عدت إلى الدكتور.. وأعطيته النقود..

راح يتساند على ذراعي ونحن نغادر الباب الفيمية إلى حَرّ مدينة أكتوبر.. ونبحث عن السيارة وعن سائقنا النابه الذي وجدناه بداخلها في سابع نومة!

....

- هؤلاء عملاء .. عملاء حضاريون!

- خفف عن نفسك يا دكتور.. فالأمر لا يستحق! كلنا معرضون!

- أخفف؟ أخفف ماذا يا ابني؟ هل تصورت أنني انظر للمسألة من زاوية النقود؟ ليس هذا هو مركز الموضوع. الأمر يكمن فيما وراء ما حدث. هؤلاء عملاء حضاريون. ينهبون مصر بدعوى الشراكة مع الخبرات الغربية عابرة القارات، وجه آخر للعولمة، يفرِّغون الإنسانية من قيمتها بدعوى التحضر والحداثة، وهم ليسوا بأكثر من عملاء للغرب. وعملاء للأموال، هؤلاء مُخرِّبون.. ومعتدون على روح الطب.. معتدون على القيم النبيلة الباقية، على مصر بأكملها.

كان منفعلاً للغاية وهو يتحدث.. بينما كانت السيارة تنهب بنا الطريق العائد من أكتوبر إلى حيث المهندسين قبل أن نتجه لمصر الجديدة.. رحت أحاول تغيير الكلام. قلت له إننا يمكننا إجراء العملية في أي مستشفى محترم.. بعيداً عن هذه السمسرة..

صمت ولم يرد وكأنه يفكر في شيء أو يتخذ قراراً. فصمتُّ بدوري.

- انا أفكر في شيء مختلف تماماً..

- خير؟

- سأجري الجراحة في فرنسا!

- نعم.. ولكن صرت تتعب من السفر... وهناك تكاليف الطيران أيضاً، وتكاليف العملية ستكون باهظة للغاية هناك. وستحتاج لفترة نقاهة بعد العملية لن تستطيع أن تبقاها هناك بمفردك في بيتك. أنت تعيش بمفردك هناك.

- أيوه.. ولكن أنا لي نظام علاجي وتأمين اجتماعي وطبي شامل.. يعني سأجري العملية بالمجّان تماماً! لن أدفع ولا (يورو)!

- لماذا لم تقل لي هذا من الأول؟

- لأن الفكرة تواجهها صعوبة واحدة. النظام الطبي هناك صارم للغاية فيما يتعلق بحجز مواعيد العمليات. الكل سواسية أمام النظام العلاجي المجتمعي. يعني قد تجد ١٠ آلاف عملية سابقة لموعد حجزي.. ولا يمكنك أن تطلب من الإدارة أن تستثني حالة واحدة من أجلك!

- على الأقل نتصل ونرى..

- نعم.. أعتقد أن هذا هو الحل الأفضل!

....

في اليوم التالي وبمجرد أن فتح لي الدكتور باب الشقة صباحاً.. لاحظت أن وجهه منطفئاً.. فخمنت أنه حاول الحصول على موعد للجراحة مع الإدارة الطبية بباريس ولم يوفق..

- خير يا دكتور..

- وجدت موعداً مناسباً قريباً للجراحة.. تصوَّر!

- .... !

- سأسافر بعد أسبوع! اعمل حسابك أن تكون معي في المطار من الصباح.

- بالتأكيد.

يومها لم نعمل.. ظللنا ندور حول العمل في مناقشات عن أي شيء وكل شيء بدون أن نركز فيما نقول! كان الدكتور متوتراً إلى درجة القلق والخوف.. وكنت لا أستطيع مداراة قلقي أنا أيضاً. فجأة نهض وقال لي.. سأنام.. يمكنك أن تذهب. واستعد لنعمل ليلاً!

- دكتور... هل أنت قلق من شيء؟

- أنا؟ أنا لا أتوتر أبداً ولا أعرف معنى القلق! مم سأقلق مثلاً؟

- يا دكتور عادي! القلق شيء طبيعي.. والإنسان قد يخاف أحياناً من هواجس.. و...

- (محتدًا): لا تذكر هذه الكلمة مرة أخرى! أنا قادر على الاستغناء عن العالم في مواجهة مشكلاتي.. أنا لا أخاف من شيء. سامع!

غادرت..

في الليل.. بعد انتهاء العمل. ظل الدكتور شارداً ساعتين على الأقل.. لا يتردد في الشقة سوى صوت أنفاسنا!

فجأة نظر ناحيتي.

- حمزة!

- - نعم يا دكتور..

- ممكن تبيت معي الليلة!

*

كنت أركض بين الصالون وغرفة الدكتور وغرفة المكتب أراقب أشياءه التي راح يرصها في الحقيبة التي اكتظت عن آخرها، الملابس والكتب، الكوفيتين، والقبعة، أدوات الحلاقة والبارفان، والنعناع، والسكر، وكيس الأدوية الذي سيظل محتفظاً به في يده بالطائرة. وبين

الوقت والآخر يغلق الدكتور الحقيبة ويبدأ في حملها ببطء ليرى إن كان سيستطيع ان يتحمل وزنها أم لا! ويعاود فتحها مرة أخرى ويبدأ في تكديس المزيد من الملابس والكتب! وأنا أنصحه بالاكتفاء، فله بيت هناك أيضاً، وبه كل شيء ولا يحتاج إلى نصف ما بالحقيبة.. ولكنه لا يقتنع ابداً، ويصر على حشوها و(تستيفها)!

بعد ان انتهينا من الحقيبة، أخذنا فترة هدنة، وبدأ الدكتور يملي عليَّ المهام التي ساقوم بها في غيابه: فهناك كتابين في دار الهلال والمجلس الأعلى للثقافة يجب أن أتابعهما إلى أن يصدرا، وهناك مقال سيرسل لي على الفاكس في بيتي كل ١٠ أيام من أجل مراجعته والذهاب للأهرام به لمقابلة الدكتور أحمد القرعي شخصياً لتسليمه، وهناك بوسطة. بريد يجب أن أمر على البيت (يومياً) لأتابعه وأحتفظ له به. أفتحه وأقرأه وأرد على ما يستحق الرد العاجل وأحتفظ بالباقي لأخبره به عندما يتصل بي. إضافة للصحف التي سأخزنها له إلى أن يعود. ٤ صحف يومياً. بعد أن آخذ منها القصاصات التي أرى أنها لازمة للعمل، وليقرأها هو بعد ذلك، وهناك فواتير التليفون!

صرخت: ومالي أنا وفواتير التليفون؟ أنا مساعد علمي يا دكتور.. ولست محصلاً!

انفعل صارخاً بدوره: أنا قلت ستدفع الفواتير ولا أريد ولا كلمة! أنت مساعد علمي وتليفوني أيضاً!

- الأمر لله. وأين السنترال الذي سأدفع فيه؟

- سنترالين! سنترال مصر الجديدة في جسر السويس للتليفون العادي، وسنترال التليفون الدولي في الكوربة.

- حسناً.. وماذا أيضاً؟

- هناك رسائل وكتب سأتركها لك لتسلمها إلى أشخاص عديدين. أمين هويدي، ود. ليلى عنان، ود. ألبير فاتوس، ومجلس الشئون الخارجية، ورئيس تحرير الهلال، ود. جابر عصفور، ود. نادية مصطفى عميد سياسة واقتصاد، وعبد العال الباقوري، وكامل زهيري، وصلاح الدين حافظ، ونادي السيارات، وجمعية الجيل، والسفير أمين شلبي، وعبد الرؤوف الريدي،...

- ستكون قد رجعت قبل أن أنهي هذا كله!

- لا أريد كلمة.. سامع؟

- !

- وتفتح لي الفاكس ساعة يومياً من الساعة التاسعة للعاشرة مساءً. لا تجعلهم يشغلون التليفون لديك في البيت. سواء أرسلت لك فاكسات أم لا.. دعه مفتوحاً هذه الساعة.

- أوف!

- وتعطي للبواب أجرته الشهرية، وتتابع مقالي في الأهرام، ولا تغلق موبايلك أبداً.. حتى وأنت نائم! هناك فروق توقيت يا أستاذ!

- أريد أن أعرف ما هي وظيفتي بالضبط معك؟

- ولا كلمة!

-.............!

- والآن.. تعال نستريح قليلاً... نتعشى، ثم ترى ماذا سنفعل!

نهضنا بعدما أغلقنا الحقيبة على ما بها من اكتظاظ، وقفنا في المطبخ نعد العشاء. كان لكل منا طبق واحد به شريحة جبن رومي واحدة، وقطعة جبن أبيض صغيرة بلا ملح ولا دسم، ثلاث زيتونات، وقطعتي خبز (ربع رغيف) لكل منا! رحت أتأمل الطبق وقد شردت وأنا أتمتم متحسراً مستغفراً الله العظيم دون أن أنتبه لمن وقف ورائي يحدق إليَّ، رأسه أعلى كتفي!

فجأة انفجرت عاصفة مدوية في أذنيَّ:

- لو لا يعجبك الأكل.. تفضل لتأكل في الشارع!

- وهل أنا اعترضت؟

- اعترض! أنا أريدك أن تعترض حالاً لتعتبر نفسك مرفوداً من الآن!

- طيب ما رأيك أن تعفيني من العشاء. سأتعشى في بيتنا.. وسأمر عليك صباحاً من أجل المطار!

- أنا قلت ستتعشى هنا يعني ستتعشى هنا. أنا أعرف الطعام الصحي. طبعاً تريد الذهاب إلى البيت لتتعشى كوارع وفتة! ثم تنام كمن دهسه قطار ولا تستيقظ في موعد الطائرة! يعني تريد أن تفسد لي كل شيء!

- خلاص يا دكتور سأتعشى معك.

- تتعشى وأنت سعيد! ابتسم، أنت تأكل طعاماً فاخراً!

- طبعاً!

- لا تقل طبعاً.

- طيب.

- ولا طيب!

خرست!

دفعت العربة ذات العجلات الأربع أمامي مستسلماً بعدما وضعنا عليها الطبقين، وأنا أسبقه إلى الصالون حيث مقعدنا أمام التليفزيون، سنشاهد نشرة الأخبار الصينية كالعادة ولا شك (لا أفهم ولا كلمة منها!) وبعدها نشاهد الأوبرا، ثم سيدلف للنوم.

وكان هذا ما حدث بالضبط. وعندما تأهب للنوم استأذنت منه وتوجهت إلى منزلي.

نمت نوماً قلقاً، خشية ألا استيقظ في الموعد، ظل السائق يرن عليَّ كل ساعتين لينبهني خشية أن أغفو، ويؤكد لي أيضاً أنه مستيقظ. فأرد له الرنة بأفضل منها! كنا كجنديَّ مرابطة أو إشارة بينما الدكتور في سابع نومة.

في الصباح كنت أمام باب الشقة أنتظر بعيون محتقنة محمرة من عدم النوم أن يفتح لي، فتح، رآني مشدوداً مرهقاً.. فدعاني لشرب القهوة، شربت معه، بينما راح يرتدي ملابسه وأنا أتمم على إغلاق محابس المياه والغاز، وأفصل مكابس الكهرباء عن الشقة بأكملها عدا غرفة المكتب لأن بها الفاكس، فلا بد من تيار.

انتهت كل الإجراءات، فأخذنا المصعد إلى الدور الأرضي، ومنه إلى السيارة، التي راحت تنهب الطريق إلى المطار الذي لم يكن بعيداً عن بيت الدكتور.

في المطار كنت حزيناً وأنا أجرجر الحقيبتين إلى حيث عربة الحقائب المخصصة ذات العجلات، كدست فوقها الحقيبتين، إضافة لحقيبة كتفه، ورحت أدفعها إلى حيث صالة السفر، لم يكن في يده سوى حقيبة الأدوية. بينما عانقه السائق المخلص، وجلس في السيارة منتظراً. دخلنا إلى صالة السفر، وأمام ضابط البوابة رحت أرص الحقائب على السير الذي سينقلها إلى الجهة الأخرى حيث تخليص إجراءات السفر، انتهت المهمة، فرحت أعانق الدكتور..قال لي وهو يدفعني من كتفي بعيداً ويتحرك نحو البوابة بنفاد صبر: خلاص.. خلاص! هتوحشني.. بالله مع السلامة!

(حتى في هذه اللحظة لا يريد لأحد أن يتعاطف معه!)

تركته وظللت ألوح له من وراء البوابة الزجاجية، وهو ينهي إجراءات السفر، قبل أن يراني فيشير لي وتبتلعه الطرقة المفضية إلى الصالة الثانية التي لا يراها المودِّعون. حيث الأتوبيس والطائرة.

رجعت بين الزحام والسائرين في طريق الدخول، وبين الخارجين والعائدين. زحام!

كان الجو بارداً.. وكنت أرتعش. صارت الثامنة صباحاً والشمس مختفية خلف غيوم ديسمبر. المطار ضبابي المشهد والهواء ثقيل وبارد كالرصاص أيضاً!

ركضت نحو السيارة. رحت أنقر على زجاجها ليفتح لي السائق النابه الذي كنت أسمع شخيره عبر الزجاج المغلق!

*

جلست في المساء بجوار الهاتف مترقباً شارداً، أنتظر رنينه في أية لحظة، طلبت من أمي أن تعد لي فنجان قهوة آخر، فربتت على كتفي، وذهبت إلى المطبخ.

نهضت أنظر من النافذة إلى شارعنا الضيق، وأراقب نزول المساء على البيوت والنوافذ المغلقة. بعض أولاد يلعبون الكرة في الشارع غير مبالين بالسيارات التي تمر بين الوقت والآخر قاطعة "ملعبهم"، وأصحاب المحلات المعترضين. ظللت بضع دقائق أتأمل كل شيء حتى شردت تماماً.

قطع الصمت فجأة رنين الهاتف المرتفع، جريت من الشباك والتقطت السماعة.

- آلو!
- آلو... حمزة.. أهلا، أنا وصلت.
- حمد الله على السلامة يا دكتور، وصلت بخير؟
- نعم.. أنا في مطار أورلي.
- هذا غير مطار شارل ديجول؟

(انفعل وصاح)

- وانت مالك؟ المهم أني وصلت.. هل تعرف باريس أيضاً؟ هل تريد أن تتطقل عليَّ حتى في باريس؟
- لا والله.. أبداً.. حمد الله على السلامة.

(دخلت أمي بالقهوة.. ووضعتها على مكتبي وهي تبتسم وتنظر لي وتهز رأسها.. وذهبت) قال:

- أنا الآن سأذهب إلى البيت، سأستريح اليوم، كان السفر متعباً، وغداً أرى ماذا يمكنني فعله في شأن المستشفى.

- طيب يا دكتور.. استرح يا عزيزي، وأنا في انتظار أن تطمئنني عليك. سأتصل بك أيضاً.

- عموماً لن أغيب أكثر من أسبوعين، فقط أجري العملية، وبعدها احصل على نقاهة قصيرة وأعود.

- ترجع بالسلامة يا دكتور

- مع السلامة إذن!

- مع السلامة.

أغلقت الخط، وأنا أنظر للهاتف وأفكر.. عملية! وهل سيستطيع أن يذهب للمستشفى بمفرده ويجروا له عملية؟ كان يطلب عوني حتى في صعود السلم!

أخذت أفكر، وأنا أدعو له في أعماقي.

تناولت فنجان القهوة، وأخذت أرشف منه على مهل.

*

ارتفع رنين الهاتف، فتناولت السماعة.

- آلو.. حمزة.

- صباح الخير يا دكتور.

- أنا اتصلت بالمستشفى وحددوا لي موعداً للعملية يوم الاثنين القادم.

- بسرعة كدا؟

- أيوة، بعد ثلاثة أيام، تصور؟

- عظيم.. مبروك.

صاح منفعلاً:

- مبروك على إيه؟ انت شفتني عملتها؟

- يعني أقصد.. إن شاء الله مبروك.

- وإن لم يشأ؟! أموت يعني؟

- يا دكتور ماذا تريد الآن؟

- أريد أن أرفدك، أتمنى!

- طيب.. اعمل العملية، وبعدها نرى هذا الأمر، ما رأيك؟

- حسناً، موافق. عموماً اتصل بي يوم الاثنين ليلاً، أكون أجريت العملية، اتصل لتطمئن عليَّ، فهذا الواجب!

- حاضر!

- وسلم على مصر.

- يوصل

أغلق الخط.

ذهبت إلى البلكونة، وجلست أتأمل الناس والبيوت في سكون، ولا أفكر في شيء سوى الدكتور.

*

يوم الاثنين..

لا شيء سوى التليفون وجلستي بجانبه، لم يتصل الدكتور..

من الصباح وأنا جالس بجوار التليفون، وصار الوقت عصراً، ولم يتصل. ناديت على أخي الصغير، فأتى من غرفته ركضاً. طلبت منه أن ينزل ليشتري لي كارتاً للتليفون للاتصال الدولي. تبرَّم قليلاً وهو يشكو من الدراسة ومنهج الفيزياء، وهمّ الثانوية العامة، حايلته ومزحت معه، حتى لان، أخذ العشرة جنيهات مني، وذهب، فناديت عليه، أعطيته جنيهاً لنفسه، فلمعت عيناه وضحك، جرى إلى باب الشقة واختفى.

قمت إلى المطبخ لأعد القهوة، تناولت البرطمان من أعلى الرف المعلق على الحائط، ووضعته على الرخامة، استدرت وأخذت الكبريت وأشعلت البوتاجاز، عدت أبحث عن السكر. وجدت أمي واقفة أمام المطبخ تبتسم وهي تنظر لارتباكي. قالت:

- طيب قل لي إنك تريد قهوة!

ابتسمت وقلت :

- لم أرد أن أتعبك.

ضحكت وهي تتحرك نحو الكنكة المعلقة، قالت وهي تضحك :

- على بال ما تنتهي من إعدادها في الكنكة تكون الأنبوبة فضيت! مدبر صحيح!

تركت لها كل شيء، وذهبت إلى غرفتي وأنا أربت على كتفها، جلست على المكتب ورحت أعبث في الأقلام المتناثرة على سطحه، وجدت أخي أمامي واقفاً يلهث. قلت له:

- ألم أقل لك من قبل ألا تصعد السلم جري؟

قال وهو يضع يده على قلبه ويبتسم:

- أنا متعود على كدا! ثم أن الوقت له قيمة يا أستاذ!

(تذكرت واحداً أعرفه يكرر هذه العبارة لي دوماً) أخذت أنظر إلى أخي في اندهاش وأفكر في الصدفة التاريخية! أعطاني الكارت، وجرى إلى غرفته وهو يضحك من التعبير الذي ارتسم على وجهي وأغلق الباب خلفه.

تناولت التليفون وأخذت أطالع رقم الكارت، وأدخلته بدقة، أخذت أستمع الرسالة الصوتية التي تطلب مني إدخال الرقم المطلوب، فطلبت الرقم الذي أحفظه جيداً، بعد لحظات أخذت أسمع الرنين، في الرنة الخامسة انفتح الخط، وطالعني صوت الدكتور ضعيفاً واهناً:

- آلو..

- آلو يا حمزة!

قلت في فرح حقيقي:

- حمد الله على السلامة

- الله يسلمك.

- نجحت العملية صح؟
- أيوة، ولكن أحتاج إلى أسبوعين نقاهة
- بسيطة، خلاص هانت.
- إن شاء الله، سأظل في المستشفى غالباً، ولو تحملت تكاليف الإقامة لهذين الأسبوعين، فليس معي أحد في البيت يساعدني.
- طيب يا دكتور، هذا أفضل شيء، المهم أنك أنهيت العملية بنجاح، والباقي أمره سهل.
- كل شيء عندك أمره سهل! جيل خيبان!
- أشكرك.
- العفو، اتصل بي في البيت دوماً لتطمئن عليّ. سامع؟

ضحكت.. وقلت :

- أكيد.

أغلق الخط وهو يتمتم بما لا أسمعه، ولكني أعرفه جيداً! على العموم لا بأس، المهم أنه انتهى من هذا الهم!

رحت أشرب القهوة التي وضعتها أمي، دون أن أحس بها، في تلذذ واستمتاع، للمرة الأولى من وقتٍ طويل.

بعدها بأسبوعين، كنا في المطار أنا وعبد المنعم، كان واقفاً يتأمل المسافرين ويهز رأسه وهو يحملق في الحقائب المكتظة الذاهبة والعائدة بعينين متسعتين، ويتحسر! ووقفت أنظر في الشاشة المعلقة في صالة الانتظار التي تكشف القادمين، وإنهاء معاملاتهم بالداخل.

رأيت الدكتور.. كان يرتدي معطفاً رمادياً، ويضع كوفية حمراء على رقبته، وكان يبدو عليه الإجهاد وهو يجر حقيبة صغيرة في بطء واضح.

قلت لعبد المنعم: اجهز يا بطل.

أخذ يهندم نفسه ويشد قميصه وياقته ويمسح على شعره، فكدت أضحك وتمالكت نفسي، بينما أراقب الخارجين من صالة الوصول، حتى لاح صديقي الكبير، وما ان رآني حتى أسرع نحوي فاتحاً ذراعيه.

- حمزة.. وحشتني!

ضممته وأخذت أربت على ظهره.. بعدها رحت أبعده برفق حتى أنظر لوجهه وأبتسم له، فظل متشبثاً بي، ورأسه على كتفي، فظللت هكذا..

بعدها بدقائق، كنت أحاول أن أبعده قليلاً وأسلم عليه لنسير معاً، لكنه ظل على هذه الحال.

أدركت لحظتها كم كان وحيداً في غربته وكم تألم وحده!

*

استدعاني الدكتور بعد العصر لأحضر له، كنت قد رجعت من عنده منذ ثلاث ساعات فقط، فاحتججت، وأخبرته بأنني لم أرح أقدامي من طريق العودة من منزله بعد! لم يستمع لباقي كلامي كالعادة وأغلق الخط.

كنت في الطريق بعدها بقليل.. عائداً إليه! المشاهد ذاتها تتكرر خلال اليوم الواحد أربع مرات، مرتين ذهاباً ومثلها في الإياب!

وقفت أمام الشقة، فتح لي الباب، وجدته مبتسماً، ومرتدياً ملابس الخروج.. البنطلون الأسود المعتاد، والجاكت الوردي القاتم، متعطر، وشعره لامع!

- تفضل!

....

اتجهت لمقعدي في الصالون أنظر حولي، منتظراً العجائب والمفاجآت، فقد يكون مسافراً فجأة أو لديه مشوار رسمي لم يخبرني به، وربما يريدني أن أسمع معه موسيقى الأوبرا الصينية، أو..!

فجأة وجدته أمامي يُصفّر!

- يالله نخرج يا بطل!

- أين نخرج؟

- لا أريد نصف كلمة! قلت سنخرج يعني سنخرج!

- طيب! نخرج نخرج.. ولكن أين؟

- لا يهم! المهم أن ننزل من هذا القبو وخلاص! سئمت من الكتابة والعمل، تعرف! أريد أن أصارحك بشيء قد لا تعرفه، بل أكيد لا تعرفه، لأنك لا تعرف شيئاً في حياتك!

- طيب.

- أحياناً يسأم الإنسان الشهرة والتفوق والمناصب ويتمنى لو عاد إلى طبيعة الأشياء، أن يكون كأي إنسانٍ عادي يحب الخروج، والتنزه بين العامة، ويتواصل مع الحياة دون أن يشعر بأن كونه شخصية عامة ومهمة تفقده حياته الخاصة واستمتاعه بالأشياء!

- يا سلام. فعلاً.. معلومة جديدة واللهِ.. إضافة!

- شفت!

....

- هيا بنا نخرج إذن.. أنا لا أريد لهذا (الأهرام) أن يأخذني من الناس! أنا أحب الأماكن والخضرة والناس.. ولا بأس حتى لو استوقفنا البعض ليكلموني، أو رآني الناس أتجول معك.. لا يهم! هذه المرة الأولى التي أنزل فيها لأتنزه بحرية بلا تخطيط.

- عظيم..

- والآن هيا!

نزلنا!

لم أكن أعرف إلى أين سنذهب.. ومن الواضح أن الدكتور أيضاً لم تكن لديه خطة، توقعت أن يقترح عليَّ المعادي مثلاً.. فهو يحبها، أو أن نذهب إلى نادي هليوبوليس أو نادي الشمس بمصر الجديدة فقد كان عضواً في كليهما، ولكن بمجرد أن وقفنا على باب العمارة حتى فوجئت بالدكتور يهتف.. (وأخيراً)!

- أخيراً ماذا يا دكتور!

- الميريلاند.

- مالها؟

- سندخلها.. هذه المرة الأولى التي أدخلها منذ ١٥ سنة!

- ١٥ سنة ؟

- نعم.. لم يكن لديَّ وقت، ولا اهتمام! كنت أرى الناس من بعيد لبعيد، كما كنت أراهم طيلة حياتي!

- طيب.. على العموم فكرة جيدة، نتنزه فيها ونتمشى قليلاً.

- يا سلام! ما أجمل الطبيعة، الواحد سئم العمل والشهرة!

عبرنا شارع نهرو إلى جوار سور الميريلاند متجهين إلى الجهة الأخرى منها المطلة على شارع الحجاز، رحت أقطع تذكرتين، فأوقفني الدكتور وطلب مني أن أتركه ليقطع هو التذاكر فهذا اليوم (له هو) كما أخبرني! تركته يتصرف بحريته.. اتجه إلى شباك التذاكر بخفة لم أعهدها فيه من قبل، وهو يصفر لحناً منغوماً، وقف أمام الموظف، لم يكن هناك أحد على الشباك سواه.. فانتظرت أن يقطع التذاكر ويعود، إلا إن وقفتي طالت، ولاحظت – وأنا واقف على مسافة بعيدة عن الشباك – أن حواراً بدأ يطول بين الدكتور وموظف التذاكر! اتجهت إليهما لأفهم ماذا يحدث. كان أول ما سمعت بمجرد اقترابي من الشباك أن سمعت الموظف يصيح في الدكتور:

- مصري.. والله العظيم مصري!

- لا.. أنت لست مصرياً تماماً! عيناك ملونتان قليلاً، وتكوين جبهتك ليس من السلالة التي استوطنت الوادي، أنت لك جذور آرية أو تركية.. صح؟

- مش عارف!

- أنا قلت تركي يعني تركي!

تدخلت فوراً.. (خلاص يا دكتور.. تركي تركي.. ولكن دعنا نأخذ التذاكر ونمضي!)

- هذا جهل!.. واحد لا يعرف تاريخه السلالي، كيف يعمل موظفاً إدرايا في أقدم كادر دولة عرفت التنظيم منذ فجر التاريخ؟!

- يا دكتور خلاص! أنت قلت إن هذا اليوم سيكون مختلفاً وستستريح فيه من عناء الفكر قليلاً، وتعيش بحُريَّة، صح؟

صمت ولم يرد، أخذ يتمتم شيئاً في ضيق وهو يشيِّع الموظف المسكين بنظرات سخط! قطعت التذكرتين من الموظف الذي وجدته مندهشاً يحملق في الدكتور وفيَّ بعينين متسعتين!

عدت له بالتذاكر ودخلنا الحديقة.. بمجرد أن عبرنا بوابتها حتى صاح :

- شُفت؟ جهل!

- خلاص يا دكتور.. قلنا ننسى.

وضع يديه خلف ظهره وشبك أصابعهما معاً وسبقني بخطوات خفيفة تجاه الممر المفضي إلى المساحة الواسعة الكبيرة من الخضرة!.. هذا الوضع لا يطمنننى عندما يشبك أصابع يديه خلف ظهره ويسير كمن يتأمل شيئاً أو يحلل شيئاً!

لحقته!

- إيه يا دكتور!

- هل تلاحظ أن الحديقة ليس بها سوى عشاق؟ مراهقين ومراهقات، وطلاب هاربين من مدارسهم المسائية مع زميلاتهم!

- وبها مخبرين كمان!

حدجني بنظرة ساخطة فصمتّ.

- تعتقد ما تفسير هذا سوسيولوجياً؟

- يا دكتور ولا سوسيولوجياً ولا يحزنون، البلد بها بطالة، والشباب عاجز عن الزواج، والبنات لهن رغبات، فينفسون عن أحلامهم المختلسة هنا في الخفاء!

- اسكت يا جاهل! أنت تستسهل التحليل.. لو كان الاجتماع البشري يُحلل هكذا لما أتعب ابن خلدون أو إيميل دوركايم نفسيهما!

-......................!

سبقني قليلاً مرة أخرى إلى أحد المقاعد الحجرية المطلة على الخُضرة، جلس، شبك يديه على ركبته وأخذ يصفر وقد رفع ركبته قليلاً إلى مستوى صدره، لحقت به وجلست بجواره، راح يتأمل رواد الحديقة، التي كانت بها بعض الأسر أيضاً. كنا في نهاية النهار والعشاق والمراهقون يأخذون أماكنهم تحت الأشجار هاربين من عيون المخبرين وعاملي البوفيه الذين كانوا يتلصصون عليهم لمقابل المخبرين، أو يفاجئونهم وهم يختلسون قبلة أو يحيط فتي كتف فتاته تحت شجرة، فينهرونهم، أو يأخذون منهم ثمناً مضاعفاً للشاي أو المياه الغازية، من أجل كف لسانهم وعدم إحراجهم، وربما بمضاعفة الثمن ضعفين أكثر يكفوا المخبرين عن الاتجاه نحوهم أيضاً..!

- الجو جميل!

(تاني)!!

- نعم.. فعلاً.

-لا بد للإنسان أن يغير نشاطه ونظامه بين الحين والآخر من أجل الابتعاد عن الملل. حتى القمم يُملُّ منها! أنا أكتب في جريدة توزع مليون نسخة يومياً بخمس لغات، الناس كلها تقرأني وترى صورتي، والآن أحن إلى هذه الجلسة المشمسة في هذه البقعة الخضراء.. بلا شهرة ولا قمم.

- نعم!

اقتربت امرأة منا ومعها فتاة شابة، يسيران معاً وراحا يتأملاننا.. كان فينا شيئاً ملفتاً للعابرين، ربما لأن فارق السن يجعل كل من يراني أنا والدكتور يتخيلانا جدٌ وحفيده!

أو ربما لأن ملامحه بعيدة للغاية عني، أو لأسباب أخرى لم أعرفها أبداً .

اقتربتا منا، وعلى وجهيهما فضولٌ بادٍ..

نظرت بجانب عيني للدكتور فوجدته سعيداً مبتسماً.. حادثني همساً:

- شايف! هؤلاء أكيد من قارئاتي في الأهرام.. يعرفن صورتي. أمّال!

كانت المرأة وابنتها لا تشي ملامحهما بأنهما من القارئات أصلاً.. دعك من كونهما من متابعات الصحافة، أو القارئات للتحليل الاستراتيجي للدكتور..شكلهما شعبي للغاية، وفيهما بساطة واضحة.

- نعم... ولكن ينظرن لي أيضاً بتمعن.. هل انا أكتب في الأهرام؟

- لا أريد لماضة!

جاءتني فكرة، فنهضت إلى المرأتين، وكانتا ماتزالان تنظران لنا وتهمسان بينما تورد وجهاهما ابتساماً، كانتا تبحثان عن مقعد تجلسان عليه ولا تجدان (أو لعلهما كانتا تتظاهران بذلك)! نهضت لهما، ودعوتهما للجلوس مكاني.. بدتا حائرتين، وراحتا تنظران لبعضهما في ارتباك وعلى وجهيهما البسمة نفسها.. قلت لها على مسمع من الدكتور:

- تفضلي.. تفضلي.. هذا هو الدكتور... الكاتب الشهير.

نظرت لي كمن لم يفهم شيئاً مما قلت، وقالت لي:

- "مين يا خويا؟"

- الدكتور (.......) الكاتب الكبير بالأهرام

-......................!

- الا تعرفي الدكتور؟ ألا تقرأي الأهرام؟

- أقرأها. أقرأ حظك اليوم والحوادث.. وأعرف مواعيد المسلسل كمان!

حادثت المرأة الأخرى: وأنتِ.. ألا تقرأين الأهرام؟

- لا!

نظرت للدكتور.. وجدته يحدّق فيَّ كمن يضمر لي مصيبة! فجأة انتفض ناهضاً كالملسوع وهو ينظر للسيدتين بسخط بالغ.. ويردد.. " أنا قلت كدا من الأول... دول وش أهرام دول؟ " يالله بينا!

استمرت المرأة والفتاة في النظر لنا باندهاش، أخذت أنظر خلفي لهما بينما ألاحق خطوات الدكتور المبتعدة عن المكان بأكمله، لمحت الفتاة تشير للمرأة إشارة وقد أدارت سبابتها بجوار رأسها في حركة معناها مفهوم وهي تشير إلينا! سرت مبتسماً.

لم يهدأ الدكتور بعد هذا الموقف...

أخذ يلف الحديقة على قدميه... وكلما وجد تجمعاً أو أسرة أو ناسا يسيرون يتمهل أمامهم قليلاً ويأخذ في إبراز نفسه أمامهم، مرة يتظاهر بأنه يصفر لحناً منغوماً ولا ينتبه لهم، ومرة بالوقوف في وجه سيرهم، ومرة في الجلوس بجوارهم فجأة فينظرون له في دهشة! كان يريد من أي إنسان أن ينتبه له.. أن يندهش ويهتف: " هل هو بجلالة قدره، الكاتب الكبير بيننا؟ ".. لكن هذا لم يحدث!

وكنت متابعاً لكل هذا من بعيد..كاتماً ضحكي ومتظاهراً بعدم فهمي لما يفعل!

كنت أشعر بعطف شديد تجاهه، رغم علمي المسبق أنه إن لم يجد النتيجة التي يبحث عنها من الناس فسيتحول كل هذا الزهو وهذا التأكيد على (الشهرة) والتفوق إلى سخط سيصب على رأسي بمفردي!

وقد كان!

فبمجرد أن حل الظلام، صارت الساعة التاسعة تقريباً.. خلت الحديقة من الأسر والطلاب، إلا من بعض العشاق المتناثرين سراً في ثنايا الحديقة المظلمة، ساد الظلام والبرودة، وفوجئت بالدكتور ينظر حوله في الأفق ويصيح بي: ما الذي أتى بنا إلى هنا؟

- أنت يا دكتور!

- ولماذا نزلنا إلى هذا المكان المليء بالجهل أصلاً.. من الذي اقترحه؟ أنت طبعاً.

- لا يا دكتور.. أنت الذي قلت إنك تريد أن ترى الميريلاند بعد ١٥ سنة من انقطاعك عنها.

راح ينظر إليّ في سخط وغضب بعدما قطعت عليه الطريق لتعنيفي... فجأة نهض متجها نحو باب الخروج... فظللت جالساً مكاني برهة مطرقاً في الأرض أزفر، وأنا أتأمل ما حدث.. قبل أن أنهض وأركض باتجاهه لألحق به، لحقته على الباب.. كانت ملامحه غاضبة للغاية.. فجأة قال لي: - غريبة... كل من صادفناهم اليوم لا يقرأون الأهرام. هل هناك ارتباط سوسيولوجي بين من يزورون الميريلاند وعدم قراءتهم للأهرام!

نظرت إليه مبتسماً... فوجدته ينظر لي وفي عينيه تساؤل حقيقي عن الأمر، فانفجرت ضاحكاً.. لم استطع هذه المرة السيطرة على نفسي فاستغرقت في الضحك وأنا أمسك بطني.. فجأة تحول انتظاره لردي إلى اندهاش، ثم إلى غضب...

- علام تضحك؟ أنت جاهل مثلهم أصلاً.

- أنا آسف.. ولكن...

- هيا اذهب.. انتهى العمل خلاص! لا أريد أن أراك اليوم.

- يا دكتور اقتربنا من العمارة..دعني أصعد معك السلمات الأولى فقط، ثم أتركك على باب الأسانسير ولن أطلع الشقة ..

- قلت اذهب يعني اذهب! شوف لك ميكروباص! لا تريني وجهك قبل الغد، قبل أسبوع حتى!

تركته وذهبت...

قبل أن أخطو بضعة خطوات في الشارع سمعت من يصيح : - إنت يا بيه إنت.. تعال هنا..هل سأصعد بمفردي أم ماذا!

*

كانت الشغالة تتحرك في الشقة كالنحلة في ذلك الصباح، تكنس وتمسح وتعد الطعام على النار، بينما الدكتور يغلق على نفسه باب الحجرة ليقرأ ويكتب، كنت أنا الضائع في هذا كله لا أعرف أن أميز القصاصات وسط ركضها بين المجلات على الأرض، وبين التراب الذي خنقني، وروائح الطعام تاهت في نظري قصاصات المجلات وأسماؤها.. اللوموند والإكيونوميك ريفيو أوف بوكس والهيرالد تريبيون.. إلخ..

نهضت ساخطاً... واتجهت إلى الدكتور في المكتب، طرقت الباب.

- لا تدخل! ماذا تريد؟

- لا أستطيع إكمال العمل هكذا.. نحن في جهنم!

- ادخل!

دخلت وأغلقت الباب خلفي.. كان منهمكاً في إعداد كتابه الذي سيصدر عن المجلس الأعلى للثقافة في مشروع الألف كتاب.

- نعم يا مزعج؟ ماذا تريد يا كسول أفندي؟ الطقس لا يعجبك؟ الشقة لا تعجبك؟

- أبداً لا سمح الله.. ولكن الضوضاء وصوت الغسالة والمكنسة والتنفيض وروائح الطعام. مش عارف اشتغل! ممكن أن أجيء ليلاً.. وأكمل العمل.

- لا.. لدينا ضيف سيأتي اليوم.. هل ستتركني أقابله بمفردي؟

- ضيف؟ وهل يزورك ضيوف؟

- ماذا تقصد؟

- لا لا.. لا شيء، ولكن وحتى لو عندك ضيف، ما شأني أنا بالأمر، وما معنى وجودي بينكما؟

- قلت ستبقى.. سامع؟ أنت مساعدي.. ويجب أن تكون في استقباله.

- الأمر لله... ومن هو؟

- هذا صديق قديم.. محامي..كان يعمل باليونسكو.. من عمري تقريباً.. زميل دراسة.. أنا أحبه للغاية... ساكن في الجيزة، سيتناول الغداء معنا.

- آه... طيب والشغل؟

- أجِّله للغد.

- حسناً.

تركته ورجعت إلى الصالة، طلبت من الشغالة، وكانت امرأة أربعينية أمينة وطيبة للغاية أن تطفيء المكنسة الهادرة رحمة بأعصابي، وأن تعد لي فنجان قهوة. فاطفأتها.. وذهبت للمطبخ.. جلست وسط عملية الهدم والبناء التي تحدث في البيت مرتين أسبوعياً كلما أتت الشغالة، (الشلت) على الأرض، والكتب والمجلات، والمفارش ملقاه بعدم ترتيب على الكنبة والكراسي، التراب يملأ الصالة، المياه تغرق الطرقة الموصلة إلى الحمام وغرفة المكتب وغرفة النوم، وروائح الطعام تشتت الذهن!

عادت الشغالة بالقهوة، فأخذت أرشفها على مهل.. بينما أخذت هي المنفضة وراحت تلمس بها الأشياء العتيقة على الجدران وفي المكتبة، صورة الدكتور وعمره ثلاث سنوات مع امرأة جميلة (والدته)، صورته في نفس السن وهو يرتدي بدلة فخمة للغاية مع المرأة نفسها وقد ارتدت هي فستاناً زاهياً ووضعت على رأسها قبعة رقيقة للغاية، بينما وقف الوالد في الجانب الآخر.. مبتسماً قوي الملامح...

صورة ثالثة للطفل على سطح بناية.. عمره بين العشر سنوات والاثنتي عشرة سنة!

لاحظت أن الشغالة تأتي عند هذه الصور فتتمهل للغاية وتنظفها بعناية ورفق شديدين، فقد حذرها الدكتور من أن يحدث أي شيء لهذه الصور، وحذرني أنا أيضاً من أن ألمسها حتى!

رحت أشرب القهوة وأتابع الشغالة التي أخذت تنفض التراب عن كل شيء.. الكنبة العتيقة، التي أخبرني الدكتورأنه اشتراها في الأربعينات بعدما رأى تشرشل يجلس على مثيلتها أثناء

إدارته للحرب العالمية الثانية، فدخل في نفسه أن هذه الكنبه أحد عوامل نجاح تشرشل في الحرب العالمية، وأنه بفضلها غيَّر العالم، فاشتراها..

ثم اللوحات الزرقاء لمونييه، ولوحة كبيرة للأهرامات الثلاثة لم أتبين توقيع رسامها، لعله (أحمد صبري) وصورة شهدي عطية الشافعي المبتسم بثقة، وزجاج الفراندة، والتكييف الذي يتعطل بعد أيام من تشغيله، والمنضدة الكبيرة التي صارت مكتباً لي، والأركان البعيدة التي خزَّنَ فيها شرائط كاسيت قديمة تحوي سونيتات ومقطوعات موسيقية، وأقراص كمبيوتر للموسيقى أيضاً،والتليفزيون ذي الأربعين بوصة، وجهاز الاستقبال (الريسيفر) والنجفتين، والأباجورتين.

انتهت القهوة، وبعدها بفترة انتهت الشغالة من العمل...

عاد كل شيء مُرتَّباً ونظيفاً، وخرج الدكتورمن مكتبه، وجلس معي...

حدثني فيما سنفعله في الأيام القادمة من أجل صدور كتابه عن المجلس الأعلى للثقافة، رحت أدوِّن المطلوب في ورقة وهو يمليني، بينما اقتربت الساعة من الثانية، ومن موعد الأستاذ المحامي.

في الثانية وعشر دقائق رن جرس الباب، فسبقت الشغالة وفتحته، وجدت أمامي رجلاً قصيراً نحيلاً للغاية، كبير السن، ثمانيني غالباً، يغلب على مظهره الضعف والطيبة.

- أهلاً وسهلاً... تفضل..

راح ينظر لي بابتسامة واستغراب لأنه لا يعرفني، ويعرف أن لا أحد يعيش مع الدكتور، سبقني صوت الدكتور مجلجلاً من بعيد قبل أن ينهض لاستقباله..

- يا أهلاً.. إيه النور دا ؟

- ياه.. وحشتني جدا .. بس كبرت كدا ليه؟

(يا سلام)!

- إنت اللي كبرت.. أنا لسه شاب وسأظل!

التفت إليَّ وأشار له ناحيتي.. «بالمناسبة... من هذا الشاب؟»

- هذا مساعدي.. حمزة.

- أهلا وسهلاً يا إبني.

- أهلاً بحضرتك.

كان الضيف قد أحضر معه لفافة فضية عليها علامة محل حلويات شهير في وسط البلد، وضعها على المنضدة في وسط الصالة واتجه إلى الصالون، بينما بادره الدكتور:

- ليه التعب دا بس؟

- ولا تعب ولا حاجة... لم آت بيتك منذ سنين.. حاجة بسيطة.

ضحكا... وأخذا يتحدثان عن السياسة وعن عمرهما وذكريات الطفولة، وذكريات مدرسة الجيزويت والحبس الداخلي الذي كان يقع عليهما أحياناً بها ويضحكان ومباريات الكرة.. وهذه بالذات كانت تأخذ وقتاً طويلاً من الحوار حينما يعيد الدكتور ذكرياته مع النادي الأهلي الذي لعب به لفترة قصيرة، مع الضظوي ومختار التتش وصالح سليم، كان يردد لي هذا دائماً، فأخذ يعيده على مسامع المحامي الصديق ويتحدثان عن رفاقهما وأين ذهبوا وماذا يفعلون...

لم يكن لي دور في هذا الحوار بأكمله.. فلم أكن قد أتيت للحياة أثناء تكوُّن هذه الذكريات بنصف قرن! صمتُ مبتسماً..

بعد فترة توقف الدكتور عن الكلام... وراح يحوِّل بصره بعيداً.. فعرفت أنه قد ملَّ الحوار، وكنت أعرف أنه لا يتحمل الود والاجتماعيات لأكثر من ساعة على الأكثر، طلب مني أن أحث الشغالة على إنهاء الغداء، فتوجهت إليها وأخبرتها...

عادت من المطبخ لتفرد أمام كل واحد منا منضدة صغيرة يتم ثنيها وتطبيقها عند الحاجة! وفرشت فوقها مفارش من الخوص لتضع عليها الطعام...

بينما كانت تفعل ذلك، نهض الدكتور فجأة ومشى في الردهة.. قبل ان يتجه يميناً إلى المطبخ ويختفي به! بعد لحظة سمعته يناديني بصوت مرتفع! فاستأذنت من الضيف وذهبت له..

وجدته واقفاً في المطبخ يتأمل أواني الطعام.. ففكرت أنه يريد أن (يتمم) على الأكل بمفرده، كنوع من الاهتمام الزائد بالضيف...

مال عليَّ وسألني..

- هل فتحت اللفافة التي أحضرها الضيف معه؟

- لا... لماذا؟

- أخشى أن يكون بها شيئاً مؤذياً!

- مؤذي؟! هذه لفافة حلويات كما يتضح من اسم المحل الذي اشتراه منها!

- ومن أدراك يا فالح؟ ربما تكون مسممة! ربما يريد أن يقتلني.

- يا دكتور حرام عليك.. هذا الرجل الذي يلتقط أنفاسه بصعوبة كان المشوار الذي أتى لك منه من الجيزة لمصر الجديدة ليراك كفيلاً بقتله هو! ثم إنك أنت الذي عزمته.. صح؟

- لا... هو الذي طلب رؤيتي!

- ولو! هذا ليس معقولاً.

- أنت ساذج! طيب وطيبتك هذه ستفعل بك الأفاعيل! وافرض أنها حلويات فعلاً.. فمن أدراك أنه لم يتعمد أن يجعل نسبة السكر فيها أعلى من المحتمل فيختل عندي السكر وأموت!

- يعني ماذا تريد الآن يا دكتور؟ عاوز إيه؟

- أنا شاكك أن هذه الحلوى مسمومة.

- وأنا واثق أن هذا كلام بلا صحة.

- خلاص.. دعنا نجرب... نفتحها ونرى!

- الرجل يجلس بمفرده، والشغالة تجهز السفرة. ونتركه أنا وانت لنعمل اختبارات على الحلوى هنا؟

- قلت اذهب للصالة واحضر الحلوى!

- طيب...

خرجت للصالة واتجهت إلى المنضدة التي ترك الرجل الطيب عليها اللفافة، نظرت له فوجدته ينظر لي بدهشة وترقب، فابتسمت له بدون أن أنطق، وحملت اللفافة وأنا لا أنزل عيني

من على وجهه، فازدادت نظرته حيرة، بينما اتسعت ابتسامتي له وأنا أنسحب باللفافة إلى المطبخ وأنا محرج للغاية.

- تفضل يا دكتور... ها هي الحلوى!

- افتحها!

فتحت الشريط الاحمر الرفيع الذي يلفها، وأبعدت ورقها المفضض، وغلاف البلاستيك الرقيق الذي علا سطح الحلوى، وكشفتها. أصابع كنافة بالفسدق فاخرة. الفسدق طازج وأخضر، والعسل يسيل من جنباتها، دافئة وكأنها انتُهيَ من إعدادها فوراً!

- هاه! ما رأيك الآن؟ عرفت أنك ظلمت الرجل ؟

- يالله.. تذوقها لتتأكد أنها مسمومة!

- أتأكد؟ ساموت لو أنها كذلك!

- آه صحيح...! طيب ما العمل؟

- تذوقها أنت لتتأكد!

- ولا كلمة!

- طيب يا دكتور.. شقيقتي لديها معمل تحاليل في المستشفى الذي تعمل به... ما رأيك أن نأخذ الحلوى ونعطيها لها لتحللها؟

- اقتراح معقول... يبدو أنك تفكر أيضاً!

- عظيم... خلاص... تعال نرجع إلى الرجل، ثم نرى موضوع الكنافة هذه لاحقاً.

عدنا إلى الضيف فوجدناه ينظر من النافذة إلى الحديقة، وقد كسا وجهه الضيق، فمازحته: " عفواً.. فالدكتور يحب أن يطئمن على الطعام بنفسه في حالة الضيوف الأعزاء فقط "!

جلسنا إلى الطعام، وأكلنا بشهية مفتوحة، وكان الرجل مقلاً في الكلام، والدكتور أيضاً، وبين الحين والآخر كانت تدخل علينا الشغالة لتسألنا إن كنا نريد أي شيء، فكان الدكتور يشكرها. رفعت نظري إليها في المرة الثالثة لحضورها، فوجدتها شاحبة للغاية. راودتني فكرة ما لم أكن متاكداً من صحتها، وعندما أطلت للمرة الرابعة تسألنا الأمر ذاته نهضت ودخلت عليها المطبخ فوجدتها ساهمة، جالسة على المقعد مربعة يديها، كان الجوع والإرهاق باديان عليها بينما حولها أوعية اللحم والأرز والخضروات. طلبت منها أن تعد لنفسها غداءً مما نأكله.. فنظرت لي مرتابة مشككة.. قلت لها إن الدكتور هو الذي يطلب منها ذلك وأخبرني بإبلاغها.. فقالت لي: «مش معقول»! فاقنعتها مكرراً.. وأن هذا على مسئوليتي.. فظلت شاردة قليلاً، ثم نهضت وتناولت طبقاً من (المطبقية) وأخذت تغرف لنفسها وقد ابتسمت!

عدت إلى الدكتور وضيفه، وانشغلت معهما بالأكل، لم يكن الدكتور يحوّل نظره عن الطعام ليتكلم، وحتى عندما رآني عائداً من المطبخ لم يسألني ماذا كنت أفعل!

انتهى الأكل، وبعدها نادى الدكتور على الشغالة لتحضر الزبادي، وبعد أن تناولنا الزبادي سألها عن الفاكهة، وبعد أن تناولنا الفاكهة نادي عليها، فاستوقفته راجياً.. فلم أعد أستطع أن آكل المزيد! فقال ضاحكاً كنت سأناديها لترفع الأطباق وتُنظّف السفرة.

انتهى الموعد. وذهب الضيف... وأنا أيضاً ذهبت إلى منزلي وفي يدي اللفافة المتعبة! بمجرد أن دخلت المنزل، حتى رأتها أمي وسألتني فقلت لها.. لا! لن يفتح أحد هذه اللفافة قبل أن الكشف عليها! راحت تحملق فيَّ قبل أن تتركني ..

دخلت لأختي في غرفتها وشرحت لها الأمر، فضحكت، وقالت لي هل يعقل هذا؟ ثم كيف سآخذ صينية كنافة لأكشف عليها في قسم السونار أو الرنين المغناطيسي والكوبالت؟ سأصير اضحوكة المستشفى! شرحت لها أنني جاد فيما أطلبه وأن هذا مأزقٌ بالنسبة لي، فتأملت الأمر قليلاً وهي تتعجب وقالت: طيب سأتصرف! أصحاب العقول واللهِ...!

في اليوم التالي عادت أختي من المستشفى وفي يدها صينية الكنافة، وابتسمت، قالت لي لا تقلق يا سيدي، الصينية سليمة وطازجة وممتازة، أنا مررت على إحدى زميلاتي في أحد المعامل الخاصة للتحليل وحللتها وتأكدت، بعدما شبعت ضحكاً مني حتى دمعت!

- طيب.. يعني سليمة؟

- جداً، لو لا تصدق.. اتركها!

خطفتها من أمامها واتصلت بالدكتور أحمل له البشرى وأكدت له أن الكنافة سليمة وأن الرجل مظلوم.. فقال لي: يا فالح... سليمة؟ أنت السليم النية! هل تحركت أختك بها في المواصلات وفي العوامل الجوية؟ ووضعتها في الثلاجة ليلة أمس وأخرجتها اليوم؟

- نعم.. طبيعي

- إذن فقد فسدت!

-......................!

- أقول لك: كُلها أنت وسترى أنها تلفت!

أغلق الخط، ففتحت اللفافة وخرجت بها للأسرة، وأكلنا منها جميعاً، وكانت أحلى صينية كنافة أكلناها في حياتنا!

بينما كنا نعمل أنا والدكتور ومنهمكان في كتابة أحد المقالات، رن جرس الباب، قمت لأفتح، فوجدت ساعي البريد يحمل خطاباً مسجلاً، فناديت على الدكتور ليوقع على إيصال استلامه، فأتى ووقَّع. انصرف الرجل، وعدنا إلى المكان المعتاد ننظر في الرسالة الغريبة! كانت من أحد المراكز الإعلامية بدولة خليجية، ذات قناة فضائية شهيرة.. بمجرد أن رآها الدكتور واكتشف أنها من دولة خليجية حتى صاح ملقياً الرسالة بعيداً عنه: - ييييه!

- خير بس؟

- رسالة من مؤسسة (...) من الخليج.

- وما المشكلة... فلنرَ ماذا يريدون.

- أنا لم أتعامل في حياتي مع الخليج، أنا أكره هذه البقعة الغارقة في استسهال الحياة، في الاسترخاء والاستهلاك والبطالة.. إنهم ليسوا دولاً يا ابني.. هؤلاء بدو. جمال وصحاري ومشايخ ونفط بالملايين بدون أن يتعبوا.. هذه ليست كيانات أممية تشكل دولاً.

- ولكنها دول بالفعل!

- مفهوم الدولة يجب أن يستوفي شروط الأمة أو الدولة المركزية، أما الخليج فليس به سوى (كيانات) أوجدها النفط والرمال ومصالح الاستعمار. هؤلاء استثمروا فينا.. في مصر وفي دم أبنائها بعد حرب ٧٣، لم يكن البترول سوى سلعة، فتحول بفضل الجندي المصري عشية

الحرب إلى سلاح، هم اغتنوا وتربحوا وربوا العروش والكروش، ونحن قتل من عندنا عشرات آلاف الشهداء من أجل الوطن والكرامة والمعنى. خليج؟ ما هو الخليج! ثم في النهاية وبعدما دار الوقت صدَّروا لنا قيمهم الغارقة في السلفية والبداوة والجهل، انظر لمظهر المرأة المصرية ستجدها تغطت وتبرقعت بأشكال غريبة جعلتها أقرب للبومة أو الخفافيش! هل هذا يعتبر مرجعية إسلامية أو حضارية؟ أبداً... هذه مرجعيات سلفية قادمة من قيم النفط والصحارى والتشدد والمظهريات التي لا يخالطها روح أو إيمان داخلي، من الذي أفتى للمرأة المتدينة الملتزمة أن تغطي نفسها إلى هذه الدرجة؟ أن تتخيل أن صوتها عورة وحرام؟ شيوخ النفط. المرأة المصرية لم تكن هكذا قديماً، حتى الأربعينات فحسب كانت تغطي رأسها بإيشارب على الموضة مثلاً بينما يظل وجهها ساطعاً مثل البدر، كانت ملابسها محتشمة ولكن بدون مبالغة وتشدد، هذا ما أسميه الهندام.. أما الآن فلم يعد سوى الدروشة.. دروشة النفط.

- يا دكتور.. هل مصيبتنا من البترول في المرأة فقط؟ وهل كان المد الأصولي غافلاً عنا إلى أن حدث الصعود البترولي بعد ٧٣ في البورصة العالمية؟

- لا. ليست مصيبتنا في زي المرأة فقط، وإنما في القيم السلفية التي أشاعها الخليج وكياناته، انظر إلى ما حدث للمجتمع المصري ماذا ستجد؟ ستجد أن منظومة الحياة الاجتماعية والحراك المجتمعي بأكمله قد تأثر بالخليج، عاداته وتقاليده وأساليبه، والمشكلة أننا استوردنا هذه القيم بما عليها من هالة قداسة كاذبة لارتباط الخليج في الأذهان بالسعودية.. وبالشريعة الإسلامية.. هذه السعودية كانت مصر تصدِّر لها قديماً كسوة الكعبة على المحمل، عندما كان هناك إيمان بأن مصر هي بلد الإسلام والآن لم يعد الأمر هكذا! صارت الكسوة تتكلف الآن ٢١ مليون ريال سعودي! لماذا؟ هذا كله بهرج وطقوسية أبعد ما تكون عن روح العقيدة.

ثم انظر كيف أثروا في عاداتنا وفي أبسط تفاصيل الحياة بهذه الوهابية التي في الحقيقة إن الدين الإسلامي منها براء. صرت أتصل بإحدى الهيئات الثقافية فترد عليَّ السكرتيرة بـ (السلام عليكم) بدلاً من آلو! تفتكر لماذا؟ لأن آلو حرام في نظرها! إذا ركبت المواصلات العامة ولم تسمع القرآن.. والقرآن خير في كل أحواله.. فلن تعدم أن تجد واعظاً فظاً يرشد الناس بالترهيب ويسد عليهم منافذ الحياة بصوته الأجش المنفر ولا يريهم من الحياة المتسعة سوى القبر! وهناك النقاب الذي لم أجد آية في القرآن الكريم – وقد درسته بأكمله - تلزم به أو حتى تشير إليه وأنا أتحدث عن النقاب الذي انتشر في مصر انتشاراً غريباً وليس عن الحجاب. أنا أحياناً أذهب إلى ندوات في كليات مرموقة فأفاجأ بالطالبات يرفضن أن يمددن أيديهن بالسلام عليَّ أو على زملائهن البنين لأن ذلك حرام! ما رأيك أنت في ذلك؟ هل هذه مصر؟ هل مُسخت شخصية مصر إلى هذا الحد؟

- طيب ما الذي أدى لاستفحال الأمر لهذه الدرجة؟

- الذي أدى لذلك هو أنه منذ ظهر البترول وظهرت الهجرة المصرية إلى الخليج، وتم تصحير مصر (بعد أن تم تريفها إبان الثورة) بسبب الظروف الاقتصادية القاسية التي عاشتها مصر وتعيشها، صار كل بيت مصري به فرد مسافر للعمل في إحدى دول الخليج، وهذا الفرد عندما يذهب للعمل هناك ويحصل على الرواتب الكبيرة لا يرسلها بمفردها فقط لأهله وإنما يرسل معها القيم السلفية التي سيترعرع وسطها هناك. سيعود ممسوخاً. يرى العالم رجلاً وامرأة وبينهما الخطيئة! وضرورة النقاب وعزل المرأة من المجتمع، وأن المرأة مفرخة.. تظل في البيت

فقط من أجل الخلفة والأولاد وتربيتهم، وتأكل وتشرب خلال ذلك وليس لها حق في شيء. هكذا يراها الزوج السلفي العائد. وبالطبع تشيع الأم هذه الثقافة في بناتها، فيدخلن الجامعة بهذه المفاهيم، مسربلات متغطيات محتقنات، خائفات من العالم ومن البنين من زملائهن، بل ومن صوتهن! وبدلاً من أن تكون الجامعة مكاناً للتحرر الفكري وخلق الشخصية المصرية وإعادة صياغتها، صار الولد أو البنت يدخلانها بقيمهم المتأصلة فيهم ويخرجون كما دخلوا. لم تكن مصر هكذا أبداً.. كانت المرأة المصرية جميلة وخلاّقة وذات هندام، ومفكرة، ومحتشمة في نفس الوقت. لم نر امرأة أبداً تغطي نفسها كالبومة وتخشى أن تنعق! ولم نرَ شيوخاً مستوردين من الخليج يقررون لنا في مصر حياتنا وديننا.. مصر التي أنجبت الشيخ مصطفى عبد الرازق والغزالي ومحمد رفعت تأخذ من هؤلاء الجهال! للأسف.. المنبع الاقتصادي المتدفق في بيوت المصريين من هناك لا بد وأن يكون له رافد فكري موازٍ! هو السبب في كل مصائب الردة الفكرية التي نعيشها هذه!

تنهدت أفكر... درس حقيقي يستحق التأمل!

- ولكن يا دكتور... لم نفتح الخطاب! تعال نرَ ماذا به.

تناول الدكتور الخطاب وأخذ يفضه وقد هدأ انفعاله، فرد الورقة الوحيدة بداخله، وراح يقرأها صامتاً، بينما كنت متلهفاً لمعرفة محتواها.

- خير يا دكتور؟

فجأة وجدته يرفع عينيه عن الرسالة ويتمتم باندهاش بالغ.. (ما هذا الكلام؟ يعني إيه؟) قبل أن يعيد النظر إلى الورقة مرة أخرى لقراءتها ثانياً وثالثاً ويرتفع صوته بالاندهاش أكثر!

- يا دكتور!

- اقرأ بنفسك!

قرأت الرسالة.. وكان بها دعوة للدكتور باعتباره أحد رواد علم الاجتماع، وأن المركز الإعلامي للقناة الفضائية ومركز الدراسات سيقيمان مؤتمراً كبيراً بعد شهرين من الآن لعلم الاجتماع يتناول على مدى ثلاثة أيام مفهوم (الطيبة) باعتبارها بديلاً عن العولمة الشرسة! و(المحبة) باعتبارها اختياراً ممكناً بديلاً عن مخطط الشرق الأوسط الكبير والتغيير بالعنف! وترجو من الدكتور أن يقوم بإعداد ورقة بحثية في هذا الصدد تتناول الطيبة والمحبة بديلان عن العولمة والتغيير والفوضى الخلاّقة! وأن يرسلها على عنوان المركز بالخليج، تمهيداً لإرسال الدعوة له وتذاكر الطيران والإقامة.

- ما معنى هذا الكلام؟

- أخبرني أنت! فأنت أستاذ علم الاجتماع وليس أنا!

- اجتماع إيه يا ابني! المصطلحات السوسيولوجية لعلم الاجتماع بأكمله منذ وجد ليس بها مصطلحاً واحداً اسمه (الطيبة)! من هؤلاء المتخلفين الذين يبتدعون مثل هذا الكلام؟

- طيب وما رأيك؟

- رأيي في ماذا؟ أنت تعرف رأيي في الخليج بأكمله، ها هي أفكاره أيضاً أنت تراها الآن.

- يعني لن تشارك؟

- أشارك في ماذا؟ هذا ليس مؤتمراً علمياً أو بحثياً.. هذه مهزلة!

- طيب... ولكن لماذا لا تذهب إلى هناك وتوضح لهم ذلك، تشرح لهم بعد الفكرة التي طرحوها، والخطأ الاصطلاحي الذي وقعوا فيه و..

- أن لن أهين نفسي بالتعامل مع هذه الكيانات.

- اسمع يا دكتور.. أنا أرى المسألة ليست بهذا السوء. أنت دوماً تشكو لي من عدم دعوتك لندوات ومؤتمرات علمية ويتم تجاهلك عمداً إلى آخر هذا الكلام.

- كنت اتحدث عن بلدي. أنا مستبعد من هنا... من مصر.

- طيب ولماذا لا تجرب هناك؟ لعلك لاحظت أنهم طلبوا منك في الرسالة أن ترشح لهم عدداً من أسماء العلماء والمفكرين المصريين الذين يمكنهم أن يشاركوا في المؤتمر. رشح من تراه نافعاً ومفيداً في المسألة، وهؤلاء المصريين ستجد منهم من يُقدِّر لك ذلك، فيدعوك في مرات لاحقة لندوات ومؤتمرات يُرشَّح هو فيها هنا في بلدك! وبالمناسبة هذه ليست انتهازية أو تفكير نفعي، فبعملك هذا ستكون قد نفعت الغافلين هناك في الخليج وشرحت لهم حقيقة التوهان الذي يدورون فيه وفوضى المفاهيم، وأضفت لوعيهم ما لا يعرفونه، وتكون قد أفدت العلماء المصريين الذين سترشحهم، فيحتكون ويتفاعلون وتفيد نفسك أيضاً.

صمت وراح يفكر.. وبين الحين والآخر راح يرفع نظره إليَّ ويتأملني من وراء النظارة السميكة، قبل أن يعود إلى تأمله الصامت وأصابعه على جبهته... فجأة قال:

- يمكنك أن تذهب الآن.. ونلتقي مساءً!

كان هذا معناه أنه سيفكر في الأمر وسيصل لقرار!

تركته وانصرفت محيياً.

*

في المساء استدعاني الدكتور منادياً من غرفة المكتب، فتوجهت إليه..

دخلت إليه فلم يرفع رأسه من على الأوراق التي كان مستغرقاً في النظر إليها. جلست أمامه صامتاً.

رفع رأسه وقال لي في بطء:

- سأذهب إلى المؤتمر... ربما كان في كلامك بعض حق.

- عظيم.

- أنا اتصلت بهم في الخليج، وأخبرتهم بموافقتي، وهم ينتظرون مني غداً فاكس بأسماء المشاركين المصريين الذين سأرشحهم... فمن في رأيك يستحق؟

- أعتقد أنك أدرى مني ولا شك.

- أنا كتبت قائمة بالفعل، واريد أن أسمع منك.

- د. جلال أمين، و.أمين العالم، ود. حسن حنفي، ود. محمود عبد الفضيل، ود. عبد العظيم أنيس، ود. أحمد عبد الله رزة، وسلامة أحمد سلامة، و ضياء رشوان، و..

(قاطعني) كل هؤلاء أنا كتبتهم، وإن كنت مازلت غير مقتنع بهذا المؤتمر.

- بالتأكيد به مغريات مادية !

- طبعاً.. إقامة فاخرة وبدلات ندوات بآلاف الدولارات، وفندق ٧ نجوم للإقامة، وتذاكر طيران درجة فاخرة.. يقدمون فيها الكافيار! تخيل. إنها شركة الطيران الوحيدة التي تقدم كافيار ضمن الوجبات المقدمة!

- عظيم... مغريات كثيرة.

- ليس هذا كل شيء.. فاليوم عندما حادثت رئيس القناة، قال لي إنهم يريدون أن يقوموا بإنشاء مركز بحثي علمي، وأن أتولى استشاريته!

- هائل! عظيم والله... ألم تكن تشكو دائماً من غياب الدور! ها قد أتى لك بنفسه، وستجد في حياتك الآن ما يملؤها بجوار مقال الأهرام!

- كنت أتحدث عن بلدي. عن غياب الدور في بلدي!

- يا دكتور.. اعطِ نفسك فرصة، أنت دوماً مجرِّب ومحاول، فلماذا تتراجع عند هذه النقطة؟ ثم إن هذا الخليج الذي ترى أن كله شر، ألا يخدم مصالح الإسلام المُهاجم من الغرب بشراسة منذ أحداث سبتمبر؟

- لا طبعاً! لا يخدم من الإسلام شيئاً، وكلامك به ارتباك في المفاهيم بين مصطلحي الغرب والإسلام.

- إزاي يعني؟

- الغرب أولاً ليس كتلة واحدة، الغرب ليس أوروبا وأمريكا بشكل مسطح هكذا وأحادي المفهوم، ففي قلب هذا الغرب ستجد غرباً مسيحياً متعاطفاً معنا، وغرباً يهودياً متعصباً يدعو للحرب علينا والصدام مع الإسلام. وأبرز من يقود هذا الفريق الثاني هو رئيس تحرير " الهيرالدتريبيون " الذي يكتب عن الإسلام والعرب بمنتهى العنصرية، ويؤكد أن النظام العالمي الجديد قائم على حرب الحضارات وليس صدامها فقط.

وثاني ما لا تستطيع تمييزه هو مفهوم الإسلام المعاصر. فتصورك بتركز الإسلام في البيئة الجغرافية التي ظهر فيها وخرج منها للانتشار – الجزيرة العربية وما حولها – هذا مفهوم خاطيء، هذا لا يمكن تطبيقه سوى في الدراسات التاريخية، أما الإسلام المعاصر فله نماذج ودول طبقته بأفضل ما يكون في إطار كادر الدولة. باعتباره فلسفة وتشريعاً وليس طقوساً وفرائض فحسب وتمسحاً بأذيال التاريخ! انظر إلى ماليزيا وإيران، وهما خارج دائرة الخليج بأكمله، بل خارج الدائرة العربية، وستجد تطبيقاً لمفهوم الدولة الإسلامية الملتزمة بالعقيدة كدافع للحياة والعمل والإنتاج. الإسلام ليس مجرد عقيدة، إنه دائرة حضارية تستطيع تجميع الشعوب المقهورة من قبل الغرب ومن قبل عملاء الاستشراق الحضاريين والبعثات التبشيرية التي كانت دوماً طليعة الاحتلال العسكري والنهب على مدار التاريخ. تستطيع أن تقول إنه الوجه الآخر للعملة، عملة الاستشراق.

- هل من الممكن أن تشرح لي بشكل أوضح؟

- هناك دور تاريخي وسياسي لعبته مجموع الدول والشعوب المتجمعة في إطار الحضارة الإسلامية حفاظاً على كياتها واستقلالها وتقدمها وخصوصيتها في مواجهة الحروب الصليبية والاستعمار التقليدي والإمبريالية، ومن هنا جاء استعمال كلمة (السياسي) رديفاً للإسلام، إشارة إلى هذا البعد بالذات من البيئة الحضارية الإسلامية.

- أنت دوماً تركز على هذه النقطة، وعلى هذا التوجه البحثي في المؤتمرات والندوات التي تحضرها.

- لأن هذا المفهوم لم يلتفت له أحد قبل أن اكتب مقالي عن أزمة الاستشراق! الاستشراق له أزياء إيديولوجية براقة يتخفى خلفها ليهاجمنا، والإسلام السياسي هو الدائرة التي تمثل الدرع باعتباره السلاح الثقافي الاجتماعي الذي لا يتمتع به الغرب. هذا هو سبيلنا للمقاومة. مقاومة الغزو الفكري والاستعمار العسكري. من هنا يرسخ مفهوم الخصوصية، أما الغارقين في الأوهام من الذين يرون أن تقدمنا مرهون بتقليد أوروبا والسير على خطى الغرب فليسوا سوى عملاء حضاريين. هذا هو الفارق بين تصور الخليج وكياناته للإسلام، وبين الإسلام التقدمي ذي خصوصية الهوية، الإسلام ليس سلفية ولا عودة إلى الماضي، بل اكتشاف للهوية الحضارية والذات القومية معاً في الاستقلال والنهضة.

..............................!

- ابتسم الدكتور وهو ينظر لي وقد امتلأ رأسي بالأفكار عن الإسلام السياسي، والحضارة والغرب، والاستشراق.

- يمكنك أن تذهب للبيت الآن! من الواضح أنك أرهقت.! على العموم أنا وافقت مبدئياً على الذهاب للمؤتمر، وإن كان لا يزال بداخلي هواجس! نتناقش فيما بعد!

*

في اليوم التالي استدعاني الدكتور صباحاً وطلب مني أن أحضر سريعاً (كالمعتاد). كانت الساعة الثامنة صباحاً! وكان هذا الأسلوب يضعني في دائرة مستمرة من القلق، لأنني أظل متأهبا في أية لحظة لاتصاله. استيقظت مشوشاً، وذهبت إلى لقائه.

الشوارع الصباحية غارقة في غبش الشتاء.. الناس تتحرك بصعوبة بسبب البرد، وأنا أبحث عن تاكسي أو ميكروباص، وأرتجف في ملابسي.

بعد ثلث ساعة كنت لدى الدكتور..

فتح لي بالكيمونو الذي لا يغيره أبداً إلا صبيحة السفر!

- صباح الخير.

- صباح النور... البس خفك الأزرق واغسل وجهك، واذهب للمطبخ، افطر من الثلاجة وعد.

تلقيت الأوامر العسكرية الملقاة على أسماعي دفقة واحدة، وتوجهت لتنفيذها، انتهيت منها في دقائق وعدت بالخف الأزرق، وجدت الدكتور يحول بصره من الجريدة التي يفتحها على اتساعها وهو جالس في ركنه المشمس، وينظر لي.. نحو الخف مباشرةً!

- ليس ثانية يا دكتور أرجوك! ثم إنك ترتدي خفك بالفعل، فهل هناك خف ثالث في البيت؟

ظل ينقل وجهه بين قدميَّ وبين وجهي في ريبة! قبل أن يطوي الجريدة وينهض، وكأنه نسي الأمر. سار باتجاه المنضدة التي أقوم عليها بعملي، وجلس صامتاً. توقعت أنه يريد الكلام عن مؤتمر القناة الفضائية الخليجية، ومركزها البحثي المزمع، وظللت منتظراً.. لم يتكلم.

- خير يا دكتور.. هل هناك شيء!

- لا.. ولكن عندي موعد مع صحفي، ويريد أن أحدثه عن تاريخي العملي والعلمي، الكفاح من أجل الشيوعية في بدايات التحرر المصري، وغير ذلك.

- طيب.. هذا عظيم. ما الذي يقلقك.

- ليس لي رغبة في الكلام!

- ولكن أنت دوماً تشكو لي من التجاهل، فلماذا حينما تأتيك الفرصة لتغيير ذلك لا تغتنمها؟

- ليس لي نِفس! أنا أريد أن أرى البحر. تعال نسافر!

- الدنيا شتا يا دكتور!

- اسكندرية في الشتاء أجمل منها في أي وقت.

- طيب نفكر في الأمر.. ولكن قابل الصحفي أولاً.

- رأيك كدا؟

- نعم

ظل صامتاً يفكر....

نهض فجأة، وقال لي: حسناً.. هذه أرقامه.. اتصل به وأخبره أني موافق، وظل معنا أثناء إجراء الحوار. حدد معه موعداً غداً.

اتصلت بالصحفي، وحددت معه الموعد، على أن يأتي في العاشرة من صباح اليوم، في الموعد المحدد كنت أفتح له باب الشقة، دخل ومعه المصور، جلست بعيداً، بينما جلس الدكتور في كرسيه المفضل بجوار البقعة المشمسة، جلست أراقب الصحفي والحوار، وانفعالات الدكتور المرتقبة في حال سماعه أي سؤال قد لا يروقه، والحقيقة أن الصحفي المخلص لم يدخر هذا الجهد من اللحظة الأولى فقد بدأ حواره بسؤال فوجئت بالدكتور وقد وجم عندما سمعه، فقد سأله الصحفي: متى "قررت" أن تكون شيوعياً؟

جن جنون الدكتور وصاح: ما هذا السؤال؟ هل هذا كلام؟ هل هذا سؤال؟ لو أن لديك نصف إعداد عن حياتي وعن تاريخي الفكري والنضالي، أو عندك وعي أصلاً بكيفية تكوُّن الاتجاهات الفكرية الإنسانية لما سألت سؤالاً كهذا.

امتقع الصحفي! شحب، بينما تدخلت أنا في الأمر مُهدِّئاً:

- لا بأس يا دكتور، هو لم يحسن صياغة السؤال فقط وإنما في داخله معنى عميق، أراد أن يسأل عن بدايات التكوين الشيوعي لك، وعن العمل التنظيمي. والتفتُّ إلى الصحفي وسألته وأنا أهز رأسي له مومئاً!: أليس كذلك؟

- نعم! آه.. كذلك بالظبط!

نظرت للدكتور، فوجدت انفعاله قد بدأ يهدأ، قبل أن يومىء قائلاً:

- آه.. إن كان هكذا فلا بأس! فالشيوعية يا ابني، أو أي اتجاه فكري لا يُتَّخذ بقرار فجائي هكذا، المسألة تبدأ بالتكوين، بالإعداد، تماماً كالنسيج الذي تتجمع خيوطه وعناصره لتكوِّن السمت العام له. عموماً بدأت رحلتي مع التوجه الفكري للاشتراكية والفكر الماركسي عام ١٩٤١، بعدما قرأت مختارات كارل ماركس ل (هنري لوفيفر)، وكتابات ماركس وإنجلز السياسية والتاريخية والفلسفية، و" البيان الشيوعي "، وكتاب لينين " الدولة والثورة " ثم

ستالين، وخاصة " الماركسية والمسألة الوطنية "، ثم كتاب إدجار سنو " النجم الأحمر يسطع فوق الصين " عام ١٩٣٨، والذي يتحدث عن التجربة الصينية مع الاشتراكية، وثورة الصين التحريرية التي سميت (بالمسيرة الطويلة) تلك المسيرة التي قطعها ماوتسي تونج، وشو تيه، قاندا الحزب الشيوعي الصيني، سبع سنوات من السير والمعارك من أجل ضم الصين بأكملها تحت لواء الشيوعية، سبع سنوات إلى أن تم دخول بكين في أول أكتوبر عام ١٩٤١ وإعلان إقامة جمهورية الصين الشعبية الاشتراكية.

كانت أعمال ماوتسي تونج الفكرية من أعظم ما قرأت، ومن أعظم ما أرشدني إلى طريق الفكر والعمل في الاشتراكية. أعمال مثل (في التناقض)، (في الجدلية)، (الديمقراطية الجديدة)، وغير ذلك.

قال الصحفي الشاب: هذا هو المسار الفكري الذي حدد التوجه. فكيف تحقق هذا التوجه على أرض الواقع؟

- كان هناك العديد من التنظيمات الشيوعية المصرية، التي استعادت منذ عام ١٩٣٩ سيرة الحزب الشيوعي المصري الأول المنحل، عادت على هيئة حلقات دراسة منفصلة لتجمُّع الحزب الشيوعي المصري الثاني عام ١٩٤١، بدأت ألتقي بمجموعة من الأصدقاء بين عامي ٤١ – ٤٢، نتناقش في المسألة الاشتراكية، والسبيل إلى تحرير مصر، ونحاول منذ الحرب العالمية أن نفكر في كيفية إيجاد ثغرة تنفذ منا مصر إلى الاستقلال، كنا رفاقاً تسعة، أذكر منها أسماء ووجوه غالية كإنجي أفلاطون، والدكتور جمال العطيفي، ولطيفة الزيات، ومحمود العسكري وجمال غالي.

- وكيف ومتى التقيت برفيق رحلتك الشهيد المناضل شهدي عطية الشافعي؟

يطرق الدكتور حزيناً، تمسح عيناه أركان الصالون إلى ان تستقر على صورة شهدي، يثبت عينيه على نظرة عيني شهدي القويتين الواثقتين، يرفع بصره مبتسماً:

- هذه حكاية طويلة! ربما تقترب من المسيرة الطويلة الصينية أو كأنما تكررها! كانت صدفة قدرية، ولقاءً معجزاً محيراً. في أكتوبر عام ١٩٤٤ اتجهنا أنا ورفاقي إلى نادٍ ثقافي – سياسي، كان هو (دار الأبحاث العلمية).. ذهبنا بعد الظهر، للاستماع إلى المحاضرة الأسبوعية والنقاش وتبادل الآراء ووجهات النظر، لا أخفيك أننا كنا نريد الاستيلاء على الدار لصالح مجموعتنا! المهم.. التقينا بالمحاضر الشاب الواثق المبتسم، الذي ألقى محاضرته عن ظهور نظام القطبية الثنائية في العالم، وأن هذا النظام سيكون مفيداً للشعوب التي ستنضوي تحت لواء الاشتراكية!

اعترضنا على الطرح والرؤية أنا ورفاقي، كان لنا تحفظات على هذا الطرح، انفعلنا، إلا إن المحاضر الباسم القوي كان لايزال محتفظاً بهدوئه وامتصاص ثورتنا وراح يناقشنا في ان الصراع بين المعسكرين سيؤدي إلى ظهور شعوب العالم الثالث والقوى النامية التحريرية الجديدة وقد كوّنت تحالفات جديدة، أو انحازت إلى المعسكر الاشتراكي الذي ستحظى بدعمه المادي والمعنوي. ظلت مشاكساتنا قائمة. انتهت الندوة، وانفردت بالمحاضر الذي لم يكن سوى شهدي عطية، فناقشني بهدوء، تفكرت في كلامه فوجدت به بعض الواقعية في الطرح، تصادقنا، تمشينا معاً في القاهرة يومها من التاسعة مساءًا حتى السادسة صباحاً! كان مبعوثاً موفداً إلى جامعة

إكستيد الإنجليزية للحصول على الدكتوراه في الفلسفة، ولكنه عاد عام ١٩٣٩ لينخرط في العمل الوطني لتحرير مصر تاركاً البعثة. صرنا أكثر من أصدقاء، وكنت أراه معلماً وصديقاً وأستاذاً.

- والخطوة التالية في التنظيم الوطني؟

- انضممت لمنظمة (إسكرا) التي ركزت على تكوين الكادر القيادي للحركة الشيوعية المصرية، كنا نتلقى سنتين من التكوين النظري والفكري والسياسي رفيع المستوى، وبعد ذلك نتلقى سنتين أخريين في مختلف التخصصات، بعدها يشرع العضو في ممارسة دوره في " دار الأبحاث العلمية " قبل أن يشرع في ممارسة العمل الوطني الميداني، هذا هو تكوين الكادر القيادي للعمل الوطني الجماهيري، ودار الأبحاث العلمية هذه أسِّست في الأصل لتقود التحرر الوطني على أساس منظم، وبصورة علمية، كانت تضم اثنتي عشرة لجنة، موزعة بين السياسة الخارجية، الاقتصاد، الثقافة، التنظيم، لإعداد كادر الدولة البديلة المعنية بالتحرير والثورة والنهضة (أو ما يُسمَّى الآن في أوروبا بحكومات الظل الموازية) كنا نلتقي في الدار كل خميس أسبوعياً، وكانت، وكانت اللجنة المركزية، ورئيسها المنتخب بطريقة سرية يلتقي بالأعضاء الاثني عشر من رؤساء اللجان الآخرين، كانت هذه الدار أهم تجمُّع فكري سياسي على أرض مصر، تجمع بين الشيوعيين وكافة الفرق الوطنية، وبين مختلف الأجيال، وكان من أبرز الوجوه التي ترود الندوة يوم الخميس: الدكتور محمد مندور، عصام الدين حفني ناصف، عزيز فهمي وغيرهم من الرواد والأساتذة الذين كنا نستمع لهم بكل تقدير باعتبارهم أساتذتنا. وكان يدير الندوات شهدي عطية الشافعي وعبد المعبود الجبيلي.

وكان كتاب شهدي عطية الشافعي " أهدافنا الوطنية " من أهم الكتب التي أُلِّفت في تلك المرحلة " ونظَّرت لمسار التحرك الوطني في مقاومة الاحتلال، وللتحرر والبحث عن العدالة. في عام ١٩٤٦ قامت " اللجنة الوطنية للعمال والطلبة " وحددت مسار الخط العام للكفاح الاشتراكي الميداني، والذي تطور فيما بعد إلى ميثاق العمل الوطني عام ١٩٦٤.

- وكيف كانت علاقتكم بالإخوان المسلمين؟

- كان لنا تحفظنا على التوجه التنظيمي والتحرك العملي للإخوان المسلمين، وموقفهم من الحكم والسلطة، وآلية قيادتهم للجماهير، ولكن في ظل مواجهتنا جميعاً للاحتلال والعمل من أجل هدف واحد هو التحرر الوطني، كان لا بد أن نكون مخلصين لقضيتنا ونتحالف مع الاتجاهات الوطنية التي لا تنضم لنا مباشرةً، من هنا كان مفهوم الجبهة الوطنية المتحدة، التي كنا نراها آنذاك تجمع بين العمال والفلاحين، والمثقفين الثوريين، الجنود وصغار المنتجين، والرأسمالية الوطنية بقيادة الطبقة العاملة المتحالفة مع شباب مصر الطلابي، من هنا أدركنا ضرورة التلاقي مع جماهير التوجه الإسلامي. ولكن " بدون قيادة الإخوان المسلمين " (غير الدكتور من نبرة صوته وهو يقول للصحفي): وأرجو أن تشدد على ذلك في حوارك وتنتبه له عند نشره! التقينا بالجماهير، ولم نلتق بالقيادة في حالة التوجه الإسلامي والإخوان المسلمين. كنا نجلس على (حصيرة) في ميدان الحلمية الجديدة نستمع إلى تعاليم المرشد العام حسن البنا في ليلة الجمعة من كل أسبوع، شهراً تلو الشهر، نتعرف على مشاعر وتوجهات إخواننا في الوطن، وفي ذلك الوقت أصدرنا كتاب (الإخوان المسلمون في الميزان) وكشفنا فيه النقاب عن تلاقي قيادة الإخوان المسلمين آنذاك بالمحتل البريطاني لمعادة الشيوعية. بعدها توالى الحصار وموجات القمع لإدارة " دار الأبحاث العلمية ". بدأ في يوليو عام ١٩٤٦، وكنت أنا آخر من تولوا منصب مقرر لجنة

الإدارة، أي رئيس اللجنة المركزية لدار الأبحاث. لم يستمر ذلك سوى عشرة أيام قبل أن يعتقلوني، يعتقلونا جميعاً أنا وشهدي عطية الشافعي، وعبد المعبود الجبيلي، وأحمد شكري سالم، وعبد الرحمن الناصر، وكان الاستعمار البريطاني يعد العدة آنذاك لتقسيم فلسطين تمهيداً لمنحها لليهود.

- هل كانت توجد تيارات وطنية أخرى، أو تنظيمات يسارية تولت زمام القيادة الجماهيرية والعمل الوطني إلى جانبكم أو بعدكم؟

- كانت هناك (الحركة المصرية للتحرر الوطني) بقيادة " هنري كورييل "، وقد عرض الوحدة علينا، وأن ننضم في تنظيم واحد، يعني الحركة المصرية وإسكرا، أو (الشرارة). ولم يكن الهدف العميل غير الوطني الذي أراد هنري كورييل تحقيقه من وراء وحدة الحركة المصرية للتحرر الوطني مع إسكرا ببعيد عن أعيننا. فهنري كورييل كان ممثل الشيوعية اليهودية العالمية المناصر لتقسيم فلسطين منذ ديسمبر ١٩٤٧ وحتى اليوم، وكان كل يوم يحمل معه جديداً في مسألة التقسيم هذه، وكان الهدف الأساسي لفكرة الاتحاد بين المنظمتين هو احتواء ثم امتصاص منظمة الكادر المرموقة، أي شرارة، لحساب القيادة الشيوعية اليهودية. لم يكن التنظيمان متجانسين من الأصل، ولكن رغم ذلك قررنا نجري استفتاءً لجميع مسئولي أقسام منظمة إسكرا، تم ذلك في يونيو عام ١٩٤٦، وكنا ٥٦ عضواً، صوَّت منهم ٥٥ لصالح قرار الانضمام والاتحاد مع الحركة المصرية للتحرر الوطني، وكنت وحدي من انفردت بقرار الرفض والمعارضة.

- وبعد ذلك؟ هل تبدى صواب وجهة نظركم حول مطامع هنري كورييل في الاستيلاء على الجهد المرموق لكوادر إسكرا لصالح الاتحاد الثنائي تمهيداً لخدمة الأهداف غير الوطنية لصالح المنظمة اليهودية العالمية ومنح فلسطين لليهود؟

- بالطبع! مجرد أسابيع كانت كافيه ليتضح للجميع مخطط هنري كورييل لإذابة الكادر الثوري في حركة تجمُع بين مجموعة من الفئات (العمال، الفلاحين، المثقفين، الجيش، الطلبة، النساء الأجانب.. إلخ) بدلاً من التنظيم الشيوعي التقليدي. بدأ التنظيم (الصهيوني) في تفرقة الصفوف وتمكين القيادة من التلاعب بالمصالح المتناقضة، وكان تقسيم فلسطين على أهبة الإعلان عنه. من هنا كان لا بد من وقفة مضادة فكان أن تم تشكيل " التكتل الثوري " بقيادة شهدي عطية الشافعي، وأنور عبد الملك وحسين الغمري وسعد زهران.

بينما قاد عبد المعبود الجبيلي وأحمد شكري سالم المعارضة الشرعية داخل اللجنة المركزية، تم فصل جميع أعضاء " التكتل الثوري" من العضوية، وصدر قرار تقسيم فلسطين في ديسمبر عام ١٩٤٧. واستعدت مصر للحرب عام ١٩٤٨. كانت هذه أولى معارك الشيوعية الوطنية في قلب الحركة الوطنية المصرية.

توقف الدكتور عن الكلام.. نظر صوب النافذة، ثم قال للصحفي. أعتقد ان هذا يكفي.. هذه الساعة التي تحدثنا فيها اختزلت عمراً لا يمكنك تصور أبعاده بالنسبة لي!

نهض الصحفي ململاً أوراقه والكاسيت الصغير، ويضعهما في حقيبته، قبل أن يشكر الدكتور ويصافحنا، ويمضي إلى الباب، فتحت له، ومضى، بينما رجعت للدكتور، فوجدته يتأمل الحديقة من النافذة. كان من الواضح أنه مجهد، تماماً كحالته بعدما يكتب المقال. ناديت عليه فلم يرد، كنت أعرف أنه يسمعني، أدركت أنه حزين من شيء لا أعرفه، خمنت أن تكون هذه الذكريات الكثيرة الكبيرة، أصداء العمر وملامح الرفاق، والخيبات التي وصلت إليها أحلام

الشيوعية والاشتراكية، وانكسار الحلم القومي الاشتراكي في مصر إلى ما آلت إليه من تبعية وفساد ونظام عميل، لا شك أن هذا بأكمله نكأ في أعماقه جرحاً كبيراً!

استأذنته في الانصراف، فأومأ لي دون أن يحول بصره عن النافذة!

غادرت الصالون إلى الباب..

ذهبت.

في الصباح استيقظت على جرس الهاتف..

نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط أعلى سريري. السادسة صباحاً. خمنت من يتصل. كنت مرهقاً للغاية، ولكنني تناولت السماعة - سماعة المصائب - ورددت لأجد الصوت العزيز الذي لم أعد أعرف سواه من الدنيا منذ وقتٍ طويل.

- آلو... حمزة؟

- يعني من سواه تفتكر؟

- لا أريد كلمة زائدة؟ أنت حمزة أم لست حمزة؟

- لا يا دكتور.. أنا لست حمزة. تصبح على خير

(انفجر صراخه في الهاتف)

- لو أنت لست حمزة فكيف عرفت أنني الدكتور؟ وثانياً هل تتصور أن عندي زهايمر ولا اميز الأصوات؟ أنا درست في معمل اللغات بمدرسة اليسوعيين منذ كنت طفلاً كيف أميز الحرف الواحد ينطق به عشرون صوتاً من عشرين جنسية مختلفة... وأنت حمزة وتكذب!

- طيب يا دكتور أنا حمزة، ولكن كنت أحاول أن أمزح معك فقط، أمزح مثل باقي الناس.

- تمزح؟ تمزح في السادسة صباحاً؟ ورانا شغل يا أستاذ وأنت في عاشر نومة.. في عاشر ألف نومة... بالله عليك لماذا تنام للآن؟

- نعم، معك حق..مسألة تستحق التأمل.. لماذا ينام الإنسان للسادسة صباحاً؟

- لا أريد كلمة.

- طيب ما المطلوب؟

- كنت أريدك أن تحضر عندي خلال نصف ساعة، والآن، وعقاباً لك على الكذب ومحاولة التهرب والتحايل والنوم يجب أن توجد عندي خلال ربع ساعة.

- حسناً ولكن دعني أفطر!

- تعال وافطر هنا. ولا أريد كلمة أكثر.. أنت تضيع وقتك!

- طيب أنا ...

(أغلق الخط!)

يا فتاح يا عليم..

نهضت متعباً للغاية، أبحث كالعادة عن منشفة الوجه رفيقة المفاجآت الصباحية، وأمد يديَّ كالضرير متحسساً طريقي إلى الحمام، وقد ألقيت بنطلوني الجينز على كتفي!

*

- صباح الخير يا دكتور.
- صباح الخير؟ أين الخير مع كسول مثلك؟ تأتي مشواراً كهذا في نصف ساعة؟ ادخل.

دخلت... بينما اتجه هو إلى المقعد المحبب له بجوار النافذة المعتادة المطلة على الحديقة. رحت أتفحص الخُفَّين اللذين رأيتهما على الأرض بجوار باب الشقة. يا ترى أين خُفّي؟ كان نظري مُشوَّشاً من قلة النوم، ولا أكاد أرى. ظللت على هذا الحال دقائق، إلى أن فوجئت بصراخه: هل ستظل تتأمل جمال الخُف إلى الأبد أم ماذا؟ هل يلهمك قصيدة هو أيضاً. هل يفتنك؟

- أوف! يا دكتور ارحمني قليلاً. لا أكاد أميز الخفين من بعضهما. أيهما الكحلي وأيهما الأزرق.
- البس أي واحد منهما. الاثنان " زُرق " يا أستاذ. أنا اشتريت واحداً احتياطياً للسائق!
- السائق أيضاً؟ السائق المسكين ستُطبِّق عليه حكم الخف!
- لا أريد كلمة... طبعاً تريد الاستسهال، تريد الدنيا فوضى.
- طيب يا دكتور.. لا بأس.

ارتديت خفي، واتجهت إليه، جلست أمامه إلى أن فرغ من قراءة الجرائد، ظل ينظر إلى المدى الذي ينير صباحه مصر الجديدة. التفت إليَّ فجأةً وقال:

- هناك مهمة كبيرة يجب أن تساعدني في القيام بها.
- طبعاً يا دكتور... ما هي؟
- ألم تنتبه إلى أن هناك مكتبة كاملة في البلكونة بغرفة المكتب من الجهة الثانية من الشقة؟
- نعم؟
- ألم تلاحظ حالتها؟ إنها غير مُرتَّبة، والكتب يعلوها كميات كبيرة من التراب، والأهم من هذا كله أنني لم أعد أعرف معظم العناوين التي بها، ونوعية الكتب. هل لاحظت أيضاً وجود بعض (الكراتين على الأرض)؟
- نعم.
- ألم تتساءل عمَّ بداخلها أبداً؟
- تساءلت.. وخمنت أنها كتب.
- بالضبط! هذه الكراتين لم أفتحها منذ عشر سنين تقريباً. نسيت ماذا بها.
- آه.. تقريباً فهمت المهمة.. ولكن كيف تريد مني مساعدتك يا دكتور؟
- ربما أنت الذي ستحتاج مني بعض المساعدة بين الوقت والآخر! لأنك أنت من ستقوم بترتيب المكتبة وفهرسة كتبها، وإخراج الكتب القديمة المجهولة من الكراتين ومعرفة عناوينها وتصنيفها تبعاً لما قمت به أولاً، وكل هذا سيكون له إطاران: عملي تطبيقي ونظري تجريدي: التطبيقي يعني أن تقوم بتنسيق ورص الكتب حسب تصنيفها من خلال خلق مساحات لها في الأرفف وعلى الجدران، والنظري التجريدي من خلال كتابة اسم كل قصاصة وورقة وكتاب وضعتها في مكان معين، في قائمة واضحة بأسماء كل ذلك وأماكنه وتسلمها لي.
- ولكن هذا المجهود قد يستغرق شهراً أو أكثر؛ هذا إن تفرغت له تماماً أيضاً!

- حسناً... عظيم... تفرغ له إذن!

- يا دكتور ألم تقل في بداية كلامك إنني سأساعدك في الأمر فقط؟ لماذا توكله كله إليَّ. هذا حرام والله!

- لا أريد كلمة يا كسول. أنت أكسل شاب رأيته في مصر! لا،بل أكسل من رأيت في حياتي كلها في مصر وخارج مصر، وتفضل الآن على المكتبة.

- أوف!

رحت أجز على أسناني غيظاً وأنا أتوجه لغرفة المكتب، فتحتها. وقفت أتأمل صمت المكان وسكونه، وصور الزعماء المعلقة على الحائط. رحت أشكو حالي لعبد الناصر ومحمد علي، وماوتسي تونج الذي لم أعرف كيف أخاطبه! بينما لاحت المكتبة المبعثرة من وراء زجاج البلكونة. آلاف الكتب! الأمر لله.

فتحت الشباك الذي لا يُفتح إلا فيما ندر. بمجرد أن تباعدت الضلفتان حتى وجدت نفسي أغرق في نوبة عطسٍ شديدة! ها قد بدأنا.

رحت أخطو في حذر فوق الكتب، لاحظت – للوهلة الأولى أن الكثير منها قد أصابه التلف، ليس بسبب الأتربة فقط، ولكن بسبب العوامل الجوية الأخرى. المطر والشمس والرطوبة! أطراف الكتب انثنت، والكثير منها اصفرَّ وبهتت أغلفته، ولم يكن أمامي حل سوى إنقاذ ما يمكن. وبالفعل بدأت في توسيع مساحة لنفسي في وسط البلكونة، وأحضرت كرسياً صغيراً من غرفة المكتب، وضعته في المساحة التي أخليتها، ورحت – ممسكاً بدفتر صغير وقلم – أتحرك فوقه متابعاً الكتب على الرفوف وعلى الأرض كعامل بناءٍ وسط أنقاض.

كتب لا تحصى – أو هكذا خلتها من سواد تصوراتي عن الجهد الذي سأبذله فيها، ولكنني بدأت على كل حال، هذه مجموعة كتب عن السياسة – طبعاً – وكتب للطيفة الزيات وأخرى لسلامة موسى، ومجموعة جمال حمدان، وكتب لكمال الملاخ، كتيبات عن الأوبرا، وأخرى عن الفن الإفريقي، كتب عن استراتيجية القتال، والكتاب الذي وجدت منه خمس نسخ حتى هذه اللحظة في كل ركن من أركان هذا البيت حتى المطبخ- "فن الحرب" ل صون تزو، وروايات يوسف إدريس.. فتحت أولاها فوجدتها مهداة إلى الدكتور عبد الملك! وكتب عن الحياة الجنسية للكائنات الحية (!) وكتب عن التصوير، وكتب بالفرنسية – كثيرة للغاية، وأخرى بالصينية، وكتاب ضخم للغاية عن اليابان، ومجموعة أوراق ضخمة للغاية، وخلفها أوراق أخرى وملفات لا تنتهي! وكتب عن جغرافيا الدول، ومجموعة روايات صغيرة، وكتب لموسى صبري، وأخرى لعبد الرحمن الشرقاوي، ودواوين صلاح عبد الصبور، وكتب عن الإخوان المسلمين، وثورة ٥٢، وكتاب بالفرنسية علته صورة جيفارا، وكتب لفتحي عبد الفتاح، وأخرى لمحسن محمد أحمد، وأخرى لمحمد عودة، وكتاب لدكتورة ليلى عنان، ومجموعة كتب سلسلة الهلال. وكتب من مركز الأهرام للترجمة، وعشرات التقارير والأظرف (مغلقة)! وعشرات الملفات وأظرف أخرى مغلقة!

أيقنت أنني سأموت إرهاقاً قبل أن ينتهي هذا العمل.. ولكنني سلمت بأنه ليس من جدوى سوى البدء!

صرت أعمل بصبر وأحاول ألا أفقد أعصابي وأنا أضع كل كتاب في مكان خصصته لنوعيته ورتبت كل هذا التصنيف في ورقةٍ بالدفتر ورحت أرص الكتب في مكانها الجديد. وعندما أتعب من

الوقفة على الكرسي كنت أجلس على الأرض لأفتح الكراتين وأخرج ما بداخلها من كتب تحتاج فهرسة ورصاً لأضمها إلى إخوتها بالأعلى!

وعندما حانت الساعة الثانية وجدت نفسي مجهداً تماماً وعصبياً أيضاً (لا أعرف لماذا)!

خرجت إلى غرفة المكتب ومنها إلى الصالة وقد امتلأت ملابسي بالأتربة ووجهي وشعري وصار منظري رثاً للغاية!

اتجهت إلى الحمام مباشرةً، وألقيت نظرةً على الدكتور الذي وجدته قد غفا في مكانه وأمامه طاولة الطعام الصغيرة التي انتهى من غدائه الذي علاها منذ قليل فيما يبدو ونام مبتسماً! شعرت بالغيظ.. ودخلت إلى الحمام، فتحت على وجهي وجسدي الماء والصابون وعدت إنساناً! وعندما خرجت منه استلقيت على (كنبة تشرشل) في الصالون.. أخذني سمتها الوثير إلى حيث لم أدر بنفسي إلا في عوالم أخرى... نمت من الإرهاق دون أن أحس.

أحلام لا تنتهي.. وأنا في بيتنا، آكل وأشرب، مبتسماً وسعيداً وغير مكدودٍ أو مُتعَب. وحولي أهلي وأصدقائي. فجأة ظهر بين وجوههم وجه متجهم راح يصرخ فيَّ: أنت يا بيه! ما هذه السعادة المحلقة على وجهك؟ أنت يا افندي؟

تأملته... - حتى في أحلامي لا تتركني. ارحمني يا أخي!

- انت يا بيه؟

فتحت عينيَّ فوجدت الدكتور واقفاً على رأسي ووجهه يتميز من الغيظ! تبدد الحلم. لم يكن حلماً إذن!

- طبعاً! نائم في العزبة! تكية! أنا هنا أعمل وأكد، وأنت تنام وتهنأ في عاشر نومة!
- يا دكتور كنت أستريح قليلاً من الأشغال الشاقة التي كلفتني بها.
- الأشغال؟ وهل تسمي أداءك الكسول هذا أشغالاً؟ أنت لم تعمل سوى من السابعة صباحاً للثانية ظهراً فقط يا أستاذ! يعني لم تعمل للآن سوى سبع ساعات.
- للآن؟
- نعم للآن.. ماذا تظن إذن؟ أنك أنهيت العمل وستذهب؟ لا يا بيه.. هناك "وردية ثانية".
- طيب يا دكتور اسمعني. أنا مستقيل.
- استقالة مرفوضة.
- طيب ارفدني من فضلك.
- لا يمكن أن ارفدك قبل أن أعطيك مرتب نهاية الشهر، أنا أعامل ضميري. ونحن في أول الشهر الآن.
- الحمد لله. أنا متنازل عن المرتب. عن طيب خاطر والله.
- وأنا قلت لن ارفدك إلا بعد أن تنتهي من المهمة التي في يدك وتقبض مرتبك. ثم نرى! واتفضل على المكتبة ومش عاوز غلَبَة!

نظرت له نظرة طويلة وأنا لا أفهم ما أنا فيه! كأنما شعرت أنني مُعتقل، وأنني مستعبد، وكل مشاعر العبودية والقهر حطت عليَّ وقتها. توجهت إلى المكتبة مغلوباً على أمري، فتحت النافذة الزجاجية، استقبلني الحر والغبار وأطنان الكتب، مددت يدي لألمس أول كتاب على الرف، كان

عالياً، رحت أقف على أطراف أصابعي لأتناوله فلم أستطع إلا تحريكه شيئاً بسيطاً. فجأة وقع الكتاب ساحباً وراءه عشرات الكتب والملفات الأخرى فوق رأسي! وجدت نفسي منهاراً على الكرسي والأوراق من حولي! خُدشت في وجهي. كأنما انتهت عزيمتي في لحظة، ولم أجد في نفسي همة أو ميلاً لترتيب ورقة واحدة. جلست على الأرض.. تربعت، أخذت أحملق في الكتب والأوراق من حولي.. رحت شارداً أنثر الأوراق التي تبعثرت حولي، أنثرها وأبعثرها في الهواء، وما أن تستقر على الأرض حتى أنثرها وأقبض على غيرها لأنثرها أعلى رأسي! أوراق أوراق.. ورق فلوسكاب، ورق أصفر، ورق آلة كاتبة، ورق بالفرنسية، ورق عليه أختام وتواريخ منذ أربعين سنة، ورق مؤسسات عليه شعاراتها الرسمية، صورة..

(صورة؟!)

صورة من؟

كأنما أفقت في لحظة مما أنا فيه! نهضت من بين الأوراق في حذر ورحت ألمس الصورة التي كانت مختفية وسط الأوراق التي تبعثرت! أزلت عنها الغبار.

صورة لفتاة حسناء للغاية. شعرها فاحم وينسدل على كتفيها في نعومة. ترتدي جيبة قصيرة وبلوزة مفتوحة الصدر قليلاً وتجلس على سلالم رخامية في بيت أوروبي الطراز! الصورة بالأبيض والأسود. والبنت ساحرة!

تهت من نفسي.. شردت متسائلاً!

من هذه؟

قلبت الصورة.. لم أجد على ظهرها اسماً ولا تاريخاً..

وضعتها في أحد الأركان البعيدة التي لا يراها أحد..

ورحت أكمل رص الكتب وأنا أنظر نحو مخبأ الصورة لاوياً عنقي!

صورة من هذه؟!

*

صباح اليوم التالي..

بمجرد أن فتح لي الدكتور الباب حتى قفزت إلى الداخل.. ورحت أخلع حذائي في سرعةٍ باحثاً عن الخف الأزرق! ظل ينظر لي مندهشاً..

– إيه النشاط دا كله؟ خير؟ من يراك في نهاية اليوم يتخيلك عائداً من مصانع الثورة الصناعية!

– يعني هل أنا مخطئ لحماسي للعمل؟

راح يتفحصني بريبة.. وهو يتمتم بما لا أسمعه..

– غريبة! طيب.. تفضل إلى البلكونة.. وإن احتجت إلى شيء انده لي!

كنت بالفعل قد توجهت إلى الممر الطويل ومنه إلى غرفة المكتب... فتحتها.. فطالعتني المكتبة المبعثرة العزيزة التي تخيلتها مضيئة ومشعة أكثر من أي وقتٍ مضى..!

....

فتحت مصراعي البلكونة الزجاجيين، ثم بابها البني الكبير، ورحت أخطو حذراً فوق الكتب والأوراق التي لم تُرتَّب بعد.. متجهاً لنهايتها، حيث الركن. أزحت كتابين ومجموعة من الأوراق بدت متناثرة بشكل عفوي.. واستخرجت الصورة! رحت أتأملها في اندهاش وشعور محير! من هذه؟

ظللت أتأملها بعض الوقت، دقيقتين ربما، أتأمل كل شيء فيها.. البنت.. هذه البنت! نظرتها المبتسمة مع شيء من الشرود. الشعر المرسل.. والوجه الأوروبي الذي به مسحة من الدم الشرقي! المكان من حولها، والملابس التي ترتديها التي تعود بساطة تصميمها إلى موضة الستينات!

لا يوجد حولها ما يشي بالمكان الذي أخِذت فيه الصورة أو مناسبتها!

هل هي..........!

فجأة اكتشفت شيئاً لا أعرف كيف فاتني من قبل!

أنا لا أعرف شيئاً عن الحياة الخاصة للدكتور طيلة عمره.. هل تزوج أم لا!

كيف لم أسأله؟

(كيف كنت سأسأله من الأصل؟)

والآن في يدي صورة سأجن لأعرف صاحبتها!

....

أعدت الصورة إلى مخبأها.. ورحت أواصل العمل.

....

٢٥ يوماً بالكامل انعزلت فيها عن الدنيا إلا من هذه المكتبة! صباحاً ومساءً.. وأنا أنفض الغبار والأتربة عن الكتب وأرص وأصف وأصنف. ٢٥ يوماً أمر على صالة البيت مرور الكرام لأرى الدكتور نائماً مبتسماً وأمامه الطعام وأنا خارج لتوي من كهوف الغبار أو مصانع الفحم!

أنام ساعتين من الثالثة للخامسة على أحد كراسي الصالون، وأستيقظ مشوش الرؤية منتفخ العينين لأسير كما الإنسان الآلي إلى حيث المكتبة وأنا أتخبط في الجدران!

إلى أن انتهت المهمة.

يومها... خرجت من البلكونة مرهقاً منهكاً.. ارتميت على المقعد المواجه للدكتور أمام نافذة الحديقة. أخذ يحملق فيَّ وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة..

- مالك؟ من يراك هكذا يظن أنك عملت شهراً متواصلاً!

(.............!)

- هل انتهيت؟

- نعم يا دكتور.

فجأة لمحت عيني الدكتور تلمعان بفخر.. قال: حمزة يا ابني... أنت أديت عملاً جليلاً.. أنت فعلاً تستحق المكافأة.

(مكافأة.. أخيرا مكافأة.. سيزيد مرتبي ولا شك.. مرتبي الهزيل المسكين.. أو لعله سيمنحني مكافأة مادية دون أن يزيد المرتب.. أنا راضٍ على كل حال بما سيقدمه ولو كان حتى هدية رمزية. فجأة زال إحساسي بعناء عمل الشهر المتواصل).

راح الدكتور ينادي على السائق الذي كان نائماً بالمطبخ!

- أيوة يا دكتور. أأمر يا فندم؟ جاء مسرعاً ووقف أمام الدكتور.

غمز له الدكتور بعينه وهو يبتسم ابتسامة دهاء كمن يخفي مفاجأة كبيرة:

- احضر مفاجأة الأستاذ حمزة!

(ما هذا؟ السائق بنفسه يحضر لي مفاجأة؟ هل اشترى لي الدكتور سيارة صغيرة ليرحمني من بهلوانية المواصلات والسائق سيحضر لي مفتاحها؟ يا إلهي.. كم ظلمت الرجل حينما ظننت فيه البخـ.....)

عاد عبد المنعم من المطبخ يحمل صينية عليها طبقين من الصيني...

- المفاجأة يا دكتور!

- ضعها على الترابيزة وتفضل أنت!

نفذ عبد المنعم الطلب.. ووضع الصينية المغطاة بحذر على الترابيزة واختفى في طرقة الشقة...

- ما هذا يا دكتور ؟

- هذا الهناء كله! هذه مفاجأة لم أكن لأقدمها سوى لأعز أقربائي من الباشاوات!

تحيرت وأنا أفكر في هذه المفاجأة التي لا تخطر على بال.

- اتفضل يا بطل.

قال الدكتور ذلك وهو يرفع الغطاء من على الصينية فيُكشف ما تحتها...

- ما هذا؟

- أرز باللبن.. ملوكي... من أكبر محل بأرض الجولف! هاه؟ إيه رأيك؟

*

العينان الصافيتان.. الحلم الأزرق..

النهار البعيد الذي لا يقترب..

شاطئنا المجهول على مدى البصر. مسافتا الشراع.

الشعلتان المتوهجتان بالنور. السماء والبحر والنجوم.

العينان الصافيتان. شعلتا الوهج المضيئتان على البعد وما من قبس.

العينان.. قنديلا الفضة واللهب الأزرق.

مركبا البنفسج ساعة الغروب وأضواء المنارات تتهادى على سطح البحر..

العينان النجمتان.. الضوء الوحيد في صحراء بلا آخر

وأنا أسير ممزق الأردان.. مكدود الخطوات.. أصابني الإعياء وقدماي تسوخان في الرمال.

العمل والكدح والشقاء والظمأ إلى النهايات التي لا تجيء.. الظمأ والظلام!

العينان تبزغان وأنا أجرجر أقدامي في الظلمة إلى النور..

أمد يداً إليهما..

تبتعدان وقد ضاقت حدقتاهما.. شعلتاهما.. تبتسمان..

تمزقت روحي المتعبة كدحاً وكداً وشقاءً وما من أمل في سكينةٍ واستقرار

.....

العينان تضيئان الظلمة، عينا أميرةٍ منعمةٍ تضيء السماء كأنما عرشها النجوم والأفلاك وفستانها السحب.

وأنا الكادح ابن المُتعَبين..

ضلت خطاي الطريق في طواحين السخرة التي لا تتوقف.

وليس من رجوع!

العينان..دفقتا الضوء والعبير. ودفقة الماء لمن تشقق جوفه في هذه الرمال.

العينان الزرقاوان!

....

- حمزة!

...... آ...!

- استيقظ يا ابني... الدكتور على التليفون!

طالعت وجه أمي الصامت الحزين.. قبلت يدها التي تهزني برفق.. وتناولت منها السماعة.

- نعم يا دكتور!
- استيقظ يا أستاذ.. صح النوم! صرنا السادسة صباحاً.
- حسناً... أنا قادم.
- ربع ساعة!

(أغلق الخط)

التشوش المعتاد... لا أرى شيئاً..

ربع ساعة.. وجه السرعة.. أتخبط في أكتاف الناس في الشوارع... التاكسي.. المكتبة...!

....

جلس الدكتور ساهماً وأنا أمامه أغالب نعاسي... فجأة صرخ فيَّ:

- انهض وأعد لنفسك قهوة وتعال!
- طيب! (قلتها وأنا أتثاءب بينما تتحسس قدماي الأرض باحثة عن الخُف!)
- قل حاضر يا عديم الـ.....
- طيب!

في المطبخ وجدت الشغالة.. مدام نادية.. طلبت منها أن تعمل لي قهوة.. وعدت للدكتور...

- خير يا دكتور..؟ لماذا أوقظتني هذه المرة باكراً؟
- ألا تلاحظ شيئاً غريباً.. بل في قمة الغرابة؟
- لا!
- طبعاً! ولماذا تلاحظ من الأصل؟ حواسك معطلة!

(لم أرد)

– ما هو الاهتمام الأساسي الذي ترى أنني اقوم به في حياتي وأوصلني إلى ما أنا فيه؟

– الدراسة الأكاديمية واستمرار خطها. وهو ما جعلك أستاذاً مرموقاً لعلم الاجتماع.

– غلط يا أستاذ.. ليس الدراسة الأكاديمية

– ماذا إذن؟

– السياسة طبعاً.

– ولكنك يا دكتور توقفت عن المشاركة السياسية منذ زمن! منذ ١٩٧٤ تقريباً. أنت تكتب في الأهرام يا دكتور!

– يعني إيه؟

– يعني إن كنت تقصد السياسة حسب مفهومي البسيط لها من أنها الانخراط في المواقف الوطنية والنضال الفكري والعملي – من خلال تحديد مكانك أيضاً في قلب قضايا الناس ومشاكل المجتمع وليس بآرائك فقط – المشاركة.. الاهتمام وتغليب مصلحة الناس فأنت لا تمارس السياسة!

أخذ الدكتور يحدِّقُ فيَّ باندهاش بالغ... وران صمت طويل علينا معاً.

نهض.. وعقد يديه وراء ظهره واقترب مني...

– تعرف! هذا الكلام الذي قلته حالاً.. لا يستوجب سوى شيء واحد.

– ما هو!

– رفدك.

– .... !

– ولكني لن أفعل... ليس لأنك لا تستحق الرفد، فأنت تستحقه عن جدارة. ولكن لأنني أعلم أنك قلت ما قلت عن حسن نية وبسذاجة بالغة... صح ؟

تأملته ملياً.. قبل أن أردف ببطء..

- وباقتناع أيضاً!

انفجر صائحاً

– أنت من أنت يا ابن الأمس لكي تقول لي هذا الكلام؟ عمرك مشيت في مظاهرة؟ عمرك انضممت إلى حزب سياسي؟ إلى تكتل طلابي؟ إلى حركة معارضة؟

– لا! ولكن أنت فعلت هذا في شبابك إلى أن وصلت إلى الجلد والاعتقال والهروب والمنافي وبعدما خرجت من معتقلك، وبعدما رجعت، رحت تكتب في جرائد جلاديك وتتقلد جوائزهم وتمثل سياساتهم في مؤتمراتهم وينتخبونك في مجالسهم الخارجية!

– أنت متطاول وقليل الـ

– ... أنا مستقيل يا دكتور!

راح يحدق في عينيَّ بحدة.

كأنما نشب كلٌّ منا عينيه في عيني الآخر..

كان الصمت ثقيلاً ومخيفاً..

لم أنزل عيني..

هو أيضاً لم ينزلها!

ولم ينطق إحدانا.

.. استدرت إلى الباب...

طالعتني الشغالة الحائرة في الطرقة ممسكةً بصينية القهوة ترتجف في يديها!

*

السخرة والسخرة والشقاء!

لا شيء سوى الشقاء...

أعمل ١٢ ساعة يومياً وأحياناً ١٥ ساعة بمائتين وخمسين جنيهاً في الشهر.

أتذكر المحاذير:

(لا تقل لأحد إنك تعمل معي! هذا ممنوع! أنا شخصية لي حسابات معقدة سياسياً واجتماعياً ولا يجب أن يعرف أحد من أنت أو أنك تمثلني. أنت في الظل!

أعرف أن مرتبك قليل، ولكن في مصر يوجد عشرة ملايين شاب بلا عمل! ومن يعمل لا يحصل على أكثر مما تحصل عليه أنت. الفارق بينك وبينهم أنك تعمل مع أكبر أستاذ لعلم الاجتماع في مصر ومن أكبرهم في العالم.. سامع!

أنت غير مؤهل أساساً للعمل معي. غير مؤهل لأي عمل. لا يمكن أن يقبلك أحد بقدراتك هذه.. أنا فقط أعطف عليك لتساعدني وأمنحك خبرةً أيضاً. خبرةً مقترنة بالتاريخ.

حذار أن تفكر في أن تجد وظيفة أخرى سوى العمل معي! لو فعلت ذلك سأعاقبك!

العمل فترتين. يومياً. لا إجازات.)

كنت شارداً وفي داخلي شعور بالمرارة.. وأنا أتذكر هذه الرحلة التي قطعتها لعام كامل وكأنها طاحونةٌ لا تتوقف! وما الذي عاد عليَّ منها حقاً؟ لا أعرف!

مرَّ أسبوعٌ الآن ولم يتصل الدكتور. وأتمنى ألاَّ يفعل!

أسبوعٌ كامل قضيته في سريري أتأمل الأيام التي ركضت بي في حلبات لا تنتهي. وأريح جسدي وذهني المكدودين. متعبٌ كأنما سبحت المحيط!

دخلت أمي وسألتني عن أحوال الدكتور؟ لماذا لم يعد يتصل بي في التليفون وأنزل له؟

(لم تكن تعرف شيئاً عن عملي معه!)

طلبت منها أن تنسى الأمر... وسألتها وأنا أحاول تغيير الموقف عن سر تأخرها في السوق الشعبي القريب من البيت بالمطرية؟ فقلت لي وهي تبتسم:

– كل سنة وانت طيب يا حبيبي.. رمضان بعد بكرا...! إنت بقيت مفصول عن الدنيا وعن الوقت!

– نعم يا أمي.. مفصول عن الدنيا...

قلت في أعماقي..

(وعن الدكتور أيضاً)!

*

رن الهاتف! وكان الوقت عصراً.

- آلو.. حمزة!
- ....
- لا تريد أن ترد! أعرف! ارتدِ ملابسك وتعال حالاً. أريدك الآن!
- ماذا؟ أنا استقلت وانتهى الأمر!
- نصف ساعة تكفي ؟
- أنا مست

(أغلق الخط)

...؟؟

فتح لي الدكتور الباب ووجهه جامد للغاية!

- تفضل.

دخلت متوجساً ساهماً...

جلس على الكرسي المعتاد. جلست مقابله.

راح يحدق في المدى.. مصر الجديدة وقت الغروب. الحديقة. الأشعة المذهَّبة.

نهض فجأة..

كنت لا أزال متحيراً من سبب استدعائي، فلا أحسب أنني ساعود للعمل معه أياً كان العرض الذي سيقدمه.

كنت شارداً أحدق في الغروب!

الشوارع خالية.. أول أيام رمضان.. ليس في شارع نهرو سوى القليل من العابرين ممن يجرون إلى بيوتهم آملين اللحاق بموعد الإفطار قبل أذان المغرب..

ابتسمت..

مشهد لا يتغير في مصر أبداً! محفور في ذاكرة تاريخ الناس! يتكرر مع كل رمضان! أيام دافئة وحبيبة!

رجل يجري وينظر في ساعته.. وبنت تمد الخطو وتقاتل لئلا تبدو رجرجة جسدها! فتى ينطلق بأقصى سرعة وسيارة قطعت الشارع بأكمله في ثوان.

أيام!

- كل سنة وانت طيب يا بطل!

رفعت رأسي فوجدت الدكتور أمامي مبتسماً وقد أمسك بصينية عليها طبقا قمر الدين وبلح!

- دكتور.. أنا.. يعني...!

- لم أكن أعرف ماذا تحب بالضبط.. فعملت لك الاثنين..! هاه.. ماذا تحب؟

- ولكن...
- يالله.. المدفع سيضرب حالاً! أقول لك! اجلس على المنضدة أحسن!

كنت مأخوذاً مندهشاً من الموقف كله فلم أعرف بم أرد! نهضت مدهوشاً وجلست على المنضدة.. فوجئت.. أرز ودجاج وسلاطة وملوخية وعصير وزبادي! هذا أكل (بيتي)!

- وأين نادية يا دكتور؟
- نادية مين؟ انا اللي طبخت.
- لا يمكن!

(ضرب المدفع وارتفع الأذان من المساجد المحيطة)

- رمضان كريم. كل سنة وانت طيب!

ظللت ساهماً أحدق في الفراغ.

- يالله كُل! لأني سآكل معك! أمال إيه؟ أسيبك تفطر لوحدك؟ أنا أعشق الإفطار في رمضان!

نظرت له مبتسماً... بينما جلس هو أمامي وشرع يقطع الخبز ليأكل...

- دكتور أنا...!
- لا تقل شيئاً. أنت ابني يا حمزة! حد يزعل من ابوه؟

نظرت لهُ نظرةً طويلة.. فبدا على وجهه الانفعال. راح يداريه وهو يتظاهر بالانهماك في الأكل.. بينما ابتسمت أنا أيضاً.. ورحت آكل معه بشهية حقيقية!

*

كانت الشغالة تقوم بعملها من حولنا في الصالون حين طلب مني الدكتور أن نعمل في المكتب.. فنهضت معه وسرت خلفه إلى غرفة المكتب حيث الهدوء..

جلست إلى الطاولة الصغيرة الموضوعة إلى يمين المكتب، ووضعت القصاصات عليها والمجلات والجرائد. المقص والمسطرة والأقلام والملفات الفارغة.وشرعت في العمل.

- اترك ما في يدك قليلاً لنتحدث!

رفعت رأسي عمّا أفعله والتفتُ للدكتور. كان جالساً على المكتب المهيب. وخلفه صورة محمد علي وجمال عبد الناصر.

- نعم يا دكتور.
- تذكر مشكلة خلافنا الأخيرة؟ الموضوع الذي كنا نتحدث بشأنه قبل أن يحدث التوتر؟
- يا دكتور لا داع لهذا الموضوع.. فالأمر قد انتهى...

ارتفع صوته فجأةً!

- لا تدفن رأسك في الرمال كالنعامة! واجه تاريخك ومشكلاتك! لا تهرب.
- أنا فعلاً نسيت الأمر.. الموضوع كان مناقشة متوترة وانتهت.
- لا.. لم تنتهِ.. لأن موضوعها لم ينتهِ.
- طيب يا دكتور.. عمَّ كنا نتحدث.. ماذا كنت تريد؟

- كنت أريد أن أسألك.. لماذا لا تهتم بالسياسة؟ لماذا لا تشارك؟ مصر كلها في حالة غليان سياسي. تكوين أحزاب وتعديل دستور ومعارضة. والجبهة الوطنية المتحدة وحركة كفاية

- أنا عضو في حركة كفاية.

- مش كفاية!

- يعني إيه؟

- يا ابني اهتم قليلاً.. بلدك تغلي.. وهناك بشائر تغيير سيحدث في السلطة الفاسدة المسيطرة على الحكم.. لولا ذلك لما حصل الإخوان على كل هذا التأييد ولما دخلوا مجلس الشعب بهذه الكثافة ولم تيأس الناس من أحوالها إلى هذا الحد الذي تراه في توتر الناس وعبوسهم وعدم احتمالهم لشيء. هذا الشاب الذي انتحر في ميدان عبد المنعم رياض يائساً من حياته مفجراً نفسه ومن حوله، لم يصل المصريون إلى هذه الحالة من قبل..

- يا دكتور.. وهل تريدني أن أنتحر مثله لأثبت لك أنني مهتم ببلدي؟

صرخ بانفعال:

- أنت لا تفهم شيئاً.. ستظل لن تفهم شيئاً أبداً.

رددت بحدة:

- دكتور: هل لي أن أتكلم؟

- تكلم

- أنا لا أرى نفسي غير مهتم بقضايا بلدي، ها أنا أعمل معك، وأتحمل الظروف المادية البسيطة التي أحيا فيها لأنها ظروف بلدي وأهلي، وهم لم يفكروا من قبل -وأنا معهم- في أن نقفز فوق أوضاعنا بطرق غير شريفة، أخي يعمل صحفياً في "الدستور" بثلاثمائة جنيه يفتح منها بيتاً ويعول أسرة بينما رئيس تحريرها يقبض عشرات الآلاف، وأشقائي الثلاثة أطباء.. مرتب أعلى واحد منهم مائتي جنيه،رغم انه طبيب.. فماذا أيضاً؟

- وأنت؟

- أنا المفروض أنني أعمل مع أكبر أساتذة العالم في علم الاجتماع بمائتي وخمسين جنيها!

- آه.. ها أنت قلبت منطق الحوار.. كنا نتحدث عن الشرف والاهتمام بقضايا البلد فحولتها إلى عريضة دعوى تطالب فيها برفع مرتبك.

- يا دكتور.. الأمور مرتبطة ببعضها، والحياة تفاصيلها لا تنفصل.

- الآن هل ستعلمني أنت الحياة؟

صمتُ..

- اسمع... يجب أن تطور من اهتمامتك بقضايا بلدك.. انظر كم أكتب أنا عن ذلك؟ أنفقت عمري أكتب عن قضايا بلدي.

- أنت تكتب عن القضايا.. أما أنا فأعيشها وأكتوي بظروفها..

- (صرخ).. لا أريد إكمال المناقشة.. انتهى! أنت شاب مستهتر.. لن تفهم معنى النضال ولا أن تقف في صف بلدك.. وتحارب من أجلها.

نهضت واقفاً.. كان من الواضح أنه متحفز إلى حد كبير، وأننا وصلنا إلى نقطة الصفر.
اتجهت نحوة الباب بينما راح يصيح..
- جيل مستهتر.. شباب خائب... بلا قضية.
خلعت الخف من قدميَّ ولبست حذائي.. أدرت مقبض الباب.. وفتحته..
بينما أغادر من باب الشقة.. طالعني رجل ضخم للغاية جسده ممشوق ويرتدي بذلة داكنة أنيقة للغاية.. نظرت لوجهه، وطالعت نظرة عينيه القويتين، سألني مبتسماً:
- الدكتور موجود؟
أومأت له برأسي بلا رغبة في الإجابة.
قال لي:
- من فضلك اخبره أنني جئت
نظرت له نظرة خاوية وقلت له:
- اخبره أنت.
سمعت صوت الدكتور من الداخل يقترب.. أهلا.. من؟ تفضل...
طالعت وجه الرجل الضخم، وقد نظر لي محنقاً، وراح يرقب مجيء الدكتور..حتى جاء.. قال له :
- تفضل يا عزيزي.. انا جاهز.
تهللت أسارير الرجل وقال..
- اليوم سيكون المساج مزدوجاً لأنني لم أرك منذ أسبوعين..
ضحك الدكتور وقال :
- لا بأس.. أنا جاهز... وما أخبار (الريس)؟
ضحك الرجل وقال له..
- " زي البمب".. بالأمس كنت عنده، صحته ممتازة!
ابتسم الدكتور وأوما برأسه قائلاً: عظيم... تفضل.
فجأة انتبه إلى أنني مازلت واقفاً.. فصاح :
- أنت ماذا تفعل هنا؟
- لا شيء.. كنت أرى مدلك الرئيس!
- أنت لا يجب ان ترى الأكابر.. تفضل واذهب.
- حاضر يا دكتور... هل هذا المدلك أيضاً عضو في كفاية؟ هل له قضايا ضد السلطة الفاسدة؟
فجأة "رزع" الباب في وجهي منفجراً بدوي هائل.
وقفت أتأمل الباب وأنا لا أعرف ماذا أفعل أو أين أذهب.
ضغطت على زر المصعد، بينما أقف في انتظاره سمعت صوت الدكتور من الداخل:
- نادية.. شوفي الباشا يشرب إيه؟

....

الطريق من مصر الجديدة إلى المطرية..

الحيرة والأسئلة كأنما تطالعني من بين الأشجار ومنعطفات الشوارع.. الصواب والخطأ، النضال الحقيقي بين الناس المتعبة، ومن يكتبون عنهم وهم يشربون الأنخاب..

أن أظل معلقاً بين الكلمة والطريق، الطريق البعيد، الذي لا تبدو نهايته، الشباب الذي يتحرك بين الشيب والتاريخ ولا يرى آخراً للطريق والركض في دوائر المستحيلات، مصر والقضايا والنضال، الفقر والسلطة الفاسدة، الوزراء والرؤساء الذين أراهم، ويحملون وجهي الحق والباطل، الطريق...

الدكتور!..

من أي منعطفات الدنيا التقيت هذا الرجل؟ ولماذا؟

لا درب في الدرب، ولا إجابات تفضي إلا إلى الأسئلة...

يداي في جيبي الخاويين، وقلبي ملآن بالناس والتعب والمحبة..

وفي آخر الطريق عينان زرقاوان!

*

استيقظت على رنين الهاتف العصبي..

- آلو
- أنت مازلت نائماً؟
- لا!
- حسناً.. ارتدِ ملابسك ونلتقي عندي بعد نصف ساعة على الأكثر..
- حسناً أيضاً.

وضع السماعة فنهضت..

تناولت المنشفة، وسرت باتجاه الحمام، يوم مكرر، حياة مكررة بأكملها.

....

- صباح الخير يا دكتور.

ابتعد عن مدخل الباب، فدلفت إلى الداخل.. أفكاري مشوشة وأكاد لا أرى...

- صباح النور...

سرت وراءه إلى حيث مقعده عند الشمس، جلست أمامه.. فتح الأهرام وراح يطل على العناوين.. جاءت نادية من الداخل...

- صباح الخير يا أستاذ حمزة.. سأحضر لك القهوة...

ابتسمت لها محيياً شاكراً... فذهبت.

ظللت جالساً أتأمل الحديقة من أعلى.. طلبة المدارس الهاربون إلى الأحضان المختلسة والقبلات الهاربة من أعين المخبرين. وأطفال قليلون متناثرون تحت ذهب الشمس...

وضع الجريدة على الطاولة بينما جاءت نادية بالقهوة وصبتها لي في فنجاني المُعد أمامي...

قال لي :

- بالأمس أعلن عن الانتهاء من التقرير الاستراتيجي القومي الروسي...
- عظيم..
- هذا التقرير مهم للغاية ليتمكن أي محلل استراتيجي من دعم تحليلاته وآرائه بحقائق معلنة قومياً...
- عظيم والله.. لماذا لا نسمع عن تقرير مصري مماثل؟

نظر لي بغيظ، كأنما نطقت بخطأ فادح.

أكمل.. بينما تشاغلت بشرب القهوة لأصرف انفعاله عني.

- أنا أريد هذا التقرير!
- لم أفهم.
- ستذهب إلى السفارة الروسية الآن مع السائق.. هم لديهم علم بوصولك هناك، ستقابل نائب السفير، سيعطيك التقرير، كن مهذباً ودمثاً للغاية، وحذار من فعل أي شيء قد يريب، أنت في سفارة... مستوى سياسي رفيع.
- حسناً يا دكتور.. حاضر.
- بالمناسبة.. هذا التقرير لا يطلع عليه إلا بواسطة جهات عليا، والسفارات تخطر القيادة المركزية في روسيا بمن منحتهم نسخاً منه بالاسم...
- ....!
- هيا... اذهب الآن.. فموعدك لم يتبق عليه سوى ساعة فقط.

نهضت وأنا أرشف آخر ما تبقى في فنجان القهوة... بينما ظهر عبد المنعم في نهاية الصالة...

التفت للدكتور وقلت له:

- هل تريد أي شيء آخر؟
- لا... أشكرك...

دلفت في اتجاه الباب.. استبدلت الخُف بالحذاء، وخرجت من الشقة وخلفي السائق.

....

الطريق إلى السفارة الروسية، شوارع القاهرة الصباحية، وزحام السيارات من غمرة إلى ميدان التحرير، كنت أتحسس حقيبتي الجلدية، وأتابع الطريق عبر الزجاج، الوجوه المتعبة التي تسير على ضفتي الطريق، وتلاميذ المدارس، البائعون المفترشون الأرض ببضاعتهم رخيصة الثمن..الناس البسطاء يتصبب العرق من وجوههم الكادحة.. مصر!

وصلنا إلى كوبري قصر النيل، تركنا الأوبرا على يميننا، ودلفنا يساراً على ناصية الشيراتون، باتجاه السفارة الروسية، صف عبد المنعم السيارة على الجهة المقابلة لها. اقترب منا شرطي، وسألنا عن غايتنا.. فأجبته بأنني على موعد مع نائب السفير، تركني وعاد إلى ثكنته متشاغلاً بالتطلع في وجوه المارة وإن بدا لي أنه غير مُركِّز.

غادرت السيارة.. وعبرت إلى الجهة الأخرى إلى حيث السفارة...

ضغطت على الجرس وانتظرت.. فأجابني صوت بعربية ذات لكنة واضحة.

- مرحبا...من؟

- اسمي حمزة قناوي.

غاب الصوت قليلاً.. وسمعت صوت أوراق... تفتح قبل أن يعود الصوت قائلاً:

- أهلا بك.. سنفتح لك البوابة، فتفضل واجلس في الصالون.

أغلق الخط.. فظللت واقفاً مكاني..

فتحت البوابة آلياً ولاح صالون به أنتريه أسود جلدي فاخر.. فدخلت..

جلست على الكرسي القريب لي.. بينما أغلقت البوابة خلفي، نظرت في مواجهتي فوجدت بوابة أخرى مغلقة، خلفها تلوح سلالم السفارة الفخمة، وزجاجها الداكن...

كنت حبيساً بين بوابتين..أنتظر..

السفارة تلوح عبر البوابة الحديدة المقفلة، باب ضخم مهيب، زجاجه أسود، رحت أتأمل السقف في القاعة الصغيرة التي أجلس فيها، ثلاث كاميرات بادية للغاية في زوايا المكان، مسلطة على مكان الجلوس. ابتسمت وأنا أنظر فيها!

انفتح باب البوابة ببطء.. وخرج منها رجل فاره الطول، قوي الجسد، أشقر، اقترب مني مبتسماً.. نهضت، وانفتحت البوابة / القفص، بينما رحب بي الرجل في اهتمام وهو يحدق في عينيَّ بقوة وقال بعربية ممتازة :

- أهلا سيد حمزة..

- أهلا بك.

قال لي: هذه فرصة سعيدة للغاية أن ألتقي شاباً مصرياً مجتهداً له اهتمام بالعلاقات المصرية الروسية.

قلت في صدق: الشعب المصري كله يحب الشعب الروسي، من أيام عبد الناصر ومن قبل ذلك، هذا تاريخ كبير.

ضحك الرجل وهو يضع يده على كتفي وقال لي: تفضل.

جلست.. بينما قال لي:

- لن أضيع وقتك.. أعرف أنك أتيت من أجل تقرير الأمن الروسي، تريد نسخة منه للدكتور (...).

- نعم.

- اقترب مني قليلاً وقال..

- هل من الممكن أن تعطيني رقم فاكس لأرسل لك عليه التقرير؟

قلت:

- ألا يمكن أن تعطيه لي هنا الآن؟

ابتسم الرجل وقال:

- سيد حمزة، هذه تعليمات أمنية. وأتوقع أن أجد منك التفهم والتعاون.

- قلت: لا بأس..
أعطيته رقم الفاكس الذي هو نفس رقم هاتف بيتي..
فنهض واقفاً وقال لي:
قبل أن تعود إلى منزلك ستجد التقرير هناك.. اطمئن.. وتحياتي للدكتور.
شكرته ونهضت..
فعاد إلى بوابته الداخلية بينما توجهت للأخرى.. قال لي:
- ونتمنى أن نراك في روسيا قريباً!
شكرته وأنا أبتسم وانتظرت حتى فُتح القفل الأتوماتيكي للبوابة فخرجت إلى الشارع..
سرت بمحاذاة النيل.. حتى محطة المترو.. ووقفت في زحام المنتظرين على الرصيف.

....

فتحت لي أمي الباب وهي تمسك أوراقاً تقربها من عينيها وقد ارتدت نظارتها.
(أمي قارئة جيدة للغاية، وتقرأ القليل من الانجليزية)..
قالت وهي مازالت تقرب الورقة من وجهها:
- جاءتك رسالة على الفاكس من أحد أصدقائك فيما يبدو..
قلت: وهل تقرأين بالانجليزية أيضاً؟ ما هذا التطور؟
قالت: طبعاً! انتظر وسأخبرك باسمه..
قربت الأوراق أكثر من عينيها كأستاذة جامعية وراحت تقول وهي تباعد بين الحروف
- اسمه فـ لا ... د ي مير... ب و .. بو..
رفعت عينيها عن الأوراق وقالت لي:
- هل تراسل الآن صديقاً جديداً اسمه بوتين؟

*

يوم آخر جديد لا شيء فيه سوى شارع نهرو في ذاكرتي..
استيقظت ناسياً اليوم والتاريخ أو الوقت أو ماذا أفعل في حياتي سوى وجه الدكتور وأنني على موعد معه والتزام ما.. لا أذكر ما هو.. ولكن هذا الطبيعي والضروري.
ارتديت ملابسي وشربت قهوتي دون أن أبتسم.. كان كل شيء فيَّ جامداً.. حتى ذاكرتي.. كنت أعرف أنني سأنزل لألتقي شوارع أعرف شكلها وشجيرات أعدها كل يوم في طريق ذهابي وعودتي مرتين. قبل أن أصل لبيته.. فيفتح لي الباب مبتسماً.. باب الكهف!
مشيت في الطريق..
كنت مترنحاً حزيناً... في شارع جسر السويس رأيت شاباً مبتسماً يمسك بيده يد رفيقة له خجولة ويسيران بجانب سنترال مصر الجديدة.. نظرت في يدي.. كان فيها أوراق وقصاصات صحف، تأملت طريقي وواصلت سيري..
أمام شارع نهرو رحت أتأمل الحديقة والشباب والفتيات المحتمين بالأشجار اللائذين ببعضهم البعض محتمين من الوقت سعداء معتنقي الأذرع..

رحت أنظر لعمارة الدكتور المقابلة.. الطابق السادس.. الباستيل!

*

- أهلاً وسهلاً.. تفضل.

دخلت ووضعت الأوراق على الرف الصغير الملاصق للباب بينما أخلع حذائي وأرتدي الخف.. نظرت للدكتور فوجدته جلس أمام التلفزيون مشدوهاً.. كان عصام العريان يتحدث لقناة الجزيرة معلقاً على اتهامات تواجه الإخوان المسلمين بأن الإخوان لو قفزوا إلى السلطة فسيمارسون الدكتاتورية والتسلط والإجهاز على أنفاس الشعب المصري – حسب ما قال حسني مبارك في حواره التلفزيوني مع عماد الدين أديب بقناة الأوربت قبل الانتخابات الرئاسية - وكعادته بدا عصام العريان مقنعاً هادئاً.. بأن الدكتاتورية الحقيقية هي التي تتمثل في التشبث بمقعد السلطة لربع قرن كامل والإجهاز خلاله على المشاركة السياسية والتعددية السياسية في الوسط المصري وتفعيل قانون الطوارىء ربع قرن، وهو الذي لا يعمل به عادةً سوى لأيام في أي بلد من العالم وفي ظل ظروف استثنائية، وعن مسألة الانفراد بالسلطة ابتسم العريان وقال إن الإخوان يرحبون بمد يد التواصل مع جميع عناصر الطيف السياسي المصري إثباتاً للتفتح والليبرالية، وأنهم "باعتبارهم كتلة المعارضة الأكبر في البرلمان "! يرحبون بالتعاون مع كافة الأحزاب الأخرى من أجل مصلحة مصر.

اندفع الدكتور وهو يهب من مقعده صائحاً:

- كذب! هذا كذب.. الإخوان! الإخوان الذين يتحالفون مع الشيطان من أجل الوصول للسلطة يمدون يد التعاون؟ لمن مثلاً؟ للحزب الشيوعي المصري؟ ولكن نحن في عرفهم "كفرة "! فهل سيمدون يد العون للكفرة من أجل ميثاق الشرف الوطني والعمل الوطني؟ هؤلاء سيمدون لنا يد الرجم والحد! اغلق التلفزيون..

- حسنا يا دكتور ولكن اهدأ فقط.. تعرف أن..

- أنت الذي لا تعرف شيئاً! هؤلاء الإخوان تحالفوا مع الانجليز أثناء احتلالهم لمصر ليثبوا على السلطة، انظر إلى وجه محمد حبيب.. انظر لعينيه.. تأمل فقط كم الشراسة والمناورة والالتفاف الذي يملؤها. تخيل عندما يصل إلى السلطة ماذا سيفعل في الناس؟

- نعم.. ولكن ربما فعلا الإخوان يريدون ان يمدوا يد التواصل والتحالف مع الأحزاب الأخرى من أجل مصلحة البلد.

- بلد؟ أي بلد؟ هؤلاء يرون مصر مركزاً إقليمياً في دائرة كبيرة هي العالم الإسلامي. تخيل؟ مصر بكل تاريخها وخصوصيتها.. قطر في إقليم أهم.. أي هراء؟

- طيب يا دكتور.. ربما هم..

- هم كاذبون... ملتفون وذوو أغراض ولا يفعلون شيئاً لوجه مصر.. لوجه الوطن. ولعلمك! نحن في الحزب الشيوعي المصري، منذ اللجنة الوطنية للعمال والطلبة والتكتل الثوري لم نحاول يوماً أن يكون لنا اتصال مع الإخوان المسلمين، ولا هم حاولوا.. يعرفون أننا (كاشفينهم) تماماً.. ولا نسمح لأغراضهم بالتسلل لنا أو عبرنا. وكل ما قاله (العريان) الآن من تواصل الإخوان مع الأحزاب الاخرى وطليعة العمل السياسي في مصر كلام من أجل الإعلام والشاشات يا أستاذ.. هؤلاء كذبة..

كان الدكتور يتكلم بسرعة وانفعال..ووجهه محتقن.. قلت :

- طيب ما رأيك أن تفعل شيئاً آخر غير الكلام عن العريان والإخوان... تعال نرى ما وراءنا أو...

قاطعني وهو يلوح بيده... ويعود ليجلس على كرسيه في بطء وصعوبة :

- اسمع .. اذهب إلى غرفة المكتب.. وانظر إن كان هناك أحد قد اتصل بي... فقد شغلت الآنسر ماشين منذ الأمس.. ولا رغبة لي أن أرد على تليفونات... انظر من اتصل بي.. دون رسالته. في ورقة.. واحضر لي رقمه.

نهضت وأنا أراقب وجه الدكتور... كان شارداً متعباً... عندما تركته وتوجهت للطرقة في طريقي إلى المكتب.. مررت على المطبخ.. نظرت بداخله.. كانت "أبلة" نادية تجلس على مقعد خشبي في أحد الأركان يدها على خدها وشبه نعسانة!.. ناديت عليها فانتبهت..

- أيوة يا أستاذ حمزة.

- ممكن تعملي ليمون للدكتور؟

نهضت من على الكرسي مباشرةً واستدارت نحو الثلاجة... أخرجت ليمونتين... وضعتهما على الرخامة قبل ان تستدير لي

- وأنت يا أستاذ حمزة...؟ أعمل لك قهوة؟

اومئت برأسي لها مبتسماً وتركتها وذهبت إلى غرفة المكتب. فتحت الباب وأخذت أنظر إلى التليفون على سطح المكتب.خطوت بهدوء إلى الداخل. جلست إلى المقعد.. ورحت أنظر في أزرار "العدة" القديمة.. هذه لسماع الرسائل المسجلة. وهذه لاسترجاعها وهذه لحذفها وهذه لإيقافها المؤقت.. لا بأس.. ليس الأمر صعباً.

قرأت المكتوب على شاشة التليفون (لديك رسائل صوتية).

تناولت ورقة وقلماً أمامي... وفردتهما على المكتب وضغطت على الزر.

طالعني صوت فتاة متوتر قليلاً:

- آلو.. ازيك يا دكتور.. أنا وفاء قابيل.. انت هنا في مصر ولا مسافر.. أرجو تتصل بيا ضروري.

صافرة نهاية المكالمة...

كتبت المكالمة ونقلت الرسالة كما سمعتها على الورق.

ضغطت زر المتابعة فانطلق تسجيل آخر. سمعت صوتاً واثقاً لرجل ثابت ذي صوت قوي:

- آلو.. ازيك يا (...).. أنا جورج إسحاق.. اتصلت بك كثيرا بلا جدوى.. رجاء تتصل بي لنرى ما تفضلت بعرضه من أجل الحركة.

صافرة!

جورج إسحاق! حركة كفاية...ما الذي سيفعله الدكتور للحركة؟

ضغطت الزر.

- آلو... دكتور!.. أنا أمين فخري عبد النور.. كنت عاوز اتكلم معاك شوية.. شايف اللي بيحصل في الوفد؟... لو عندك وقت عدي عليا في الزمالك شوية.. تحياتي.

أمين عبد النور! من هو أيضا؟

نقلت الرسائل كما سمعتها.

ضغطت زر المتابعة.. جاءني صوت أعرفه جيداً.. صوت حميم وقريب من الدكتور.

- .. انت فين يا حبيبي. واحشني فعلاً.. انت هنا ولا في فرنسا؟ عاوزين نسهر شوية لو عندك وقت. طمني عليك. سعد زهران.

مخلص للغاية هذا الرجل.. الوحيد الذي يسأل عن الدكتور ويزوره دوما.

صوت نسائي عصبي.. خلت انني سمعته منذ قليل:

- آلو.. أنا وفاء قابيل يا دكتور.. ما ردتش عليا ليه؟ هاه؟ ما بتكلمنيش ليه؟ (ارتفع صوتها بعصبية ملحوظة إلى ما يشبه الصراخ) يا دكتور كلمني! أغلقت السماعة في عنف!

من وفاء قابيل هذه؟ صوتها فتيّ! لماذا كانت عصبية؟ ولماذا لا يكلمها الدكتور؟

جاءني صوت مرتبك..

- آلو.. يا دكتور.. اسمي حلمي سالم.. من حزب التجمع.. باكلمك من طرف مدام فريدة النقاش.. هي بتحييك على الكتب اللي بعتهالها.. وبتدعوك تعمل ندوة في الحزب.. تحياتي.. اسمي حلمي سالم!.

ابتسمت لصوته الذي ارتبك وتوتر في نهاية المكالمة كأنه مذعور من شيء!

- آلو.. دكتور.. أنا مندوب من مكتبة الشروق الدولية.. أريد إبلاغك فقط بأننا في انتظار كتابك الجديد لنشرع في تنفيذه، والعقد جاهز.

نقلت الرسالة على الورقة..

- آلو.. ازيك يا (...).. عامل ايه! ما بتسألش ليه؟ طمني عليك.. أو ابعت لي عبد المنعم. نادية.

استعدت الرسالة الصوتية وسمعت الصوت العذب للمرأة التي تحدثت. خمنت عمرها.. خمسينية او تزيد.. تعرف عبد المنعم!

نقلت الرسالة على الورقة وكتبت في نهايتها.. مدام نادية.

ضغطت الزر.. طالعني صوت رجل حازم يتحدث ببطء وثقة، كأنما خلته يبتسم!

- مساء الخير يا عالِمنا الجليل. أرجو أن تكون بخير.أنقل لك تحياتي وتحيات الأستاذ عبد المنعم أبو الفتوح. أرجو أن تتصل بنا لنتواصل. عصام العريان!

*

استيقظت على الهاتف الذي صار رنينه حكراً على شخص واحد فقط..

- آلو...
- صباح النور.
- وهل قلت صباح الخير؟
- باعتبار ما سيحدث
- صرت غلباويا!

- خير يا دكتور.
- تعال لي حالاً.
- سأقول لك متعب ولم أنم أربع ساعات منذ تركتك وستصرخ وتسخط وترفدني وهمياً.. ما رأيك أن نختصر الأمر هذه المرة وتتركني أنام فعلاً؟
(ارتفع صوته صارخاً): قسماً بشرفي إن لم تأتِ بعد ربع ساعة سأرفدك حقاً وفعلاً!
- شفت. كما قلت بالضبط. لا شيء يتغير!
- انت يا لعنة شباب مصر... يا أكسل شاب رأيته في حياتي إن لم تأت الآن فلن أخبرك بالعواقب.
"رُزعت" السماعة في وجهي..! فأعدت السماعة لوضعها واغمضت عينيَّ وأنا أزفر..

....

فتحت لي نادية الباب مبتسمة كعادتها..
- صباح الخير يا نادية
- صباح النور يا أستاذ حمزة..
اقتربت بوجهها مني وقالت هامسة: الدكتور مستنيك من الصبح، ومارضيش يشرب القهوة من غيرك!
ابتسمت بينما علا صوت الدكتور من الداخل متسائلا بدهشة:
- مين يا نادية؟ مين اللي جاي عالصبح دا؟
(!)
ابتسمت وأنا أهز راسي في غيظ وادخل..
- أنا!
- آه.. نسيت انك قادم.
نظرت إلى القهوة... لم يصب منها قطرة في فنجانه..! (نسي أنني قادم حقاً)!
خلعت الحذاء وارتديت الخف الأزرق.. رحت أتأمله وقد خطر لي هاجس، رحت أتصور نفسي مرتدياً الكيمونو الياباني أيضاً.. سرحت واستمررت أحملق في الخف.
- عاجبك الخف؟ هل ستكتب فيه قصيدة؟
علا صوت الدكتور بالصراخ فأفقت.. ورحت أنهي ما أنا فيه.. واتجهت له.
كان يجلس إلى جانب النافذة المحببة له وعلى وجهه نظارة الشمس، وأمامه القهوة والجرائد..
- ها... شربت قهوة؟
رحت انظر إلى الفنجانين الفارغين اللذين وضعهما أمامه إلى جانب إبريق القهوة.. قلت:
- متى تظن أنني سأشرب إن كنت أنتزع من سريري كل يوم في السادسة صباحاً وأركض في الشوارع كالمجنون وإلا فهناك عقوبات ولعنات؟
- لا أريد كلمة أخرى.. أفهم من كلامك انك لم تشرب..

- نعم!

تناول الإبريق وارح يملأ الفنجانين وقد ابتسم.

- خير يا دكتور..

نظر لي وعاد ينظر جهة النافذة.. ويصمت.. بعد برهة تكلم... قال

- أرى أننا نحن الاثنان تعبنا من العمل!

- نحن الاثنان؟ تقول نحن الاثنان؟

نظر لي نظرة خاوية واكمل كلامه كأنه لم يسمع..

- لهذا أفكر في فكرة طليعية.

- يا سلام.. طليعية! هل سنعيد تكوين "إسكرا"..

صاح صارخاً:

- ولا كلمة.. لا أريد حرفاً يا كسول يا مستهتر..

صمتُ.بينما أخذ ينظر لي في غضب..

- عندما أقول نحن الاثنان يعني نحن الاثنان.. نعم.. أنا أيضاً مرهق من العمل.. هل تظن كتابة المقالات هذه شيء سهل؟

- ....

- اسمع.. (سأمنحنا) إجازة.. نحن الاثنين!

- طيب.. الحمد لله..

- وسنسافر معاً..

- أين؟

- اقترح أنت.. فأنا ديمقراطي ومنفتح كما تعلم.. بل قرر أنت فقد تعبت معي كثيراً ومن حقك اختيار المكان..

- أنا أحب الإسكندرية... هذه المدينة في الشتاء أروع منها في الصيف كثيراً!

- عظيم... انا أيضاً أعشق اسكندرية... عظيمة.. لنا فيها ذكريات أنا وعبد العظيم أنيس وأمين العالم.. يا سلام. أنت شاب ملهم!

- أشكرك يا دكتور.. أخيراً سنستريح من العمل ولو أيام. لا أصدق.. ومناجم الكتب والتراب التي في البلكونة..

- خلاص إنسَ يا عزيزي... إجازة وحسب.. وليس أياماً فقط إنما أسبوع.. أسبوعين.. كما تحب

- كمان؟ نعم أسبوعين!

- طيب يا سيدي هيا اجهز.. انت في فترة إجازة لمدة يومين قبل السفر.. اعدد نفسك وخذ تجهيزاتك..

- حسنا يا دكتور... إلى اللقاء الآن إذن..

نهضت من على المقعد نحو باب الشقة.. استبدلت الخف بالحذاء.. وفتحت الباب.. علا صوت الدكتور.

- يا حمزة..
- ....
- أنا أحب أسوان أكثر.. سنسافر أسوان!

*

هدر ضجيج العجلات الحديدية للقطار المندفع بينما رحت أتأمل الترع التي يمر عليها والحقول والصبية الفقراء والجسور من وراء زجاج النافذة التي يفصلني داخلها المكيف عن الخارج المليء حياة وطبيعة وفقراً.

نظرت أعلى المقعد.. كانت حقيبتي الكبيرة تحتل مساحة كبيرة من الرف..

إلى جواري جلس رجل صعيدي في قميص وبنطلون.. نحيف وأسمر وذي شارب كث.. كان غافيا..

رحت أنظر في الساعة.. كانت تشير للثامنة صباحاً.. أمامي ٤ ساعات وأصل إلى أسوان..

رحت أتأمل القطار الذي امتلأت مقاعده بالركاب وقد نام منهم من نام.. وآخرون فردوا الصحف وغيرهم يفطرون.. وأتابع أسماء المحطات التي تمرق عبر اللافتات التي تمرق بسرعة شديدة خارج النافذة للمراكز التي لا يتوقف عندها القطار.

تأملت جبلا ضخماً جهة الغرب يسير بمحاذاة القطار..

فكرت في صديقي الدكتور.. ركب الطائرة بالأمس وحجز لي في القطار!

لا شك أنه في الفندق الآن.

ابتسمت وانا أتذكر مكالمته الأخيرة، أكد لي أنه لم يجد تذكرة إضافية على الطائرة واضطر للحجز لي على القطار.. سألته.. ولماذا لا يرافقني في القطار؟ "فرزع" السمَّاعة وهو يسب ويلعن!

لعله على حمام السباحة الآن كالمعتاد! كما يفعل في ناديه عندما يتذكره مرة أو مرتين في العام.

مر إلى جواري موظف التذاكر ينظر في الوجوه..

أخرجت دفتراً وأخذت أخط عليه كلمات..

.. عصام العريان.. أبو الفتوح.. أمين فخري عبد النور.. إسكرا.. الحركة الوطنية للعمال والطلبة.. هنري كورييل.. شاهندة مقلد.. عبد العظيم أنيس.. محمد حسنين هيكل.. كامل زهيري.. عبد الرحمن بدوي.. لطيفة الزيات..

....

العينان الزرقاوان!

....

رحت أجرجر حقيبتي الثقيلة خلفي بينما أحمل الحقيبة الأخرى الصغيرة على كتفي في محطة أسوان، وأنا أتجه إلى خارج المحطة باحثاً عن تاكسي يقلني إلى فندق كتاراكت. ظللت واقفاً أتأمل خارج المحطة وأشاهد البشر.. البائعين وسائقي التاكسي، والجنوبيين الفقراء.

رآني أحد السائقين فقفز إليَّ متجاوزاً الدرجات إلى حيث أقف، وسألني عن وجهتي، كان صعيدياً قحاً.. أسمر وفي جلباب نظيف مكوي، وعيناه تلمعان نباهة. قلت له: فندق كتاركت. قال

لي.. تفضل. حمل حقائبي بينما حاولت منعه، وقفز بها نحو السيارة، وأدارها. بعدها كنت إلى جواره.. أشاهد الطريق والنيل الذي يجري بمحاذاتنا على اليمين.. وقد امتلأ الكورنيش بفتيات من المدارس، سمراوات وقمحاويات وكن جميلات فعلاً.

مررنا على حديقة فريال، التي أمام فندق كتاركت وتقع على هضبة مرتفعة للغاية عن النيل، الفندق خلفها تماماً. حديقة ملكية، على إحدى ربى أسوان.

أمام الفندق نزلت وأنزل السائق حقائبي..

بينما أخرجت له الأجرة ووضعت معها بقشيشاً صغيراً.. وأعطيتها له.

جرجرت حقائبي إلى مدخل الفندق، أجانب يتناثرون في قاعته على المقاعد الوثيرة يدخنون السيجار وأمامهم كؤوس ملونة..

توجهت إلى موظفة الاستعلامات.. كانت مصرية وجميلة الملامح.

- صباح الخير.. هناك حجز باسم حمزة قناوي.

راحت تنظر لي برهة.. وكأنما خلت عينيها لمعتا. ابتسمت وردت:

- أنت إذن السيد حمزة قناوي!

- ....؟

- لا شيء يا سيدي، ولكن هناك شخص في الغرفة المجاورة لك – الذي قام بالحجز لكما معاً – سأل عنك إلى الآن إحدى عشرة مرة، وكلما أخبرناه بأنك لم تأتِ بعد يصيح ويسخط.فكرت أن اغيِّر ورديتي بسببه!

- آه! لا بأس. عرفته على العموم. سامحيني فهو كبير السن.. و..

- نعم.. هذا جدك ولا شك.

- آه..!

- طيب سأتصل به لأخبره أنك وصلت.

راحت تضغط على أرقام الهاتف أمامها قبل ان تتوقف فجأة.. وتنظر لي. ناولتني السماعة وقالت:

- يمكنك أن تكلمه أنت..

- آ.. يعني..! طيب.

تناولت منها السماعة.. ورحت أطلب رقم الغرفة، وأنا أتوقع البراكين تنفجر في وجهي. شعرت بيد وضعت على كتفي.. التفت خلفي.. فوجدت الدكتور. كان يبتسم ابتسامة من سينتقم!

- آ.. صباح الخير يا دكتور..

- صباح النور، متى وصلت؟

- الآن.. فوراً

- ومتى وصلت أسوان؟

- آ.. منذ ساعة.. فقد توقف القطار طويلاً في الأقصر، وتأخر في محطات أخرى و..

- حسناً..نتحاسب فيما بعد، أنا في غرفة ٨٠٢، في الطابق العاشر، وانت في ٨٠٥. تعال لترى الغرف وبعدها نرى ماذا سنفعل.

سبقني ناحية المصعد.. بينما نظرت لي الموظفة مندهشة. فابتسمت لها وأنا أتناول منها المفتاح، وأتبعه إلى حيث يقف في انتظار المصعد.

....

كان المنظر مدهشاً من الطابق العاشر، حيث غرفة الدكتور. كان النيل شديد الزرقة أسفل البلكونة، وقد سارت فيه مراكب شراعية، فردت أشرعتها البيضاء وراحت تتهادى في بطء، على اليمين حديقة فريال الملكية، المنتمية للعهد الملكي، والتي سميت باسم الملكة فريال.وكان البطء الذي تسير به المراكب لافتاً، وصغر حجم المشهد بأكمله من أعلى يجعل الرائي يتخيل أنه يطل على حلم أو أنه يتخيل لوحة من بعيد!

ابتسم الدكتور وقد أشرق وجهه، وقال:

- هاه: ما رأيك يا بطل؟
- عظيم يا دكتور.. الحقيقة الغرفة تشرح، الفندق كله جميل وأسوان كلها.
- آه.. وغرفتك أجمل أيضاً.. ما رأيك أن تذهب لتراها؟
- حسناً.

غادرت الشرفة بينما ظل هو واقفاً على ابتسامه. قلت:

- يا دكتور. ما رأيك ان تأتي معي لتشاهد الغرفة؟
- لا داعي.. أعرفها جيداً!

....

رحت أحدق في الجبل الضخم الممتد أمام بلكونة غرفتي، والذي ترتمي في حضنه مساكن وبيوت نحتت في قلبه! لا نيل ولا حدائق!

تذكرت ابتسامة الدكتور: " أعرفها جيداً".

آه! أخذ الغرفة الخلابة وترك لي هذه! الأمر لله.

رحت أفتح الحقيبة واخرج ملابسي منها وأضعها في الدولاب..

أمام السرير ثلاجة صغيرة أسفل التلفزيون..

تأملتها قليلاً.. قبل أن أتجه لها.. انحنيت وفتحتها.. طالعتني زجاجات عصير ومغلفات شوكولاتة وزجاجات خمر وبيرة. (ما هذه البلوة؟)

أغلقت الثلاجة..

ما أن أغلقتها حتى رن جرس الهاتف..!

- آلو.. من؟
- من سيكون غيري يا فالح؟ من يعرف رقم غرفتك في الفندق سواي؟ من يعرف هذا الفندق الفاخر من أسرتك أصلا؟
- طيب طيب... خير!
- اسمع.. لديك ثلاجة صغيرة في الغرفة.. صحيح؟
- نعم

(علا صوته بالصراخ فجأة) – حذار أن تمد يدك على شيء فيها.. أنا غير مسئول!
صحت مرعوباً:
- لماذا يا دكتور؟ هل الغذاء الموجود بها مسمم؟
- لا.. ولكن أنا لن أدفع جنيهاً أكثر من إقامتك بالغرفة! ما تريده أكثر من ذلك ادفعه أنت.
- ألهذا تطلق هذا التحذير المريع يا دكتور
- نعم..!
- حاضر..
- لا بأس إذن.. إلى اللقاء!
وضع السماعة. فجلست على حافة السرير أزفر.. لا فائدة..
والآن.. ماذا سنفعل؟
وقفت أتأمل الجبل والقرى المرتمية في ظلام الليل أسفله والبيوت المنحوتة في قلبه..
وأشرد..
أي حياةٍ يعيشها الناس الذين يسكنون هذه القرى؟ ويستوطنون الجبل؟ كان القيظ شديداً.. رحت أتأمل المشهد من بعيد.. شردت.
رن الهاتف.. فعدت إلى الغرفة..
- آلو.. من؟
- من؟ من مرة اخرى؟ قسما أنك لو سألت "من" هذه مرة أخرى سأرفدك!
- .. من إذن؟
- (صرخ)! طيب أنت مرفود يا فاشل يا أكسل شباب مصر .
أغلق السماعة في عنف بعدما سمعت صياحه من الشرفة وليس عبر التليفون!
جلست أضحك..
وأنا أتخيل اتصاله الثالث لكي يلغي قرار الرفد..
أخذت أحدق في الهاتف..
لم يرن..
مرت دقائق طويلة.. ولم يرن الهاتف..
توجست..
فجأة طرق الباب!
- آ... من! أقصد.. ي.. من؟
تكرر الطرق.. فنهضت أفتح الباب وأنا أتوقع المصائب..
فتحت الباب بحذر.. وأنا أطل برأسي من على حافته على من خلفه. متوقعاً أن يطالعني واحد أعرفه طويل وغاضب!
نظرت إلى وجه الرجل الأسمر الذي يبتسم بأدب أمام الباب.

- مساء الخير...
- ....
- الدكتور ينتظرك في اللوبي.
- اللوبي؟ أين هذا اللوبي؟
- في الفندق القديم.. تمر فقط من الممر الفاصل بينهما.. او تستعمل البوابة الخارجية من الشارع.. وتصل له.

....

ارتديت بذلتي الكاملة – من أجل اللوبي الذي لا أعرف ما هو - وغادرت الغرفة...

سرت في الممر.. ووقفت أمام المصعد... إلى أن وصل..

دلفت إليه.. وضغطت زر الطابق الأرضي.. توقف في الطابق الرابع.. ودخلت فتاة أوروبية وسيدة شقراء كبيرة في السن... كانت الفتاة حسناء إلى حد ملفت... كانتا تتضاحكان بجلبة... حتى انهما لم تنتبها إليّ..

فجأة حانت التفاتة من الفتاة.. فرأتني في ركن المصعد. هدأ ضحكها.. وأخذت تتأملني في شيء من الاستغراب.

نظرت لمرافقتها.. كانت تتظاهر باللامبالاة وعدم متابعة الموقف وتنكش شعرها في مرآة المصعد.

ظلت عينا الفتاة معلقتين عليّ..

انفتح باب المصعد.. فانتبهت إلى أننا وصلنا الطابق الأرضي.. ظللت واقفاً مكاني منتظراً أن تخرج هي أولاً.. ابتسمت لي وخرجت.

توجهت إلى الباب الزجاجي..تباعدت ضفتاه فور وقوفي أمامه.. خرجت إلى الحديقة...وسرت باتجاه فندق كتاركت القديم...

كان اللون الأحمر يميزه عن الآخر الحديث الذي نسكنه، وكان أقرب إلى هيئة القصور..

دخلت من بوابة صغيرة في نهاية الممر..

هذا إذن فندق كتاركت.. المفضل لدى الملك فاروق..! وأنا ذاهب لأسهر في اللوبي الخاص به مع الشيوعي القديم! يا عيني.

على البعد طالعت زحاماً كثيراً ورواداً كثيرين تجمعوا على مناضد بيضاء.. في شرفة تطل على النيل مباشرةً.. كان هذا هو اللوبي كما وُصِف لي..

توجهت إليه..

صعدت الدرجات الرخامية البيضاء إلى حيث علوه... ووقفت أتأمل الوجوه.. كان معظمهم أجانب.. أوروبيون.. فتيات كالتفاح.. ونساء حمر البشرة! ورجال ضخام الأجساد أنيقون..

أخذت أبحث عن واحد أعرفه..! وجدته يجلس على منضدة بعيدة.. مفرداً إلى جوار النيل تماماً... كان يرتدي نظارته الطبية الملونة التي لا تكشف عينيه لمن يواجهه..

خمنت أنه يراني..!

توجهت إليه..

- مساء الخير يا دكتور.
رفع رأسه تجاهي كأنما اندهش من وجودي...
- آه... أنت هنا؟
- نعم.
- ألم أرفدك؟
- نعم... وبعدها أرسلت لي لآتيك هنا!
- آه صحيح.. اجلس.
جلست أراقب الفتيات والنساء مبتسماً.. جاء النادل ناحيتنا.. وسألني بالانجليزية..
- yes Sir! What can I Introduce?
رد عليه الدكتور سريعاً..
- أنا سآخذ عصير مانجو..
- وأنا مثله.
(انفجر الدكتور صائحاً.. – لن تأخذ مثلي... لا تقلدني... خلي عندك شخصية!
- أريد قهوة مضبوط.
راح النادل المرتبك يدون ما يسمعه وقد توتر..
عاد الدكتور ينفجر:
- قهوة في المساء؟ تريد ألا تستيقظ طبعاً للغد.. تظل ساهراً و(بلاها) شغل.
نظرت للرجل الواقف أمامنا وقد احتار تماماً وارتبك..
- لن آخذ شيئاً..
ذهب...
بينما تنهد الدكتور في ارتياح...!
عدت أراقب الأجانب وكؤوس الشامبانيا والويسكي والقبلات المترنحة..
الوجوه الناعمة الملأى بالوفرة والصحة والجمال..
(الوجوه النحيلة المتعبة التي رأيتها من زجاج القطار عبر المسافة من الجيزة وحتى أسوان يمتصها الجوع وعناء الحقول).
لمحت فتاة المصعد في فستانها الوردي القصير.. تنظر نحوي وتبتسم..
كانت تمسك كأساً في يدها وترنو لي..
نظرت للدكتور.. كان مايزال شارداً مع مياه النيل..
- تعرف!
- ماذا يا دكتور؟
- كنا في المعتقل ذات شتاء كهذا، إثر حملة هيكل على المثقفين وتهديده بأن يضع الأقفال على أفواههم.. كان هناك فريقان في المعتقل.. فريق يرى ضرورة المصالحة مع النظام الحاكم والكتابة له بالتراجع عن الخط الثوري الاحادي الذي انتهجناه خارج الإطار الأشمل للدولة وهيكلها. وفريق آخر يرفض هذا الرأي ويتمسك بالمعتقل والأمر الواقع.

ظللت انظر إليه دون أن أرد منتظراً ان يكمل..

- .. كنت أنا ممن تزعموا التيار الأول الذي يدعو للمصالحة، وكان أن كتبت رسالة إلى الرئيس جمال عبد الناصر من المعتقل، وعرفت أنها وصلته، ولكن الزملاء المعتقلين من مناهضي الفكرة أضمروا لي عداءً منذ ذلك اليوم لا تزال آثاره موجودة إلى اليوم، إقصاءً وإبعاداً.. لا تتخيل أن الوحدة التي أعيشها هذه يا بني، وعدم دعوتي إلى الكثير من المحافل وصفحات الصحف والمنتديات والمؤتمرات التي تنادي بالأفكار التي كنت أحد مؤسسيها جاء من فراغ! هذا تاريخ. تاريخ استمر في الأذهان والمواقف، ولم ينتهِ مع الأيام أبداً.

- ولماذا تمردت على المعتقل بقدر ما يعني شرفاً ونضالاً لصاحب القضية؟

- ولماذا أعتقل إذا كان عندي قضية لبلدي ولا أكون حراً لخدمتها؟

- وكيف انتهى الأمر؟

- هربت من المعتقل

- كيف؟

شرد... نظر إلى البعيد.. إلى الجهة الأخرى من النيل.

- هذه قصة أخرى، لا أذكر سوى صورة شاب على الشاطئ الفرنسي تلقي به مركبٌ في البحر ليكمل المسافة سباحة إلى الشاطيء بملابسه الكاملة! وفور ملامستي الرمال وضعت الجاكت على رأسي وبدأت أحبو بعيداً في سرعة عن المصطافين الذين راحوا ينظرون لي في دهشة، ما ان ابتعدت قليلاً حتى أطلقتَ ساقيّ للريح إلى شوارع باريس. كنت أفر من قدر الموت والدمار، كان الهروب من أجل بلدي في النهاية، وهو ما فعلته، أعرف تماماً ما يقال عني من أنني فررت من المواجهة، وهربت إلى الغرب وانخرطت في مؤسساته العلمية والبحثية وأنتجت في جامعاته. لكن ماذا أنتجت؟ كانت مصر في القلب دوماً. قيل عني إني عميل المخابرات المصرية في قاعدة الأطلنطي منذ استقريت في باريس ودرّست في السوربون وأخذت أكتب عن مصر في الصحف الفرنسية.

- كنت تكتب عن مصر!

- كان رئيس تحرير الصحيفة (طريا)، ويمكن التأثير فيه بسهولة! اقترحت عليه أن نخصص محوراً عن مصر، كان ذلك في الستينات، وفي أوج المد القومي والمشروع الناصري. وكان لي ما أردت.عشر حلقات كاملة عن مصر، وعن مشروعنا القومي ونهضتنا وتحررنا الوطني. هذه الحلقات جرَّت عليَّ الويلات في فرنسا.

- .. ولكنك صمدت، وواصلت مشروعك، ومازلت حتى اليوم..

أكمل كأنما لم يستمع لي..

- كانوا يقولون عني عميل المخابرات العربية في قاعدة الأطلنطي، والجاسوس المصري، و.. و، لكني كنت أعمل فحسب، لن تتخيل يوماً شراسة الغرب وسياسات الإقصاء التي يمارسها مع من يرفض الانخراط فيه والانتماء له إلى حد خلع جذوره والتنكر لها، والانسلاخ من هويته. ما بالك بمن يعيش بينهم ويفضح وجههم الكولونيالي ونفاقهم ومصهم دم الشعوب، كان هذا واجبي، وكانت ضريبته فادحة. ودفعت هذه الضريبة أضعافاً بعد ضرب مصر في ٦٧، والإجهاز على مشروعها النهضوي. أقصيت، وصلبت. وأصابني اكتئاب شديد ليس لكوني مصرياً فحسب يرى بلده يُضرب، إنما لكوني أعيش مع من ضربوها أيضاً.

(صمتُ لا اعرف ماذا أقول له).

- تيقنت وقتها من أنني لا بقاء لي في هذه الأرض، أرسلت رسالة إلى جمال عبد الناصر أطلب منه فيها السماح لي بالعودة – كنت هارباً كما تعلم – وأن أنخرط في الصف الوطني لأخدم بلدي، وأواجه مع أبناء بلدي ما حاق بمصر..

- وبم رد عبد الناصر؟

شرد إلى البعيد، ممعناً في النيل.. كأنما يرى وحده أشياء ومشاهد لا أراها معه.

- رد عبد الناصر عليَّ بأن أبقى عندي، أرسل لي رسالة مع مندوب من رئاسة الجمهورية يقول لي فيها إن البقاء عندي أفضل، وإن مصر ستحتاج جهودك قريباً. فبقيت. كنت أجتر مرارتي في وحدتي، وتقريباً انقطع الأصدقاء عني ما عدا دانييل لاجورس الكاتب الشهير، كانت هناك موجة جديدة من تنامي النفوذ الصهيوني في أوروبا، تزامن ذلك مع تفجر الأفكار الجديدة التي افرزتها أوضاع أوروبا المتعافية من الحرب العالمية الثانية، وانتعاش اقتصاداتها، والأفكار الفلسفية التي جاءت بها المدرسة الوجودية، وأسيء تأويلها وفهمها كثيراً فتقاطعت مع مفاهيم الفوضى واللامسئولية، وتجلى ذلك كله في مظاهرات ٦٨، التي كان شعارها من الممنوع أن تمنع، كانت أوروبا كأنما تسحبها قاطرة مندفعة في وادٍ منحدر، ويبدو أن الأوطان العربية كانت تقبع أسفل ذلك الوادي.

- ورأيت كل هذا؟

- يوم مظاهرات الطلبة في باريس كنت واقفاً في نهر الشارع أشاهد الملايين التي تتظاهر، وكان معي جلال أمين..

(لاحت الفتاة ذات الثوب الوردي من بعيد واتكئت بخصرها على سور النهر وهي ترنو نحونا).

- هذه قصة أخرى كبيرة...

رددت وراءه سارحاً فيها..

- نعم... قصة كبيرة فعلاً.

فجأة انتبه، ونظر نحوي بحدة.. صاح.

- أنت علام تنظر؟

- آ... على القاطرة والمظاهرات المليونية، والوادي الـ...

صاح غاضباً.

- آه.. الوادي الوردي يا وغد! تظنني لا أرى، أنت لا تنفع معك دروس تاريخ ولا سواه، لا فائدة منك..

- يا دكتور كنت أسمعك والله.. مستعد أن أكرر كل كلمة قلتها منذ جلسنا للآن.

- اسكت..

احتقن وجهي ولذت بالصمت، بينما لمحت الفتاة الشقراء تضحك من بعيد، وعيناها مغرورقتان! لعنت حظي، بينما استمر في غضبه، وهو ينظر لي.. قال..

- ما الحل معك؟ لا بد من عقاب.

- يا دكتور سماح.. والله لفتة عفوية.
- عفوية؟ أنا أيضاً سابتكر لك عقاباً عفوياً..

أخذ ينظر للأرض، ويحرك أصابعه حول بعضها البعض كعادته كلما راح يفكر، ويفرك سبابته بذقنه.. بينما أخذت أتصور العقاب (ربما يعيدني للقاهرة مشياً، أو يكلم أحد معارفه في الداخلية ليعتقلني، أو يتصل بإدارة الفندق ليمنع عني الوجبات.. أو)

- أنت..! فيم تفكر؟
- آ.. لا شيء يا دكتور.. يا أستاذي الطيب المتسامح.

ابتسم... (آه.. الآن تقول ذلك): على العموم انا متسامح فعلاً.. وسترى بنفسك كم تساهلت معك في عقوبة إهمالك وعدم انتباهك.

راح يبحث بعينيه حولنا، قبل أن تتوقفا عند النادل فصاح منادياً عليه. جاء النادل. فقال له وهو يترك منديله على المنضدة وينهض:

- آ.. الحساب عند الأستاذ حمزة.

التفت لي الجرسون مبتسماً بينما غادر هو متجهاً إلى الممشى يصفر لحناً منغوماً..

بقيت واجماً مصدوماً أتمتم باللعنات.. بينما استمر الجرسون منحنياً مبتسماً...

قال لي في أدب..

- كم رقم الغرفة من فضلك لأضيف الفاتورة؟

تطلعت إليه في وجومي ذاته دون أن أنطق. فجاة لمحت الدكتور من بعيد يشير لي ملوحاً وهو يضحك..

عاد الجرسون يسألني عن رقم الغرفة. نظرت للدكتور المنتشي، أمعنت النظر في شيء يتدلى من قبضة يده الملوحة لي. مفتاح غرفته!. التفت للجرسون في هدوء. وقلت.

- رقم الغرفة ٨٠٢!

....

وقفت في الشرفة أشاهد الأضواء المشتعلة كأنها النيران في قلب الجبل البعيد، والبيوت الصغيرة الفقيرة، التي أغلقت على بشر كأنما نحتت حيواتهم من الصخر نفسه الذي كوَّن الجبل.. الفقر وشظف العيش والحياة الخشنة، وهنا على الضفة الأخرى من المشهد هذا الفندق الشامخ ذو النجوم السبع، والنزلاء الأوروبيون، بقعة من النضار في قلب الموت والفاقة... شردت..

رن الهاتف.. فدلفت إلى الغرفة..

- آلو..
- مرحباً... نم مبكراً لنفطر معاً صباحاً. سأوقظك في الثامنة ونلتقي في قاعة الإفطار في الطابق B.
- حسناً..
- تصبح على خير.
- وأنت من أهله.

وضع السماعة، فعدت إلى شرودي في الشرفة والجبل، الأضواء والنهر الأسود والفندق.عدت للداخل، أطفأت الأنوار واتجهت إلى سريري، سحبت الغطاء فوقي..وظللت معتدلاً مسنداً ظهري على السرير، وعيناي شاردتان في ضوء الأباجورة الخافت.. كان السكون يملأ المكان، وشعرت بحزن لا أعرف مصدره.. ضغطت على زر الأباجورة فساد الظلام، سحبت الغطاء فوق وجهي..

السكون.. الظلمة، كأنما دلفت في سرداب معتم، لا شيء سوى السدم المظلمة والعتمة.. السكون..

(هل سمعت شيئاً)؟

كأنما انتبهت لحركة عند الباب!

اعتدلت بسرعة، وأزحت الغطاء من فوقي، أضأت النور، لا يوجد شيء...

نفضت راسي كأنما أستفيق..يبدو أنني مرهق ومشتت..

عدت لأطفئ النور، ثمة شيء استوقفني.. نظرت تجاه الباب، خطوت إليه، وفتحته، لا أحد هناك..

قبل أن أغلق الباب طالعت وردةً على مدخله! انحنيت والتقطتها.. كانت وردية!

نظرت يميناً حيث السلم..

لمحت عيناي طرف ثوب من اللون نفسه ينفلت في الفراغ هارباً.

*

السادسة صباحاً..

جلست في قاعة الإفطار A بمفردي على إحدى الطاولات الكبيرة، وأمامي اللبن والزبد والكرواسون والقهوة والعسل.. كنت أبتسم وأنا أتخيل الدكتور مازال نائماً، وموعدنا بعد ساعتين في القاعة الأخرى لنفطر! حرية.. أنا حر لساعتين!

اقتربت مني فتاة الفندق ومعها "ترمس " الشاي الفضي.. وقربته من حافة الكوب مترددة.. فأشرت لها بالإيجاب مبتسماً.. صبت منه.. شكرتها.. فقالت:

- أول مرة نراك بدون جدك.
- (اللعنة! شهرني في الفندق كله)!
- آه.. هو يستيقظ متأخراً قليلاً...

ابتسمت وذهبت..

انشغلت بالإفطار، وانشغلت أكثر بالحرية وأنا أفعل شيئاً في حياتي لأول مرة بحريتي الكاملة، حتى ولو كان الإفطار...

دلفت فتاة شقراء في بدلة رياضية بيضاء.. وتغطي عينيها بعوينات داكنة، تأملتها في زحام الواقفين على المائدة المفتوحة ينتقون إفطارهم من كل الأصناف، وهي تتناول طبقاً كبيراً وتضع فيه إفطارها.. كأنما هي!

كانت تنظر بلامبالاة من خلف نظارتها إلى الجميع، وإلى كل شيء، تناثرت أشياء قليلة في طبقها.. واقتربت تبحث عن منضدة في تأن لتجلس عليها.

بينما تنظر التقت عيناها بوجهي فانصرفت عن الأكل.. اقتربت... وسحبت كرسياً وهي تومئ برأسها كأنما تستأذنني.. فابتسمت لها مشيراً..

أخرجت قالب الزبدة من ورقته المفضضة في بطء، دهنته بسطح السكينة على الكرواسون، وبدأت تلتهمه في بطء، تظاهرت بالانشغال بالأكل وأنا أحاول جاهداً رؤية عينيها من تحت نظارتها الداكنة، بلا جدوى.. عدت إلى الطعام..

فجأة قالت بالانجليزية..

- أنت مصري؟

ابتسمت ورددت عليها بلغتها

– نعم.

– طفت ابتسامة على وجهها واختفت سريعاً، وقد عادت للانهماك في إفطارها..

سألتها بدوري:

– وأنت؟

ردت بينما ترشف قهوتها:

- British..

(الثوب الوردي، والوردة في ظلمة الغرفة)

عدت إلى طعامي، وقد شعرت بأنه ليس ثمة ما يقال.

لفنا الوقت، والذاهبون والآتون من حولنا، وحركة النادلات المبتسمات. تأملتها طويلاً، ولم أكن أرى عينيها.. وأين تنظران.

وضعت فوطة الطعام على المنضدة وتحركت لأنهض..كانت مستمرة في التهام إفطارها.. قالت لي بدون ان ترفع نظرها عن طبقها..

– أعجبتك الوردة..

صمت مستغرباً..

تركت فوطتها هي الأخرى على المنضدة، ونهضت مبتسمة..

خلعت نظارتها...

(العينان الخضراوان كشمسين متعبتين، وعلى أطرافهما سحب إرهاق وأقواس الطيف..)

– أنا في الطابق الذي تحتك...

ظللت مشدوداً لحيرتي وأنا أتامل شيئاً في عينيها، تنظران لي بعمق وتتفحصاني..، وجسدها متوفز كالقوس على أشده، بينما كررت في بطء وهي تضغط على كلماتها..

– .. أنا تحتك..!

انفلتت في زحام القاعة وروادها، قبل أن تختفي ساحبة خلفها ابتسامتها وطيفها الذي ملأ المكان.. بينما أصداء عبارتها الأخيرة في ذهني..

(ماذا قصدت؟!)

....

رن الهاتف بجانبي فرفعت السماعة متعباً..

- آلو..
- صباح الخير...
- صباح النور..
- الساعة ٨ يا كسول.. مازلت نائماً؟ ٥ دقائق وسامر عليك لنفطر.
- حسناً!
- نهضت من السرير متثاقلاً. أنهيت إفطاري منذ ساعة، وسأفطر الآن مرة أخرى بالامر العسكري... اللعنة!

قمت إلى الحمام وغسلت وجهي ورأسي لأفيق، وعدت إلى الغرفة.. ارتديت ملابس خفيفة، وجلست على حافة السرير، ورأسي يسقط بين الوقت والآخر في الفراغ فأنتبه وأستيقظ. سمعت نقراً على الباب.. وفوجئت بالباب يفتح.

وجدت الدكتور أمامي.. مبتسماً نشيطاً في ملابس رياضية داكنة..

- صباح الخير.. هيا يا كسول..
- حاضر يا دكتور.. أنا مستيقظ أهه!
- مستيقظ؟ الناس تستيقظ في الخامسة والنصف يا أستاذ لتفطر في السادسة! وأنت نائم للآن.
- آ...!
- ماذا؟ هل هناك شيء..
- لا يا دكتور..سلامتك.
- حسناً... هيا بنا..
- هيا!

*

رن جرس الهاتف فنفضت الغطاء من على جسدي وعيناي منتفختان من السهر والإرهاق.. تحسست السماعة بجوار يدي.. ورددت، طالعني صوت عذب لفتاة،

- آلو.. من؟
- صباح الخير. نحن من استقبال الفندق.
- أهلاً.. وماذا تريدون؟
- لا شيء.. لكن جارك في الغرفة ٨٠٢ طلب منا إيقاظك يومياً في هذا الموعد.

(شعرت بغيظ شديد.. وتمالكت هدوئي)

- طيب.. أشكرك.

وضعت السماعة.. وعدت إلى النوم.. ساد السكون..

(لكن لماذا لم يتصل بي هو بنفسه؟)

اعتدلت على السرير وقد ساورني خاطر... رفعت السماعة واتصلت برقم الغرفة.. ظل الجرس يرن بلا استجابة؟ وضعت السماعة ونهضت، دلفت إلى الحمام وغسلت وجهي ورأسي، عدت إلى الغرفة وأنا أجففهما، عاودت الاتصال برقم غرفته، بلا رد، اتصلت بالمطعم وسألت عنه، فأخبرني الموظف أنه أفطر وغادر منذ ساعة تقريباً..

جلست على حافة السرير.. أفكر..

أين ذهب؟!

....

سرت بمحاذاة السور الذي يفضي إلى الجبل أمام الفندق، في اتجاه النيل والسوق القديم، رائحة النيل تملأ صدري، والهواء المنعش أفاقني، على الطريق فتيات سمراوات يتضاحكن، ملامحهن دقيقة وعذبة، أشرت لواحدة منهن فضحكت وتوارت خلف زميلتها.. على الجهة الأخرى طلاب وطالبات مدارس، يسيرون تحت الشمس ويتشاكسون، والطريق لوحة من الظل والنور والهواء وأمواج النيل. أشرت إلى حنطور هدأ سرعته بالقرب مني، وصعدت له، الفتيات مازلن يتضاحكن تحت الشمس، ويشرن إلى المراكب الشراعية التي تتحرك على صفحة النيل بنعومة. والشباب يفتحن أزرار قمصانهم العلوية، ويتباهون أمام الفتيات.

سألني السائق عن وجهتي.. فقلت له: أخبرني أنت.. أين يذهب من يريد التجول هنا أو السياحة؟ هل توجد معالم قديمة؟ هل توجد أماكن جاذبة؟

قال لي وهو يلسع الحصان بالكرباج فيتحرك..

- هناك معبد أبو سمبل..
- لا... غيره؟
- طيب هناك السد العالي.. و
- غيره.. غيره..!
- مجمع الكنائس القديم أمام كتراكت..
- جيد.. وماذا أيضاً؟
- هناك النصب التذكاري الروسي.. في آخر أسوان.. قرب المطار..
- حسناً.. وماذا أيضاً؟
- لم يبق سوى ضريح أبو الهوى.. في أعلى قمة الجبل، وجزيرة النباتات، وحديقة فريال.
- فريال؟
- نعم يا أستاذ... على اسم الملكة فريال.. بنى الملك فاروق الحديقة لها، على أعلى نقطة تشرف على النيل، لتأتي صباحاً وتشرب شايها فيها مع وصيفاتها.

(الأسرة الملكية... آه.. ربما إذن..)

- هذه إذن! أوصلني إلى هناك من فضلك..

سوط في الهواء وانفلت الحصان راكضاً على الأسفلت باتجاه الجنوب، كأنما عائد إلى الفندق.. بمحاذاة النيل، على الشمال المسجد القديم الذي تهدم جزء كبير منه، والسوق الذي يستقبل البائعون فيه الصباح، وهم يتمتمون بأدعية فتح الرزق واستقبال اليوم، في بشاشة ورضا..

سياح يسيرون وفتيات وأطفال، وقرويون في جلابيب بيضاء..

كان كل شيء زاهياً..

من بعيد لاحت حديقة كبيرة مسيجة بالأسوار، ملأتها الأشجار الباسقة، أشار لي السائق وقال: هذه حديقة فريال يا أستاذ...

هدأ الحصان سرعته – بدون إشارة ولا سوط من صاحبه – قرب الحديقة..! فاقتربت لأنزل.. اتكئت على المسند وهبطت.

نظرت للحديقة، كأنما شعرت بها بشيء من هيبة وتاريخ قديم..

.. التفت للسائق.. نقدته أجره وشكرته فانطلق مع حصانه.. واتجهت وحيداً للبوابة.

....

اقتربت من السور المطل على النيل داخل الحديقة..

حيث الصخرة الضخمة التي تدور حولها المراكب الشراعية البيضاء..

كانت هناك قمة خضراء.. ربوة هائلة تناثرت فوقها طيور بيضاء..

وأمامها تناثرت مناضد بيضاء أيضاً..

(كانت الملكة فريدة تتناول إفطارها في هذا المكان).

وسط هذا المعبد الأبيض لمحته واقفاً مولياً ظهره لكل شيء..

ميمماً وجهه نحو أصداء تاريخ ملكيٍ لم تعد تتبقَّ منه سوى ذكريات!

*

رحت أعد حقيبتي الموضوعة على السرير وأنا أحرص على ألا أنسى شيئاً داخل الدولاب المفتوح أمامي.. أناثر فيها ملابسي وبعض الكتب القليلة..

تركتها ونهضت سائراً نحو النافذة..

ألقيت نظرة على المشهد أمامي، البيوت المتناثرة في الجبل، والبيئة الخشنة الوعرة التي يعيش فيها الفقراء.. ظللت واقفاً أتأمل قبل أن أعود ادراجي للغرفة.

عدت أحاول ترتيب الحقيبة مرة أخرى، وأوازن بين الأشياء الموضوعة فيها بسلاسة.. رن الهاتف، فتركتها واتجهت له.

- آلو

- صباح الخير.. انت لسه عندك؟

- نعم.. أرتب الحقيبة.

- طيب يالله يا بيه.. ورانا سفر.

- تقصد ورائي وحدي! أنت ستعود بالطائرة. يعني ساعة زمن وتكون في القاهرة، أما أنا فأمامي ١٢ ساعة بالقطار ويمكن أكثر!

صرخ حتى آلمتني أذني:

- يا أخي أنا حُر.. أسافر بطائرة.. بجمل.. مش شغلك!

- ولماذا لم تحجز لي معك؟ أنا قطعت تذكرة القطار على حسابي أيضاً!

- هذا هو الموجود إن كان عاجبك.
- وإن لم يعجبني مثلا؟
- اعتبر نفسك مرفودا!
- آخ بس! اعتبرت نفسي ذلك مائة مرة وكل مرة تعيدني بعدها بدقائق.

صاح:

- لا.. أنت هذه المرة مرفود.. سامع؟ لا أريد أن أراك في القاهرة!

" رزع " السماعة في وجهي. وقفت أبتسم وأنا أنظر للهاتف. عقدت ساعديَّ أمام صدري، وأنا أنتظر شيئا وأبتسم..

رن الهاتف.. فتلكأت قليلاً في الرد وأنا أكاد أضحك.. رفعت السماعة

- آلو.
- نعم!
- أمامنا عشر دقائق ونتحرك من الفندق. يالله بسرعة! ورانا شغل في مصر يا بيه!

أغلق الخط بعنف فوضعت السماعة، وأخذت أضحك.

....

اتصل بي الدكتور، وبعد الكلمات المعتادة (لسة نايم؟ كسول.. صرنا ٥ صباحًا.. بقى لنا يومين راجعين من أسوان يا بيه وما اشتغلناش. وإغلاق السماعة) نهضت ألعن الكثير من تفاصيل حياتي...ليس من بينها الدكتور!

ثم المشاهد المكررة ذاتها...المنشفة، ومد الذراعين كالضرير أمامي وأنا أتحسس الطريق للحمام..

صباحٌ آخر مُبهج!

....

فتح لي السائق.. وجدت على وجههِ انفعال مكتوم.. كأنما تعرض للقهر!

- صباح الخير يا عبد المنعم!

لم يَرُد.. أشار لي إلى قدميه فوجدت الخف الأزرق! انفجرت ضاحكًا.. علا صوت الدكتور من الداخل فجأة.

- خير! انتوا بتتعرفوا على بعض على الباب.. اتفضل يا بيه! صاحي لي الساعة ٥.. يا عيني!

دخلتُ صامتًا.. بدلت الحذاء بالخُف، واتجهت إلى حيث يجلس الدكتور عند النافذة والشمس.

- صباح الخير يا دكتور.
- صباح النور، اجلس.. هناك أمر مهم للغاية.. خطير.. أريد أخذ رأيك فيه..

(لو أراد شراء علبة زبادي فسيقول لي إنه أمر خطير!).

- خير يا دكتور!

- مكتبة القاهرة الكبرى تُريد أن تنظم لي احتفالاً بمناسبة بلوغي الثمانين!.

- هايل.. عظيم والله.. كنا نبحث عن المشاركة والتواجد، هاهما قد أتيا.. سيكون احتفالاً رائعًا... و!

- هل هذا كل ما تفكر فيه؟!

-.........؟

- ألا يحتاج هذا إلى تنظيم في رأيك؟ استعداد؟ تحضير قائمة بالمدعوين، والاتصال بهم؟!

- آه.. طبعًا!

صرخ فجأة وقد قفز من مكانه كأنما لسع!

- ما دام طبعًا، لماذا تجلس أمامي الآن، اتفضل اشتغل يا بيه! اذهب إلى غرفة مكتبي، لديك أوراق وأقلام، وتعرف أصدقائي، ولديك أرقام تليفوناتهم في دفتر على المكتب، أريد قائمة أولية بسرعة.

نهضت مذعورًا من ثورته وركضت إلى المكتب، دخلته وأغلقت الباب خلفي، وقفت مسندًا ظهري على الباب مغمضًا عينيَّ، لم أرَ إنسانًا عصبيًا إلى هذه الدرجة! أخذت أهدئ من نفسي دقيقة، استدرت ببطء، أملتُ أكرة الباب وأنا أفتحه بهدوء شديد لأراقب الموقف بالخارج، ما إن اكتملت فرجة من الباب تسمح بأن أخرج رأسي حتى تطلعت منها، نظرت للخارج يمينًا حيث غرفة نومه، الغرفة مغلقة، والهدوء يسود الحمد لله.. يسارًا.. الــ آ!

- بتعمل إيه؟

كان الدكتور واقفًا على يسار الباب وقد شبك يديه خلف ظهره! ووجهه عليه غيظ مكتوم!

-..........................!

- كنت أعرف أنك لن تشتغل!!

- آ.. أبدًا.. ولكن.. كنت سأنادي على عبد المنعم ليعمل لي قهوة، وأبدأ فورًا!

- قهوة! هاه، تريد قهوة، طيب، سأجعله يعمل لك قهوة، ولكن أقسم لك أنك إن لم تبدأ العمل فورًا فبشرفي، بشرفي العسكري، سأرفدك اليوم.

ضحكت:

- شرف عسكري! أنت لم تدخل الجيش يا دكتور.. كنت وحيد والدت..!

- إخرس!!

مشى غاضبًا وهو يتمتم بما أعرف أنه سبابٌ سيطال سابع سلالة لي، واختفى في الممر إلى المطبخ، فجأة انفجرت ثورة أخرى.. وسمعت صراخه في عبد المنعم المسكين... خمنت الموقف على الفور! فعبد المنعم كان نائمًا كعادته يغط ويصفر عندما دخل الدكتور المطبخ..

أغمضت عيني وأنا أزفر وأهز رأسي.

انسحبت إلى الداخل وجلستُ على المكتب.. قائمة! يريد قائمة لأصدقائه ومحبيه الذين سيحضرون.. أصدقاء؟! هذا البيت منذ دخلته منذ عام لم أرَ فيه صديقًا يدخله سوى سعد زهران، وضياء رشوان، واثنين من أقاربه لا يعرفان في أي جريدة يكتب!

ما العمل؟!

من الممكن أن أعمل له قائمة بأسماء شهيرة، ومفكرين، ورؤساء تحرير، و... و... والمحصلة أن أحدًا لن يجيء!.

الأمر لله.. طيب!

بدأت العمل! أخذت الدفتر.. وبدأت أكتب الأسماء: محمد سيد أحمد، صلاح الدين حافظ، السيد يس، ضياء رشوان، سعد زهران، جمال غالي، صلاح فايز (قريبه)، ظريف عبد الله (محام باليونسكو)، محمود أمين العالم، آ.. من أيضًا؟!

- اكتب د: محمود عبد الفضيل، ود: أحمد يوسف القُرعي.

رفعت رأسي عن الدفتر، فوجدت الدكتور واقفًا أمام المكتب، ممسكًا بفنجان من القهوة! انتفضت ملقيًا القلم، وأنا أستدير ناهضًا، لأتناول منه الفنجان وأنا مرتبك..

- تحضر القهوة بنفسك.. يا دكتور.. كنت اجعل عبد المنعم يــ...

- خلاص! بلاش غلبة.

- اشكرك - هذه لفتة كبيرة! و..

- اكتب الأسماء التي تعن لك.. كل ما يرد على ذهنك من أسماء، وبالمناسبة.. عندي لك مفاجأة!

- خير يا دكتور!

- كلما ستكتب اسمًا ستكافأ عليه، وكلما زادت الأسماء، ستزيد المكافأة.

(تخيلت مشهدًا - صينية وعليها أطباق لا تنتهي من الأرز باللبن!)

- لا يا دكتور.. لا أريد مكافآت، بطني توجعني!

حدَّقَ فيّ مندهشًا..!

- بطنك؟! هل أنت مختل يا ابني؟ ومن الذي تحدث عن بطنك الآن؟!

- لا، لا.. لا شيء. سأقوم بالمطلوب، ولكن دون مكافآت، هذا واجبي يا دكتور.

- طيب، انت حر، فقري، ولكن على كل حال، أمامك ساعتان من الآن لتنهي فيهما العمل، شد حيلك..

استدار وغادر الغرفة، بينما أخذت أفكر...

فجأة وجدته أمامي مرة أخرى، يبحث بعينيه عن شيء على سطح المكتب.

- خير يا دكتور - تريد شيئًا؟!

أشار لي بيده بما معناه: اسكت.

استمر يواصل البحث - خطا نحوي، ووقف بجوار الكرسي الذي أجلس عليه.

فتح أحد الأدراج وقال في سعادة: آه.. ها هي!

استخرج سلسلة مفاتيح، وأغلق الدرج، سار نحو الباب، التفت نحوي فجأة وقال مبتسمًا: شد حيلك يا بطل.. واتسعت ابتسامته! أغلق الباب.

سمعت المفتاح يستدير في الكالون، نهضت مذعورًا!

- ما هذا يا دكتور، ماذا تفعل؟!

- لكيلا تنادي على أحد يعمل لك قهوة، ركز في العمل.

- يا دكتور.. افتح.. ودعك من هذه الحركات!

- قلت اشتغل، وإلا فأنت مرفود، ساعتين وسأفتح لك..

....

ثلاث ساعات مرت كالدهر!

كنت أجزّ على أسناني مع كل اسم أجده وأنا أشعر بالعبودية، سأنفجر غيظا..

كيف مرت هذه الساعات الثلاث، ولم يتوقف الزمن؟! شردت....

للمرة الأولى في حياتي أعايش مشاعر المستعبدين والمعتقلين، كم هم بؤساء من يفقدون حريتهم فعلاً! كم هو قاسٍ السجن؟! وكم أنا أملك الدنيا -أيًّا كانت ظروفي- طالما أتحكم في حياتي، وأعيش حُرًا!! لم أغضب من ساعات الاعتقال الثلاث، فقد أرتني الجانب الآخر من النهر.

رأيت نفسي حرًا في سماوات بعيدة.. ورأيت آخرين -بشرًا وأناسًا- أغْلِقَ عليهم بابُ كبابي هذا، وسمعوا صلصلة الأجراس، وهم يعرفون أنها لن تعاود للباب قبل عشرين أو خمسة وعشرين عامًا، لا ثلاث ساعات

.. ربما كانوا مفكرين أو ذوي مَوقِف فحسب!

....

أفقتُ على صلصلة المفاتيح، والدكتور أمامي.

- هاه، ما الأخبار يا بطل.

- بطل؟! نعم.. صرت بطلاً في التحمل!

علا صياحه:

- مش عاوز لماضة! خلصت؟!

- أيوه.

- أرني القائمة.

مددت يدي المتخشبة له بالكشف، فعدَّ أسماء (٢٠) مفكرًا وأستاذًا جامعيًّا وصحافيًا وصديقًا.. رفع عينيه في اندهاش وعدم رضا:

- بس هؤلاء؟!!

- هؤلاء أنا نحتّ في صخر التاريخ من الخمسينات لأجمعهم لك.. احمد ربنا!

- صرت مشاكسًا، أنت كيف يتحملونك؟!

نظر لي نظرة طويلة وهو يتأملني مليًّا ببطء.

- (..................!)

- والآن هيا لنكمل العمل!

- أي عمل.

- هذه الأسماء يا أستاذ ألا يجب أن نكتب رسائل لها -دعوات- وأن نتصل بأصحابها؟.. وأن نوصل لها الدعوات شخصيًّا؟!

- لحظة يا دكتور. ماذا قلت في النهاية؟ نوصل لها الدعوات شخصيًا؟!
من تقصد بنون (نوصّل) هذه؟!
- أقصد: توصّل!
(آه، هذا ما كنت أنتظره!)
- يا دكتور اعفيني من هذه المهمة! حرام والله العظيم، هذه الرسائل العشرون ستوزع من الجيزة إلى شبرا الخيمة! حرام عليك، أرسلها بالبريد المسجل.
- البريد المسجل بطيء.
- بالبريد السريع إذن.
- مُكلف.
- طيب هناك البريد العادي.
- الخطابات تضيع فيه..!
- أوف!!
صرخ فجأة:
- ولا كلمة.. لا تبحث عن أعذار أخرى، قلت ستسلم هذه الرسائل يعني ستُسلمها! عشرون رسالة بالضبط، خمس وعشرون رسالة، فقد أضفتُ خمسة أسماء من عندي!
- الأمر لله، ولله الأمر، ولله في خلقه.....
صرخ مقاطعًا:
- ولا كلمة.. إنت هتدروش!.
- خلاص يا دكتور، لن أتدروش ولا شيء!
- طيب! تحب أن تأخذ مبلغًا من المال (بدل مواصلات) تتحرك به، أم ستتصرف؟!
- أتصرف؟! هل سأوجر "عجلة" لأدور بها على المفكرين، هل سأصل للأهرام على قدميَّ مثلاً؟!
- خلاص، بلاش غلبَة، خمسين جنيه تكفي!
نعم، تكفي، تكفي لتسليم رسالة واحدة من هنا إلى جامعة القاهرة ذهابًا وإيابًا بالتاكسي.
صاح في استنكار:
- نعم، رسالة واحدة....؟
- يا دكتور، أليس لديك سيارة؟!
- أيوه صحيح نسيت.
- طيب، عبد المنعم يأتي معي، يوصلني وسأسلم الرسائل.
- برافو عليك، هايل، كان يجب أن نضمك للجنة الوطنية للعمال والطلبة من (٥٠) سنة!

*

أسبوع كامل وأنا أركض خلف تسليم الرسائل...

أجريت عشرات المكالمات وحصلت على عشرات العناوين، وقطعت القاهرة بالسيارة عشرين مرة جيئة وذهابًا..

إلى أن انتهيت من تسليم الرسائل كلها..

كان ذلك مع آخر أيام الأسبوع.. الخميس.

أويت إلى فراشي ليلتها منهكًا -أتمنى لو طال نومي أسبوعًا كاملاً، تمنيت كثيرًا لو طال للأبد!!

بعد سبع ساعات بالضبط، وفي السادسة صباحًا، رنَّ هاتِف البيت، لم أكن أقوى على رفع يدي لحمل السماعة، تركته يرن، إلى أن فصل، بعد دقائق، عاود الرن.

- آلو.

- أيوه يا دكتور.

- تعال فورًا.

- لا أستطيع.. أنا مهشم تمامًا.. محطم، ومهما حدث لن أستطيع النهوض، ثم إن النهاردة الجمعة، لا تحاول!

- كدا؟ طيب سأتصرف..

(أغلق الخط في وجهي).

عُدت إلى النوم... يا سلام! سيتصرف، سيرفدني مثلاً! ما أعذب الرفد.

سحبت الغطاء على وجهي ونعست.. لم أدر كم من الوقت مرَّ قبلما أنهض على جلبة، فتحت عينيَّ بصعوبة فوجدت أمي أمامي، وقد أضاءت النور.

- حمزة... قوم يا ابني؟!

- خير!!

- في عربية "بتزمَّر" لك تحت البيت، والسوَّاق قاعِد ينادي في الشارع: "يا أستاذ حمزة، يا أستاذ حمزة"، الشارع كله صحي، الجيران في العمارات اللي جنبنا بيزعقوا معاه، وهو مُصِر على الكلاكسات..

انتبهت! فسمعت صوت نفير السيارة عاليًا، إزعاج فظيع.. نظرت للساعة فوجدتها السابعة صباحًا... اللعنة!! ألقيت الغطاء ونهضت كالملسوع.. فتحت شباك الشرفة، فرأيت جاري في الشرفة المقابلة عابس الوجه، بادرني غاضباً بمجرد أن رآني:

- " ينفع كدا يا أستاذ حمزة؟، الشارع كله صحي.. يعني عاوز تعرفنا إن أصحابك عندهم عربيات"!!

- ولكن أنا! آ...

لم أستطع أن أكمل الرد عليه من الكلاكس المرتفع، نظرت فرأيت من أعلى سيارة الدكتور تسد شارعنا الصغير وتطلق قنابلها الصوتية...

(الله يخرب بيتك يا...يا عبد المنعم.!!)

....

- فتح لي الدكتور الباب فوجدني غاضبًا (كان يبتسم ويهز رأسه)، رحت أنظر له في حنق، بينما استدار ودخل فدخلتُ إثره.. خلعت الحذاء، وارتديت اللعنة الزرقاء، وتبعته!

.. جلس على المقعد.. يضحك ضحكًا مكتومًا يهتز له جسده، وقد امتلأ إحساسًا بالأبهة والعظمة!

- هاه... نمت كويس يا بطل.

-..!!

- استعد، فالليلة ندوة في مكتبة القاهرة الكبرى..

صحت مُحنقًا:

- هل أرسلت تأخذني في مدرعتك العسكرية التي أيقظت حينا كله، لتقول لي ذلك فقط!! لماذا لم تقله لي في التليفون؟!

(لم يرد)

- ثم أستعد، كيف أستعد مثلاً؟! حرام عليك يا دكتور، هل استعبدتني أم ماذا؟!

- اسمع.. ستبقى معي.. إلى أن يحين موعد الندوة، ولا أريد كلمة أخرى.

- هل هذا يُعقل، أنا لم أغسل وجهي حتى، ولم أرتد ملابس مناسبة، ولست جاهزًا لأي شيء.

- قلت ستأتي يعني ستأتي..

- (أوف).

....

كانت السيارة تقطع الطريق إلى الزمالك، وصلنا إلى المكتبة في السادسة مساءً، كنت مرتديًا قميصي وبنطلوني الجينز وحذاءً رياضيًا، أما الدكتور فكان مرتديًا حلة كاملة فاخرة.

قبل أن نترجل من السيارة، حذر الدكتور عبد المنعم من أن يدخل المكتبة أو أن يغادر السيارة من الأصل، فهز عبد المنعم رأسه صاغرًا.!!

.. نزلنا من السيارة. راح الدكتور يستند على مرفقي ونحن نصعد سلالمها القليلة، بينما وقف كامل زهيري على بوابتها يرحب به..

تعانقا، صافحني الرجل وهو يتفرسني، ويتأمل ملابسي!

أخذنا كامل زهيري إلى قاعة فخمة تتناثر بها مقاعد كثيرة، كأنها صالون، المقاعد امتلأت بالجالسين.

قلت في نفسي: (عظيم والله، كل هؤلاء حضور، لم أتوقع)!

أقبل كامل زهيري بالدكتور يعرفه عليهم..

- اتفضل يا بيه: هذا فلان، موظف الفهرسة بالمكتبة، وهذا مسئول قاعة الندوات، أما هذا فابني، هل تذكره؟!! وهذا مسئول العلاقات العامة بالمكتبة، وهذا نائب رئيس المكتبة - قرأ مؤلفاتك بالمناسبة- وهذا مساعد نائب رئيس المكتبة، وهذا معاون مساعد نائب رئيس المكتبة، وهذا المشرف على أعمال معاون مساعد نائب رئيس الـ...

قاطعه الدكتور محنقًا: - حاجة عظيمة!

جلسنا جميعًا.. بينما أخذت أتفرس في وجوه الحاضرين لعلني أجد فيهم واحدًا ممن سلمتهم الرسائل العشرين.. الخمس وعشرين! لم أجد أحدًا..

فجأة دخل القاعة المهندس جمال غالي، أعرفه جيدًا، من مؤسسي اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، تعذبت إلى أن وصلت لبيته أمام نادي الصيد بعدما قطعت المنطقة المحظورة التي يسكن فيها عمرو موسى وسلمته الرسالة.

سلم على الدكتور وعانقه، فنهضت لأحييه بدوري، عُدت لجلستي (ينقص ١٩ رسالة،لا لا ٢٤! فقد سلمني ٥ أخرى!)

دخل محمد سيد أحمد، فنهضت لأسلم عليه، عانقني الرجل بود بالغ وسألني عن أحوالي، دون أن يذكرني.

بعد ما تركني، خطا نحو الدكتور وهو يمازحه (صرت في الثمانين يا بطل! كبرت.. كل سنة وأنت طيب).

قبل أن ينهض الدكتور لمعانقته تعثر محمد سيد أحمد في أحد الأسلاك الكثيرة التي كانت تملأ الأرض على الموكيت، ووقع مصطدمًا بمنضدة صغيرة، التففنا حوله في هلع، فأخذ يبتسم لنا، وقد احتقن وجهه ويشير لنا أن اطمئنوا.

حزنت!! لا أعرف بم فكرت يومها، ولكنني تشاءمت!!

رأى الدكتور أن نبدأ الندوة فورًا بعدما اطمأن الجميع على محمد سيد أحمد، دخلنا القاعة، نهض معنا المتأنقون من مُرتدي الحُلل، موظفو المكتبة، وجلسوا يملأون الكراسي.

قبل أن تبدأ الندوة، دخل القاعة رجلٌ ثمانيني نحيف للغاية، يتحرك ببطء شديد، تأملته، أعرف هذا الوجه.. رحت أسلم عليه.. فحياني مبتسمًا وقد رفع عيناه في وجهي بود...

التفت نحو الحضور وقال بصوت ترتعش نبراته:

- ظريف عبدالله، محام سابق باليونسكو، صديق الدكتور من الطفولة.

- أهلاً يا أستاذ ظريف، تفضل.

أخذت يده، ورافقته للكرسي إلى أن جلس بصعوبة، كنت أتأمله بإكبار، (مازال هناك بشر مخلصون!).

عدت إلى مقعدي، ألمح بعض الوجوه التي لا أعرفها تدخل في استحياء، وتتراص على المقاعد حول الطاولة الكبيرة، رأيت فتاة شابة جميلة الملامح، وجهها كله فرحة، راحت تحيي الدكتور بمحبة وود بالغين!!.

أحد أقارب الدكتور ممن زاره مرة، وصحافيين اثنين.. وليس من أحد آخر!! لم يزد عدد الحاضرين عن سبعة أشخاص.. جلست..

بدأ كامل زهيري بخفة دمه المعروفة، واستطراداته وتفريعات استطراداته يتحدث عن جيله، وجيل الدكتور، قال كلامًا محفوظًا عن تاريخه النضالي والمناصب التي اعتلاها، وأكد أن المكتبة تحتفل به بقرار مباشر من وزير الثقافة.. لدوره الكبير الذي تعتز به مصر كلها.. أنهى كلمته في ٥ دقائق!

بعدها تحدث جمال غالي، وسرد البدايات الوطنية للدكتور في (إسكرا)، والحزب الشيوعي المصري، وتكوين اللجنة الوطنية للعمال والطلبة.. وسنوات الاعتقال، وأنهى الكلمة في دقائق.

لم يتحدث معارف وأصدقاء الدكتور إلا عن ذكريات شخصية ومواقف خاصة... عن مدرسة الجيزويت، وذكريات الطفولة...

وصمت الجميع!

لم يكن قد مر أكثر من نصف ساعة على الندوة حين كان الكل قد انتهى من حديثه.. وران الصمت، والتفت كامل زهيري للصحافيين فوجدهم يغطون الندوة بشكل تسجيلي، وليس من أحد لديه أسئلة على شيء.

فنظر للدكتور وقال: هل تريد أن تُعقّب على شيء في نهاية الندوة؟!

نظر له في استغراب، وحدّق في ساعته، ومال ناحيته يقول له شيئًا.. فجادله كامل زهيري بالصوت المنخفض نفسه وهو يبتسم، بينما راح الحاضرون يتبادلون نظرات مرتبكة.

اعتدل الرجلان وران الصمت..

كنت جالسًا بالخلف وراء الموظفين في آخر مقاعد القاعة، كما طلب مني الدكتور، وطلب ألا أتحدث أبدًا إلى أن تنتهي الندوة.

استمر الصمت والنظرات. قبل أن أتنحنح..

- من فضلك يا أستاذ كامل!!

- تفضل.

تسمح لي أن ألقي كلمة عن الدكتور..

صاح الدكتور فجأة:

- -لا... أنا لا أسمح لك!

سألني كامل زهيري:

- طيب نتعرف بيك أولاً

- اسمي حمزة قناوي، أعمل مسا...

قاطعني الدكتور في حدة:

- لا يعمل شيئًا!

فأكملت مغلوباً على أمري

- شاعر!

- تفضل.

غادرت مقعدي إلى حيث المائدة المستديرة، جلستُ بين السادة المتأنقين، أضواء كاميرا فيديو خاصة بالمكتبة تصوب إليَّ.

وقفتُ.. وأنا أجذب ياقة قميصي، وأشد حزام البنطلون الجينز.

- إحم!!

- الدكتور من كبار مناضلي حركة التطور الوطني في الخمسينات من القرن المنصرم. كان قد استرعى انتباه طه حسين وحظي بمحبة عبد الرحمن بدوي قد بدأ الانخراط الفعلي في جيل

التفاؤل التاريخي، الذي يسميه هو "الجيل الذي كان على موعد مع القدر"، منذ قرر عام ١٩٤٤ وقد كان آنذاك في العشرين من العمر تأجيل طموحاته الجامعية خدمة لقضية النضال المصري ضد الاحتلال الإنجليزي، ثم ما لبست تصاريف الزمن السياسي أن أرغمت أستاذ الفلسفة على اللجوء إلى باريس حيث انضم لقسم علم الاجتماع في المركز الوطني للبحث العلمي مبتدئا حياة أكاديمية متألقة، حيث سرعان ما ذاع صيته في الأوساط الأكاديمية الغربية إثر نشره مطلع الستينيات بحثا مدوية عُدَّ بمثابة الطلقة الأولى في معركة نقد الاستشراق.

وهو يعد واحدًا من أكبر المفكرين الليبراليين المستقلين في مصر، انطلق في بدايات حياته من معسكر اليسار، وتقدم عبر سنوات طويلة من الدراسة والبحث نحو رؤية تمزج بين مطالب العدل الاجتماعي والاشتراكية من جهة والحرية السياسية من جهة أخرى، واشتهر برؤيته الداعية إلى الشراكة بين الدول الإسلامية والصين لدعم تعددية قطبية في النظام الدولي.

نظرت إلى الحضور فوجدتهم يتابعونني باهتمام وبعضهم ينظر لي بإعجاب، فأكملت وأنا اتنحنح بعظمة:

" لكن بطبيعة الحال نعرف ما يسمى بتحولات المثقف، فالمفكر الذي أسس مع رفاقه تنظيم العمال والطلبة في أواخر الأربعينات، يعد الآن من ألمع كُتَّاب الأهرام، صحيفة السُلط....

فجأة صاح الدكتور:

- كفى، خلاص- شكرًا.

احمرَّ وجهي، ورحت انظر في الحضور الذين ابتسموا وراحوا يصفقون وأنا أحني رأسي وأغادر مكاني..

فجاة نهضت الفتاة الجميلة البيضاء المحجبة التي كانت تغطي الندوة دون أن تفلت شيئًا منها، وهي تكتب بسرعة شديدة وحماس...

وحيت كلمتي، وشددت على سعادتها بما ألقيته اليوم، وأنها لم تكن تعرف أن (الجيل الجديد) من صغار الشباب يتابع تاريخ رواد الفكر المصري بمثل هذا الاهتمام!! فهززت لها رأسي شاكرًا، فصفق الجميع مرة أخرى، احتقن وجه الدكتور غضبًا وهو ينظر نحوي في سخط ويتمتم بما لا يعرفه أحد من الحاضرين سواي..راح يشير من بعيد أن (اخرج) فحملت حقيبتي وأنا أبتسم هازًا رأسي محييًا الجميع ممن ظنوا أن الدكتور يشير لي إشارة إعزاز لما فعلته.

كنت وحدي أعلم أن العقاب ينتظرني بعد ساعات.. وإن كنت لا أعلم لماذا!

.. خرجت من القاعة، فوجدت نادلاً يحييني وهو يشير إلى المنضدة العامرة بالحلويات والتورتة والعصائر، شكرته وقد سُدت نفسي!

... بدأ الناس يتوافدون من القاعة إلى حيث المأكولات، وانشغل الجميع بالالتهام والشراب، ووقف الدكتور مع محمد سيد أحمد وحرمه مدام مايسة يتبادلون الحديث الودي الباسم.

بينما وقفتُ بعيدًا..

أشارت نحوي مدام مايسة وهي تبتسم وتميل على أذن الدكتور هامسة، فانقلب وجهه وهو ينظر نحوي بحنق ويتمتم ساخطاً.

لم أكن أعرف ماذا أفعل... فتشاغلت بالنظر إلى وجوه الواقفين بالقاعة، لم يأت أحد من أصحاب الدعوات، نهبت قدماي المدينة جيئة وذهابًا أسبوعًا كاملاً بلا جدوى!!

... عدت أنظر للدكتور، فوجدت وجهه غاضبًا، وسينفجر من الغيظ.. غير أنه لم يكن ينظر نحوي هذه المرة.

نظرت إلى الجهة التي ينظر لها فرأيت عبد المنعم يحمل طبقًا من أربعة أدوار من الجاتوه وبجوارها كومة من السندويتشات وفي يده مشروب كبير الحجم وقد اكتظ فمه بالطعام، وبرز من جانبي وجهه المبتسم كرتان كبيرتان!

رحت أكتم ضحكي وأنا أتوقع العواصف القادمة عليَّ وعلى السائق.

كلٌ حسب خطأه، والذنب الذي ارتكبه.

فأنا تحدثت..

وهو أشبع جوعه...!

....

في السيارة...انفجر الدكتور:

– من سمح لك أن تتكلم؟!

رددت بهدوء:

- كامل زهيري.

- ومن طلب منك أن تطلب من كامل زهيري أن تتكلم عني؟

- لا أحد!

انفجرت ثورته صارخًا:

- لا أحد يعني لا شيء.. مثلك تمامًا، يعني نفي، يعني في الفلسفة " الفراغ والسلب" وفي الرياضة "القيمة الخالية" أنت قيمة فارغة خالية، "فاي – صفر"، فمن سمح لك بالكلام وسط (البهوات)؟ هل تريد أن تضم نفسك لدائرتهم؟

صحت وأنا أشيح بيديَّ غاضباً:

- بهوات؟ البهوات الذين تتحدث عنهم لم يهتم أحد منهم بالحضور، ومن حضر لم يتكلم، ثم أنا لا أريد أن أضم نفسي لأحد.. أنا مقتنع بنفسي.

- لا، إنت مليان نقص طبقي، عُقد طبقية، لهذا تطفلت على المفكرين والمثقفين الكبار...!

- طيب يا سيدي، أنا آسف..

- إياك أن تعاود ما فعلت مرة أخرى، سامع!

- قلنا طيب...!

والتفت إلى عبد المنعم صائحًا:

– وأنت ما هذا الذي فعلته.

ارتبك السائق الذي كان حائراً بين التركيز على الطريق وبين ثورة الدكتور:

- ماذا فعلت يا دكتور؟

- أكلت يا فندي. نزلت تأكل بين البهوات!

رد وهو ينقل بصره بين الدكتور وبين الطريق في حيرة:

- كنت أرى الناس من زجاج السيارة يأكلون ويشربون. كنت جائعًا يا دكتور.

صاح الدكتور في غضب:

- وأنا أعطيك مرتبًا لتأكل منه، لا لتشارك شخصيات المجتمع العليا من زملائي وأصدقائي الأكل.!!

- أنا آسف يا دكتور، لن آكل في وجودك مرة أخرى.

- ولا في غيابي أيضًا.

- (؟؟!!) ازاي يعني؟؟

- ولا كلمة.

اتشحنا بالصَمت والخَرَس أنا وعبد المنعم. بينما راحت السيارة تنهب بنا الطريق إلى مصر الجديدة!

*

كان الدكتور في فرنسا عندما أعلن د.عزيز صدقي تشكيل (الجبهة الوطنية) من معارضي سياسات الحزب الوطني لتفكيك وتخريب مصر.

كان الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء السابق يعارض -يوميًا تقريبًا- سياسات حكومة مبارك التي تفكك اقتصاد مصر من خلال الخصخصة والبيع وتسريح العمالة بدعوى التطوير واستقدام الخبرات الأجنبية.. كان الخراب يحل بالبلد كما هو واضح، ودخل معه محمود محيي الدين وزير الاستثمار الشاب الذي ينفذ سياسات نظيف المُخرِّبة، في مُشاجرات وحرب تصريحات. بعد فترة دعا عزيز إلى تشكيل جبهة وطنية لوقف نهب وبيع مصر، بعدما أطلق صيحته الشهيرة: " كل شيء في البلد هيتباع".

.. ودعا عزيز كل فئات المجتمع المصري بكافة توجهاته السياسية إلى الانضمام للجبهة.

توقعت شيئًا يتعلق بالدكتور عند الإعلان عن الجبهة، ولم يمر أكثر من يوم على إعلان قيامها حتى صدق توقعي!!

اتصل بي الدكتور من فرنسا، وكان صوته منفعلاً.

- آلو.. حمزة!

- إزيك يا دكتور.

- اسمع يا عزيزي، هل قرأت عن تشكيل الجبهة الوطنية للدكتور عزيز صدقي؟

- طبعًا!

- طيب -اذهب له حالاً- وأبلغه سلامي، وقل له إنني منضم للجبهة.

- عظيم يا دكتور... ولكن أليس من الأفضل أن تنتظر أن تأتي بنفسك لتلتقيه هذا قد يكون له أثر أفضل.!!

- لا! الوقت ليس في يدنا، نحن في يد الوقت! اذهب له حالاً. هذا رقم هاتفه كلمه، وقابله. وخذ ثلاث نسخ من مؤلفاتي واهدِها له.. إلى أن أعود.

- حسنًا!

(أغلق الخط)

اتصلت بمكتب الدكتور عزيز صدقي، رد عليَّ رجلٌ كبير في السن، استبعدت أن يكون هو، كان مدير مكتبه، عرفته بنفسي، أخبرته بأنني أريد تحديد موعد مع الدكتور عزيز، تركني على الانتظار قليلاً، بعدها رجع، وقال لي: تفضل غدًا الساعة (١٢) هل تعرف العنوان؟

- لا!

- الزمالك، شارع (٢٦) يوليو، عمارة سيموندس!

شكرته وأغلقت الخط. ورحت أحضر النسخ الثلاثة المطلوبة من المكتب للدكتور عزيز صدقي.

في اليوم التالي كنت في الزمالك، أفتش عن عمارة سيموندس -وجدتها- قريبة من اتحاد الكتاب، استوقفني حارس العمارة، وسألني عن وجهتي فأخبرته.

تأملني بريبة، وقال لي:

- الدور الثالث.

صعدت، ونقرت الباب بهدوء، فلن أسمع استجابة، في دفته برفق، فطالعتني صالة فسيحة، ومكتب أسود كبير، جلس خلفه رجل ستيني - رفع رأسه لي، وظل وجهه جامدًا، متساءلاً!

- صباح الخير.

- صباح النور.

- اسمي حمزة قناوي، وعندي موعد مع الدكتور عزيز..

تغيرت ملامح الرجل ولانت، ابتسم وهو يشير لي من وراء المكتب بالجلوس وهو يقول: تفضل، في موعدك تمامًا!

تقدمت نحو المكتب الأسود الضخم وجلست وقد داخلني الاطمئنان.

قال الرجل، وهو يكتب شيئًا أمامه على الأوراق: دقائق فقط وستدخل لمقابلة الدكتور.

- أشكرك.

نظر لي نظرة طويلة متفرسة قبل أن يقول مبتسمًا: ولكن لا أعرف لماذا تخيلتك أكبر سنًا مما جدتك؟

- لماذا؟ أنا لستُ صغيرًا بالمناسبة عندي ثمانية وعشر...

اتسعت ابتسامته وهو يقاطعني.

- عفوًا! لم أقصد شيئًا، ولكن توقعت مساعد الدكتور كبيرًا في السن أيضًا! يعني تصورت أن هذا الأقرب للتصور لطبيعة العمل مع الدكتور.

- آه!!

- رحت أتأمل ما قاله، وأراجع حياتي مع الدكتور..!

مر وقت قصير قبل أن ينهض الرجل ويتجه إلى باب خشبي لامع كبير في نهاية الصالة من قطعتين كبيرتين، يمسك مقبضه ويفتحه يمينًا ويسارًا، ويختفي بداخله بعد أن يغلقه خلفه وقد ضم نصفيه ليلتقيا.

رحت أتأمل المكان.

كرة رخامية ضخمة تستقر على قاعدة رخامية من نفس مادتها وقد وضعت على منضدة صغيرة مستديرة.

كراسي جلدية متناثرة في الصالة، ممر طويل مفضٍ إلى ظلام، لعله يقود إلى مطبخ أو شُرفة!

باب الشقة الـ...

(باغتني الوجه!)

وجة ينظر نحوي من خارج باب الشقة دون أن أنتبه!

نظرت له وقد فوجئت.. لم يختفِ أو يتراجع.

(هذا الوجه أنا رأيته منذ قليل!)

... حارس البناية الذي استوقفني بالأسفل.

كان من الواضح أنه يتفحصني!

ظللت ثابتًا أحدق في عينيه بصلابة..

سألته:

- هل هناك شيء؟!

كأنما راح يتأملني بنظرة فاحصة أخيرة طويلة قبل أن يختفي.

نهضت حائرًا، نظرتُ خلفي، حيث حجرة الدكتور عزيز المغلقة. هممت بالتحرك نحوها وعدت أدراجي.

نظرت إلى باب الشقة.. لا أحد هناك!

... رحت أنظر في الأرض وأنا أفكر في شيء.

فجأة انفتح باب حجرة الدكتور عزيز، وخرج الرجل ذو الشعر الأبيض، وقال لي: تفضل.

شكرته وتقدمت نحو الباب، وقد نسيت أمر الرجل المتلصص.

... دخلتُ فطالعت رجلاً ذا حضور ومهابة، ينظر لي بقوة وابتسامة محسوبة!

توجهت له بالتحية، نهض من على المكتب وحياني..

- تفضل يا ابني.

- أشكرك يا دكتور.

طلب مني تعريفه بي أكثر، فعرفته بنفسي موجزًا ما أفعله في حياتي، وركزت على أني مساعد الدكتور. سُرَّ الرجل واندهش.

- ولكن يا أستاذ حمزة...

-................؟

- تخيلتك ستكون أكبر عمرًا!!

-...................

- ألمر يا أستاذ حمزة؟

- الدكتور يحييك على فكرة الجبهة الوطنية المتحدة ويؤكد لك اعتزازه بأن ينضم لها وأن يكون له دورٌ فيها. وهو مستعدٌ لأي مسئولية تُحَمِّلونَهَا لهُ في سبيل الجبهة خارج مصر قبل داخلها.فطبيعة حياته تفرض عليه أن يظل في فرنسا أربعة أشهر في فرنسا كل عام.

- هذا يشرفنا يا ابني، أبلغه سلامي... وقل له أن يتفضل إلى مكتبي بمجرد عودته لمصر، لنشرب القهوة ونتكلم فيما يُمكن أن نتعاون من خلاله.

صمت الدكتور عزيز قليلاً.. وشبك أصابع يديه أمام وجهه، وراح يتأملها..

خيم الصمت لحظات بيننا قبل أن يردف:

- وأنت ألا تُريد أن تنضم إلى الجبهة؟!

قلت متحمساً وقد اعتدلت بجسدي نحوه:

- هذا شرف لأي مصري يا دكتور عزيز.

- ماذا تعمل في الأصل يا أستاذ قناوي؟

- مساعد للدكتور.

- ابتسم هازًا رأسه، وقال:

- أعرف أعرف، أسألك: ماذا تعمل في الأصل.

- لا أعمل شيئًا آخر في حياتي..! أما إن كنت سيادتك تقصد الوظيفة.. فأنا لا أعمل! أنا شاعر وعضو اتحاد الكُتَّاب ولي خمسة مؤلفات ولا شيء آخر.

بدا الأسى على ملامح الرجل.. ونظر نحو النافذة.. صامتًا! حوَّلَ وجهه نحوي بعد قليل.. وقال:

- لا تحزن يا ابني.. هذا واقع بلد بأكمله، لست وحدك من تشكو البطالة وعدم العمل، هناك ملايين الشباب ممن يدفعون ضريبة سياسات الفشل، الخصخصة والبيع وتركيع مصر، الفساد الاقتصادي والمليارات الهاربة، والنهب...

أمّنت على كلامه بهز رأسي ووجهي الواجم، فاستطرد..

- تعرف يا حمزة.. هذا البلد الذي بنيناه في الخمسينات والستينات بدءًا من شرارة الكهرباء الأولى، وجالون المياه الاحتياطي الأول، ومصانع الصناعات الثقيلة والمظلة الاجتماعية والتأمينات والمعاشات ومحاربة الفساد.. كل هذه التجربة الإنسانية التنموية العظيمة في تاريخ هذا البلد تنتهي الآن على أيدي هؤلاء (الحرامية).

وهذا الشاب الصغير الذي لم يقرأ شيئًا من التاريخ يقول: "سأبيع ما أراه في البلد من أجل البيع فحسب!!"

(كان يتحدث عن وزير الاستثمار الشاب في حكومة "رجال الأعمال" التي عينها أحمد نظيف بتوجيهات جمال مبارك).

قلتُ:

- إن هذه السياسة هي الامتداد الطبيعي للانفتاح الاقتصادي، وتذويب الشخصية المصرية في كيانات أخرى منذ كامب ديفيد.

كان لابد أن يستمر النزيف يا دكتور عزيز... ومن ظنناه سوف يقيل عثرة مصر بعد ذهاب العصر الساداتي، فعل ما هو أفدح، وها هي البلد تدخل في أسوأ ظروفها في التاريخ الحديث...

- شفت! أنت تعرف كل هذا وتتحدث عنه بأسى، ولم تكن ولدت بعد عندما بدأت مسيرة النهضة الحديثة إبان الثورة.فما بالك بمن خططوا لها وأرسوا دعائمها!

ابتسمت وأنا أنظر له بإعزاز، قلتُ:

- أعرف أنك كنت رئيس الوزراء في عهد عبد الناصر، أعرف أيضًا أنك كنت من مهندسي إنشاء السد العالي.

نظر الرجل بعيدًا، كأنما سبح في الزمن، وهو يقول:

- السد العالي!!

رحت أبحث عن شيء أقوله، إلاَّ أنه أكمل..

- أخشى أن يبيعوه أو يخصخصوه هو الآخر يا ابني!!

هززت رأسي آسفًا...

خيم على المكان صمتٌ ثقيل، وساد هدوءٌ موتِّر.

- تعرف يا دكتور.. كان أبي موجودًا في مصنع أبو زعبل يوم ضربته الطائرات الإسرائيلية، كان عاملاً في المصنع. أبي هذا نفسه توفي في المصنع في مسطرد وهو يعمل. بعد سبعةٍ وثلاثين عامًا من العمل المتفاني توفي في موقعه.. فشلت في أن أعمل في الشركة أو المصنع بعده. عمل بدلاً مني شاب أخبرني بعدما زرته في المكتب الذي وعدني رئيس الشركة بأن يخصصه لي تقديراً لأبي الذي خدم المؤسسة حتى مات فيها بأن يُخصص لي، أخبرني هذا الشاب أنه دفع ثلاثين ألف جنيه ليحصل على الوظيفة بدلاً مني... الآن تريد الحكومة أن تأخذ من نقود المعاش الذي بقي لأسرتي، ككل أصحاب المعاشات في مصر، لتدفع تعويضات خسائر وحرائق وبنوك منهوبة وقطارات محترقة، وعبَّارَات غارقة.

رفع الرجل عينه في عينيَّ هازًّا رأسه وهو يتأملني بعمق.. مرَّ وقتٌ قبل أن يتكلم..

- هذا حال بلد بأكمله يا ابني، هذا قدر مصر، وأنت شاب من أبنائها.. لا أعرف ماذا أقول لك، سيشرفني أن تنضم للجبهة بعدما سمعته منك.

شكرته وأنا أقدم له كتب الدكتور التي كدت أن أنساها.. أعطاني كارتًا عليه أرقام المكتب.. وخط على ظهره سريعًا رقم هاتفه المحمول، وقال لي: يُمكنك زيارتي في المكتب في أي وقت...

شكرته وأنا أشد على يديه، واتجهتُ نحو باب الحجرة، فتحته وخرجت.

أغلقته خلفي، وخطوت نحو مكتب السكرتير الذي كان منهمكًا في كتابة أوراق كثيرة.

قلت له:

- أشكرك يا أستاذ..

رفع وجهه باسمًا: ورد التحية، ثم قال:

- عفوًا.. نسيت أن أدعوك لشرب شيء عندما كنت تنتظر الدخول إلى الدكتور، فشكرته.

أصرَّ وقد نهض قليلاً من على المكتب فجلستُ محرجًا. ضغط على زر صغير أمام مكتبه، فسمعتُ جرسًا ينطلقُ بالداخل في عمق الشقة، من جهة الردهة المظلمة.

جاء منها شاب في عمري تقريبًا، يرتدي قميصًا أبيض وبنطلون جينز...
طلبتُ قهوة بدون سكر، وطلب هو شايًا.. ذهب الولد..
فالتفت الرجل ناحيتي كأنما ينتظر مني أن أبدأ حديثًا.
قلتُ له: واضح أنك مع الدكتور عزيز منذ وقت طويل..
كأنما استراح للسؤال!، نظر بعيدًا، وقد لمعت عيناه، ابتسم وقال لي وهو يهز رأسه:
- ثلاثين سنة للآن...
- ياه! هذا عُمر..
- نعم.. عُمر، لا يُمكن أن أتركه، بعد كل عِشرة العمل والحياة هذه...

نظرتُ نحوه بامتنان.. ساورني الشعور نفسه الذي أشعر به كلما التقيتُ أحدًا من الجيل الكبير الجيل السابق، آباؤنا وأجدادنا.. وهو أن فيهم شيئًا لم ينتقل للأجيال التالية، كأنه الحقيقة أو الأصالة، الصدق، أو الإخلاص لمعانٍ لا تجد لها كبير تواجد في وقتنا الحالي، الصبر.. الأناة.. القيمة.

تذكرتُ فجاة المحامي العجوز النحيل صديق طفولة الدكتور الذي جاء له من الجيزة إلى مصر الجديدة يتوكأ على عصاه ليراه فقط، وبعدما اتهمه، دون أن يدري الرجل بأنه أراد أن يسمه ويقتله بالحلوى وجدته مرة أخرى بين الحاضرين في احتفالية تكريم الدكتور... يسير بصعوبة ويتكلم بصعوبة، وينظر لصديقه مبتسمًا ممتنًا، وكله إحساس بالمشاركة والمحبة!

رحت أتأمّل شيئًا قبل أن أنتبه على صوت فنجان القهوة الذي وضع الشاب طبقه أمامي على المكتب، نظرتُ لوجهه فوجدته متجهمًا.. شكرته، فرد التحية قبل أن يميل الصينية ويذهب.

رحت أشرب القهوة على مهل بينما انشغل السكرتير القديم عني في أوراقه..

رن جرس المكتب فجاة، فلاحظت أن الباب قد أغلق، خرج الشاب الذي أعد القهوة من عمق الطرقة، واتجه نحو الباب وفتحه.

دخل رجلٌ طويل.. وسيم، ذو شعرٌ فضي ويضع نظارة رفيعة، قدرته أنه في الخمسينات، يرتدي حُلة أنيقة، ويحمل على كتفه حقيبة جلدية كالتي أحملها، بادرنا بالتحية، فنهض السكرتير من على المكتب.

- أهلاً دكتور سمير..
سلمتُ عليه، لاحظت أنه يتأملني منتظرًا أن أعرفه نفسي..
فتكفل السكرتير بالمهمة..
تأملني الرجل مليًا وهو يهز رأسه وقد اتسعت ابتسامته.

- أهلاً بك وبالدكتور، اسمي سمير فياض. مساعد الدكتور عزيز لشئون الجبهة الوطنية، ويشرفنا انضمام الدكتور!

شكرته فأعطاني كارته الذي يحوي أرقامه، وطلب مني أن أجعل الدكتور يتصل به في أسرع فرصة ليُنسق معه.

وعدته بذلك وعاودت شكره، وأنا أحيي السكرتير أيضًا.. وأتجه نحو الباب..

وجدتُ المصعد أمامي، وقفتُ أمامه قليلاً.. ولم أركب.. فضلتُ النزول على قدميَّ، رُحتُ انزل السلمات الرخامية الكبيرة في السلم الواسع... وأنا أنظر إلى الشقق الكبيرة المغلقة، أعرفها جيدًا وأعرف تصميها الجميل ورحابتها، على قدمها، بناها الإنجليز في أوائل القرن الماضي، كان جدي يسكن شقة منها بإحدى العمارات القديمة القريبة من مكتب الدكتور عزيز، كنتُ أحب هذه الشقق وأشعر أنها تتأمل التاريخ والأيام والأحداث، وتختزن ما تراه في صمت أركانها، وعبق الجدران الهادر لوقائع القاهرة جيلاً بعد آخر، وحقبة بعد أخرى، وتتشح بالسكون والصمت!!

رحت أدور مع السلالم وعيني على الشقق، إلى أن وصلت لأسفل حيث باب العمارة..

لمحتُ موظف الأمن الجالس على مكتبه يتأملني وأنا انزل لاحظ أنني انظر إلى عينيه مباشرة، فحول بصره إلى جريدة مفرودة أمامه على المكتب، يتجه ببصره فيها من اليمين إلى اليسار في سُرعة!!

ظللتُ واقفًا على السلمة الأخيرة، دون أن انزل، رفع رأسه ببطء عن الجريدة ونظر لي، كانت عيناي مغروستان في وجهه، نظر جهة اليسار نحو الشارع قليلاً، ثم عاد ينظر إليَّ لاحظتُ أن خلجات وجهه علاها ارتباك خفيف.

نزلتُ من السلمة الأخيرة وخطوت نحو الباب ومنه إلى الشارع.

*

انضم الدكتور للجبهة، ومضت الأيام، ومع مضيها كنت أتوقع شيئًا.ظللتُ طاويًا سره في أعماقي محتفظًا به لنفسي.

ويومًا بعد يوم كان حدسي يتحقق!

توقعت ألا يفعل شيئًا فاعلاً للجبهة، ولن يقدم لها شيئًا، لا هي ولا أي حركة يسارية مناوئة للنظام أو توجه فكري يأخذ موقفًا من السلطة.

ولم يكن هذا لأن الدكتور غير وطني مثلاً أو غير مخلص لقضية مصر، أبدًا فالرجل كان نبيلاً ومخلصًا لوطنيته ومصريته.

ولكن حسابات التوازنات، ورغبة البقاء في المساحة التي أفردت له في الأهرام ومجلس الشئون الخارجية المصري.. ونادي السيارات.. وكلية الاقتصاد والسياسة التي كان يذهب إليها باستمرار محاضرًا.. حيث كان من أقرب أصدقائه علي الدين هلال كبير أعضاء الحزب الوطني ووزير الصفر الكبير الذي ستذكره مصر للأبد مع كل طلب تنظيم لكأس العالم من إحدى الدول، وغيره من أساتذة اقتصاد وعلوم سياسية مثل محمود عبد الفضيل، ود. نادية مصطفى عميدة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية أو د. مصطفى علوي الذي احترق مسرح بني سويف التابع لوزارة الثقافة عندما كان مسئولاً عن هيئة قصور الثقافة، واحترق فيه خيرة مسرحيي مصر.

كنت انتظر موقفًا واحدًا للجبهة.. قد يحتمل سوء تأويله أو تفكيره ليفك الدكتور ارتباطه الذي لم يتحقق يومًا بها، وقد حدث ذلك بالفعل بعد مجموعة من الإشارات والمواقف الدالة.

فبعدما عاد الدكتور من فرنسا، أخطرته ونحن في منزله بحماس الدكتور عزيز صدقي لمقابلته في مكتبه من أجل التعاون من أجل الحركة..

فنظر لي الدكتور طويلاً.. وردَّ بنبرة لا مبالية: إن شاء الله!!

كان هذا كافيًا بالنسبة لي لأتيقن من أنه لن يلتقي بالدكتور عزيز أبدًا! فرأيت أن أحاول تقريب المسافات بقدر المتاح، فاقترحت عليه أن يتصل به حتى مجرد اتصال، لشكره على الموقف، فتردد قليلاً، ثم نهض وسار باتجاه غرفة المكتب..

ظللتُ جالسًا أنظر للحديقة، وأراقب البشر والعاشقين الصغار المختفين بين الأشجار، والشمس التي تفرش نورها على الخضرة الزاهية، وأبتسم!

مرت دقائق... شعرت بالدكتور في ممر الشقة، فالتفت خلفي رأيته، وقد علا وجهه الغضب، بادرته..

- خير يا دكتور؟!

رد صائحًا: مين سمير (.......) ده؟

- هذا منسق الجبهة، قانوني كبير فيما أظن، ويساعد الدكتور عزيز.. صاح بحدة أكثر:

تصور!! بيقولي أبقى (أعدي) على المكتب أشرب القهوة ويتكلم معايا!.

- طيب وما الخطأ يا دكتور؟ لا أرى أن الرجل أخطأ فهو يرى...

- لا ترى لأنك أعمى! أنا يكلمني بهذه الطريقة ويقول لي: "فوت" على المكتب..؟؟

- يا دكتور طيلة عمرك لا تتوقف عند مثل هذه الأمور فلماذا الآن تشغل اهتمامك بها؟ ألست دائم القول لي: المهم العمل - المضمون- التحرك؟! هذا مجرد أسلوب فقط، ربما لم يقصد الرجل وتحدث بحسن نية.

- لا، أنا لا أتعاون مع أحدٍ لا أعرفه!

-....!

- ثم أين الدكتور عزيز صدقي؟

- الدكتور عزيز لا يكون موجودًا باستمرار في المكتب..

أطرق الدكتور ينظر في الأرض وقد عقد يديه خلف ظهره، وهو يتأمل شيئًا.. وقد احمر وجهه انفعالاً...

ولم أعرف ماذا أفعل لأخرجه مما هو فيه...!

قلت: يا دكتور طيب ما رأيك أن أتصل لك بالدكتور عزيز وأعد لك موعدًا معه؟!

رد بحدة: لا، لا تتصل ولا تحدد شيئًا!.

صمت.

كان الدكتور مازال يُفكر. رفع رأسه وقال لي: اذهب الآن ونلتقي مساءً.... أريد أن أبقى بمفردي.

نهضت في بطء، واتجهت إلى باب الشقة، خلعت الخف الأزرق وارتديت حذائي...

- هل تريد شيئًا يا دكتور؟!!

نظرت له، فوجدته شاردًا ينظر عبر النافذة المشمسة إلى الحديقة، لم أدر إن كان لم يسمعني أم لا يريد أن يرد...

غادرتُ الشقة وسحبتُ الباب خلفي بهدوء...

في المساء.. كنت أعرف ما الذي سيسمعه لي!

....

....

في المساء فتح لي الدكتور. كان ساهمًا. اختفى من أمامي إثر فتحه الباب لي. وقفتُ لحظات ثم دخلتُ. لبستُ الخُفَّ الأزرق. وسرت تجاه كرسيه عاقدًا يدي خلف ظهري كما يسير هو أمامي!

جلس فجلست.

ظل صامتًا لحظات، قبل أن ينظر نحوي..

- حمزة...

رددت مكملاً:

-... لن أنضم للجبهة الوطنية!!

كأنما تسمر الدكتور! راح ينظر في وجهي مندهشًا... ويحملق في عيني. خلع النظارة السميكة، وأخذ يتفحصني..

استمر الصمت بيننا نصف دقيقة. فجأة قال:

- شفت! انت أيضًا عرفت! كيف توقعت ألا أنضم للجبهة؛ لأن إحساسك قادك مثلي تمامًا، أن هناك شيئا غير واضح بها، صح؟!

- (لم أرد)

- آه .. يعني صح..! عظيم! والآن تعالى نرى ما وراءنا وننسى هذا الأمر.

نهضنا.. وما وراءنا هو كتابة مقالات الأهرام، وكتابة مقال للهلال، وجمع مقالات كتبت من اربعين وخمسين سنة من أجل الدفع بها في كتاب جديد (مثل كتاب "الوطنية هي الحل"، الذي لم يكن يحوي كلمة جديدة سوى المقدمة، أما متن الكتاب فكله مؤلف من ستينات القرن الفائت ومنشور في مجلات وصحف كثيرة، ومثل كتاب "الصين" الصادر عن كتاب الهلال، ومثل كتب أخرى كثيرة، كان الدكتور يكلفني بجمع مقالاتها القديمة من أركان المكتبة شرقًا وغربًا، إلى أن تستوي بين دفتي غلافين، فيكتب له المقدمة في أسبوع، وبعدها أسير في شوارع القاهرة متأبطًا الكتاب / المقالات، متوجهًا لإحدى دور النشر.. الهلال، مركز المحروسة، الأهرام، الشروق الدولية، حسب ما تجود به قريحته، وحسب تصاريف الأقدار التي ترمي بي شرق المدينة أو غربها).

ما وراءنا هو الكتابة والكتابة والمزيد من العصبية والصياح والتحمل والصبر على أوامر لا أعرف كيف صارت مع الأيام حقًا مكتسبًا..

ما وراءنا هو تاريخ قيمته أكثر من خمسين عامًا، صرتُ أحمله فوق ظهري مضافًا إلى عمري الذي لم يتجاوز العشرينات، تواريخ وأحداث ومواقف ومعتقلات وعلاقات بمناضلين وثوريين قدامى ووزراء وأساطين فكر وفلسفة... جعلتني أكتهل بينهم، ولا أرى من شبابي سوى ما تتركه العين للرائي العابر على الأشياء.

ما وراءنا هو ما أمامنا..

الحياة في ظلال تاريخ انتهى منذ نصف قرن.. يتعبد له الدكتور وحيدًا في معبده المنعزل، متصورًا أنه مازال ملء السمع والبصر والحياة.

واقف أنا وراءه، منشدًا تراتيل تلك التاريخ، وقلبي يترنم بأساطير لم أعشها، وثورات وأحلام لم أكن قد أتيت إلى هذا العالم حين نصبت لها المشانق، وهي تسير إلى طريق موتها النبيل.

....

كان الظلام والسكون يسودان الغُرفة وخارجها حين رن جرس الهاتف، فأفقتُ من النّوم منزعجًا بشدة وعيناي شبه مغلقتين، كنت قد رجعت من بيت الدكتور متأخرًا، في الثانية صباحًا بعدما أصر أن أبقى معه لأنه أصابه قلق ويخشى البقاء وحيدًا.

نظرت للساعة وأنا أمد يدي نحو سماعة التليفون، رأيت عقاربها بصعوبة في الظلام وهي تشير إلى الخامسة إلا الربع صباحًا.

- آلو!

- حمزة. تعال فورًا، أرجوك، انجدني!!

اعتدلت وقد باغتتني كلمات الدكتور ولهجته الخائفة..

- خير يا دكتور، هل حدث شيء، أنت بخير؟

- نعم، حدث! قطعتُ جزءًا من أصبعي وأنا أقص أظافري! دم يا حمزة!! يدي تنزفُ دمًا كثيرًا.. سأموت.

نهضتُ كالملسوع واقفًا على السرير فتأرجحت سماعة التليفون في الهواء:

- لن تموت ولا شيء، اصمد فقط نصف ساعة.. ثلثي ساعة، سآتي لك فورًا، ضع أي شيء على يدك إلى أن أصل إليك وننزل إلى المستشفى فورًا، منديلاً أو أي شيء، سلام الآن!

أغلقت السماعة وقفزتُ منَ على السرير، وأنا أسوي شعري بيدي وأقفز إلى الحذاء الرياضي فأرتديه على "الترينج" الذي كنت نائمًا به، والتقط محفظتي.. بعدها كنتُ أركض لصالة المنزل، ومنها لباب الشقة فالشارع.

بينما كنت أجري في شارعنا الصغير المغلق، حانت مني التفاتة إلى شقتنا في الطابق السادس. لمحتُ أمي تقف في البلكونة وقد أضاءتها وتنظر لي وهي تشد شالها على كتفيها... أشرتُ لها بما يعني ألا تقلق، وأنا أواصل الجري إلى أن وصلت إلى الشارع الرئيسي.

بعد ثلاث دقائق كنت أقفُ أمام التاكسي الوحيد الذي لاح في ذلك الوقت وقد اعترضت طريقه!

كان السائق ينظر لي بدهشة..! تجاهلته وأنا أقفز إلى جواره، وأقول له: شارع ...

نظر لي السائق في المرآة، وهو يتأمل وجهي القلق قال لي بهدوء: (هاخد عشرة جنيه).

فتحتُ محفظتي في سرعة وارتباك، والتقطتُ منها عشرة جنيهات. ناولتها له وأنا أقول له: تفضل، ولكن من فضلك سوق بأسرع ما يُمكن!!. فانطلق بالسيارة..

كنت أشعر أنني لا أزال نائمًا أو أحلم.. رحتُ أتأمل شوارع القاهرة في الفجر.. عربات الفول المتراصة بجوار الأرصفة.. والبسطاء الملتفين حولها يتناولون إفطارهم، وقد راحوا

يعصرون الليمون فوق الأطباق أو ينتقون أرغفة الخبز.. القليل من تلاميذ المدارس والشنط العريضة فوق أكتافهم النحيلة.. معروقون، نحيلو الجسم، عليهم أمارات سوء التغذية، كمعظم تلاميذ مصر.. المقاهي التي يرش الصبيان المياه أمامها ونشارة الخشب بداخلها، عمال التراحيل الجالسين في ميدان المطرية يسندون أكفهم الخشنة على أدواتهم، الأزاميل والمطارق والأدوات الحديدية.

... الكناسون الذين يكنسون أوراق الأشجار من جوار الرصيف، كأنما ارتضوا هذه المساحة من الحياة فعلاً ليتحركوا فيها، عاملوا القمامة الذين يحملون المخالي على أكتافهم ويتحركون في نشاط، بائعو الصُحف الذين يتأملونَ الناس في الميادين...

المحلات المغلقة على الصمت، مساحات الخضرة المُنَدَّاة في الشوارع القديمة والميادين.. كأنما كنتُ أرى كل ذلك وأنا أحلم!!

توالت المشاهد والصور التي تركت في نفسي شعورًا عميقًا مرهفًا.. لا أعرفُ مصدره، والتاكسي الصغير ينهب الطريق نحو مصر الجديدة إلى أن وصل إلى الشارع، وتوقف أمام عمارة الدكتور وجدت الباب مغلقًا.. فركضت نحو الممر الجانبي للعمارة الذي توجد به غرفة البواب..

رحت أطرق بابه وأنا أنادي عليه.. سمعت صوت خبط بالداخل قبل أن يفتح الباب، ويطالعني وجه الشاب الصعيدي الطويل، وقد ارتدى جلبابه البني..

- صباح الخير يا حسن.

- صباح النور يا أستاذ حمزة.. خير؟!!

- افتح لي باب العمارة..

- كم الساعة الآن يا أستاذ؟!!

الخامسة وخمس دقائق...

راح يتأملني في حيرة وهو ينظر للترننج الذي أرتديه، وشعري المتناثر.. تثاءب وهو يغالب نعاسه قبل أن يلتقط سلسلة المفاتيح من على منضدة بالية بالداخل.. ويسبقني.

في الطابق السادس وقفتُ أرن الجرس وأخبط على الباب في نفس الوقت.. وقد ملأني القلق..

هل يكون قد اتصل بالإسعاف بعدما أغلق الخط معي؟ هل يكون اتصل بالسائق.. أو قريبه د. البير؟.. فهو يسكن على بعد شارعين منه!

استمررتُ أضرب الجرس.. إلى أن فَتح الباب.

طالعت الدكتور. كان متعبًا.. شاحب الوجه.

- حمزة.. أشكرك لمجيئك يا عزيزي، تعال ساعدني بسرعة.

التقطت يد الدكتور وأنا أتفرّسُ في أصابعها التي ربطها جميعًا بمنديل قماشي لبني.

- لا تقلق.. سنتصل بشقيقتي في مستشفى الدمرداش. فهي "وردية" من الأمس وتنام فيها.ستجهز لك الطوارئ. لا تقلق.

- آه.. أشكرك يا حمزة، دم! طيلة الليل أنزف دماً.

رددت وأنا منهمك في فتح المنديل الذي ربط به يده:

- لا تقلق يا دكتور، أنا معك، اعطني يدك، لن يحتاج الأمر في أسوأ الظروف سوى إلى خياطة صغيرة، وربما غرزة أو اثنتين، تحمل يا بطل!

رحت أفك المنديل من أصابعه على مهل.. وأنا أخشى المنظر المباغت.. كنت طيلة حياتي أخاف مناظر الدم والجراحة، ولكنني أخفيت مشاعري هذه وأنا أتظاهر بالتماسك وبساطة الأمر...!

.. صار المنديل مفرودًا تمامًا.. ولم يعد ينقص سوى أن أبعده عن يد الدكتور؛ لأرى أي أصبع الذي قطع منه جزءًا بالمقص..

أبعدت المنديل وأنا أتمتم في أعماقي بآيات العالمين!

انكشفت اليد.

الأصابع كلها سليمة وزاهية!

قطبت حاجبي وأنا أقرب وجهي من اليد..

لم أرَ شيئًا..

قلبت اليد أتأمل ظهرها...!

سليمة والأصابع في كامل صحتها..

نظرتُ للدكتور.. حائرًا..

لمحتُ طيف ابتسامة على ملامحه، اختفت سريعًا ما أن التقت عيناي بوجهه وقد عاد وجهه جامدًا متألمًا..

توجستُ من فكرة باغتتني، أيكون...!

- أين الإصابة يا دكتور؟!! لا يوجد شيء.

صاح غاضباً:

- دقّق يا أستاذ! أنا أصبتُ هُنا.. كان الدم يتدفق من هنا منذ قليل!!

قلت حائراً:

- يا دكتور يدك سليمة.. لا أرى شيئًا..

- أقول لك انظر.. دقق!

رحت أتأمل طرف إصبعه وأقربه من عيني وأقلبه حائرًا فيه..

كان مقصوصًا بعناية أكثر مما ينبغي، وكان هناك مليمتر واحد فقط مقصوص أكثر من مستوى حرف الإصبع!!.

أمسكتُ بالإصبع بمفرده وأنا أقول له في ثورة مكتومة..

- هذا...؟

رد في ألفة:

- نعم... هل ترى الجزء الذي قطعته؟

انفجرتُ صارخًا: قطعته؟ جزء؟ أي جزء؟ هذا اسمه "ظفر" يا دكتور. ظفر وليس إصبعًا! سامع! حرام عليك يا دكتور! شيبتني! أتيت بملابس النوم أركض في الشوارع فجرًا من أجل جزء مقصوص من ظفرك؟... يا أخي مش كدا.!)

صاح بدوره:

- ولماذا تريد النوم إلى ما بعد الفجر؟! أنت أكسل شاب رأيته في حياتي! طبعًا.. تنام وسط أسرتك.. متلذذًا بالمعية والرفقة، وتتركني هنا مع الأشباح..

(آه... كان هذا هو الأمر إذن...).

- أغمضت عينيَّ أنظر للأرض وأنا أهز رأسي في يأس..

جلستُ على الكرسي وأنا أزفر وأنظر للحديقة، والفجر الذي لم تشرق شمسه بعد! لا أعرف ماذا أفعل أو أقول..

نظرت له، فوجدته جلس أمامي ينظر نحوي في براءة..!

هززت رأسي في يأس.. قلت في استسلام..

- طيب يا دكتور ماذا تريد الآن؟!

لم يَرُد.. أخذ ينظر يمينًا ويسارًا حائرًا..

- هاه!! قل.

- يعني.. أقول يا حمزة يا عزيزي، هل يمكن استثناءً يعني، أن تبيت عندي الليلة؟!

(كنت أعرف!)

- ممكن يا دكتور..

انفرجت أساريره، ابتسم.. نهضت واقفًا واتجهت لمقعده، ربتُّ على كتفِه وقلت..

- ولكن يا دكتور، ممكن من فضلك أن تخبرني بعد ذلك مباشرةً برغبتك في أن أبيت عندك بدلاً من كل هذا الذي تفعله؟!!

هز رأسه ينفي ما قلته وهو يمد إصبعه الصغير نحوي ويتمتم هامِسًا..

- ولكن إصبعي، والجرح، كان هناك دم منذ.. آ!

قاطعته:

- نعم، أعرف. طيب أنا أصدقك، ولكن ممكن يعني المرة القادمة تصارحني، وبعد ذلك أطمئن عليك؟!

- حسنًا.

- عظيم يا دكتور.. اتفقنا.. والآن أين سأنام؟!

- في غرفة والدتي..

- الله يرحمها.. طيب عن إذنك..

تركته ورحت أسير تجاه غرفة الأم الملاصقة لغرفة المكتب... فتحتها.. نظرت للسرير..

جلستُ على حافته وقد وضعت رأسي بين يديَّ.. أغمضتُ عيني مرهقًا، لا أعرف ما هذا الذي يحدث!!

كنت على وشك الانهيار بالفعل، وكانت تملؤني رغبة في الصراخ أو الانفجار..

خلعتُ حذائي، وتمددت على السرير، فردت اللحاف وألقيته على جسدي..

ساعة الحائط تُشير إلى الخامسة والنصف...

حاولت الاستغراق في النوم..

سمعتُ صوت قدمي الدكتور تسير في الممر.. أخيرًا سينام.. اطمئن إلى أنني معه.. وسينام..!

توقفت الخطوات عند باب غرفتي.. وسمعت الدكتور يصيح:

- باقول إيه يا حمزة...! الساعة صارت الخامسة والنصف - كلها نصف ساعة ويحين وقت عملك معي.. أرى ألا تنام أحسن، انهض واستعد للعمل.. يالله....!

*

في عام (٢٠٠٦) كانت مصر تمور بالغليان السياسي.. وقد وافق هذا العام صعود نجم الإخوان المسلمين بقوة، الذين احتلوا ربع مقاعد البرلمان -مجلس الشعب- في انتخابات زوَّرها الحزب الوطني ليوقف من نجاح الإخوان وصعودهم، وكانت المظاهرات تعم شوارع القاهرة يومًا بعد آخر ما بين مظاهرات لحركة كفاية ومظاهرات للإخوان ومظاهرات لنادي القضاة المعترضين على عدم تمكينهم من الإشراف على الانتخابات ومظاهرات لطلاب زورت الجامعة انتخابات اتحادهم وفصلت من قاموا بانتخابات بديلة لما أسموه (الاتحاد الحر).. ومظاهرات لعمال تم فصلهم وبيع مصانعهم أو خصخصتها في كفر الدوار وشبين.

كانت رائحة الفساد تزكم الأنوف في مصر.. وكان سيناريو توريث السلطة هو حديث الشارع ما بين مصدق بأن هذا هو ما سيتم، ومكذب له. وسقطت البلد في بلبلة وارتباك. وخرج مفكر مصري كبير يقول (إن مصر دولة تسير إلى المجهول).

وفي الجامعة ظهرت حركة (٢٣ مارس) من أساتذة الجامعة بمصر الذين دعوا لاستقلال الجامعة المصرية عن سيطرة الحكومة، بعدما صارت الجامعة منتهكة تمامًا من قِبَل الأمن والسياسات البوليسية التي تكتب التقارير في الأساتذة والطلاب على حدٍّ سواء، وتتحكم في الحرم الجامعي وتقمع المظاهرات...

وفي أول انتخابات تعددية شهدتها مصر تم التزوير لحسني مبارك بشكل مفضوح، وتلاه في الترتيب أيمن نور الذي زجوا به إلى السجن بعد الانتخابات مباشرةً.. ليقضوا على مستقبله السياسي من أجل إفساح المجال لجمال مبارك...

وطالت النكبات والكوارث القدرية دون تهمة كل من اشترك في الترشيح لرئاسة الجمهورية، بدءًا من نعمان جمعة الذي انقسم حزب الوفد حوله وقرر إقالته.. فاقتحم المقر ببلطجية واستخدم مسدسه وقتل شخصًا وأصاب آخرين.. وهب الفريق الآخر يدافع عن مجموعته هذه، وسُجن نعمان جمعة، في أحداثٍ ظلت خيوطها الخفية خافية عن أعين الجميع، وتحركات مبعثها مشكوك في قدريتها ومصادفتها!

أما المرشح أحمد الصباحي فقد كان يلعب دور مُضحِك الملك، في مسرحية الانتخابات، كان تسعينيًا من العمر، ويريد خوض انتخابات رئاسة الجمهورية، وكان يتكلم بصعوبة وينطق ببطء، وعندما استضافه التليفزيون للحديث عن مشروعه الانتخابي وسباق الرئاسة، ذكر بأنه يؤيد ترشيح حسني مبارك!!

وكان أول ما على قائمة برنامجه الذي يريد إنجازه في مصر إن تولى الرئاسة: أن يعود الشعب المصري إلى ارتداء (الطربوش)، باعتبار ذلك معبرًا عن الأصالة والشخصية المصرية!..

حتى مُضحك الملك لم يسلم من أن يحجر عليه أبناؤه بدعوى أنه صار مخرفًا!!..

.. كان هؤلاء أبرز مرشحي الرئاسة، وهذا ما آلت إليه مصائرهم!

وهي مصائر دالة ولافتة.

كانت مصر تعيش أسوأ فترات الفساد التي مرت في تاريخها الحديث منذ كامب ديفيد.. وفقد المصريون الثقة في الحياة وفي النظام الحاكم وفي أنفسهم.

صار المصري غريبًا في وطنه، يخشى أن يتنزه في حي به أجانب أو سفارات ويُطالبُ بإبراز هويته لمجرد سيره بجوار سور المتحف، وإن كان مصطحبًا زميلة له، فسيتعرض لأسئلة وتحقيقات لن تنتهي، واستجوابات، وهذا نفسه يحدث في بعض محطات المترو التي ينتشر فيها المخبرون كالسم في الهواء، كمحطتي حسني مبارك وأنور السادات(!)

والمتأمل لارتباط اسمي المحطتين بالظاهرة كأنما يتأمل خيطًا من الضرورة لا المصادفة!

كان المصريون يُضيَّق عليهم في كل شيء، وبالأخصّ في لُقمةِ العيش، ووصلت البطالة إلى معدلاتٍ غير مسبوقة، عشرة ملايين عاطل في مصر في سن العمل وقوته، وصار الشباب يُفجِّرون أنفسَهُم بالقنابل من أعلى الكباري (ككوبري الحسين) يأسًا واكتئابًا وفي الميادين مثل ميدان (عبد المنعم رياض)، والفتيات يتطرفن ويحملن السلاح ويهاجمن به السائحات ويطلقن على أنفسهن النار يأسًا وإحباطًا.

وكانت السلطة كأنها تعيش في وادٍ آخر، أو في كوكبٍ آخر، وتترك كل هذه الأوضاع المأساوية والانهيارات، وضياع البلد، وتستمر في نهب مصر وسلبها..

وعندما غرقت العبَّارة (السلام ٩٨) عام ٢٠٠٦ بمن عليها من مصريين، أكثر من (١٠١٤) مصريًّا أكلتهم الأسماك في البحر وثار الأهالي وأقارب الضحايا، وتجمهروا عند مقر الشركة في البحر الأحمر يحرقونها، قامت الشرطة بإطلاق النار عليهم، واعتقلتهم، بينما هرب صاحب العبَّارة إلى بريطانيا ولم تحاول الدولة أن تجري اتصالاتٍ بالإنتربول للقبض عليه، لأنه كان محميًّا من زكريا عزمي رئيس ديوان حسني مبارك، ومن حسني مبارك نفسه.

بعدها خرج علينا النائب العام بقرار تبرئته.. مقابل دفع أموال كتعويضات لأقارب الغرقى، ولم يُحاسَب لاعتبار حق المجتمع المنصوص عليه في الدستور، وكانت ليلة إعلان تبرئته من النائب العام ليلة ذُهِلَ فيها المصريون وملأهم السخط على ما يُفعل بهم أمام أعينهم.

دفع ممدوح اسماعيل - مالك العبَّارة - التعويضات.

وبعد أسابيع قليلة اتضح أنه كان مؤمّنًا بشركة أجنبية على العبَّارَة وعلى تذاكر السفر المحجوزة عليها لأية رحلة بمبالغ تفوق ما يدفعه في حال حدوث أي كارثة تصيب العبارة أو المسافرين..

وحدثت الكارثة وقبض مبالغ التأمين التي فاقت ما دفع من تعويضات عشر مرات.. وعاد حُرًّا طليقًا.. نزيهًا مبرءًا من الدولة وقد ازدادت ثروته!!

بعدها احترق قطار من قطارات الدرجة الثالثة واحترق الفقراء المسافرون إلى صعيد مصر معقل الفقراء والبسطاء والمغلوبين على أمر حياتهم في مصر، كان رئيس الوزراء ووزراؤه في "مارينا" يتبارون في سباق اليخوت، وبمجرد سماع الخبر هرع أحمد نظيف ووزراؤه إلى المستشفيات، وظهر خلفه محمد منصور وزير النقل الجديد في حكومة رجال الأعمال، المشهور

في الشارع المصري ب(منصور شيفروليه) لامتلاكه توكيل سيارات شيفرولية في مصر. ظهر منكمشًا مبهوتًا، وقد علت وجهيهما هو ورئيس الوزراء سمرة برونزية من أثر شمس مارينا، وهما يميلان على المرضى يستفسران عن أحوالهم.

وصُرفت التعويضات. عشرة آلاف جنيه لكل متوفٍ، وأقل من ذلك للمصابين، إلى أن يُفرج بالتبرعات العربية العاجلة المعتادة من أمير عربي أو دولة نفطية، وهو ما يحدث في كل كوارثنا.

ووقف الوزير الجديد محمد منصور الذي جاءت به وزارة رجال الأعمال، وقف أمام الصحفيين وكاميراتهم وأسئلتهم يُجيب عليها مأخوذًا بردود مقتضبة، نافيًا مسئوليته عما حدث، مبررًا ذلك بأنه "جديد في الوزارة"، ولم يبدأ بعد في الإصلاح، وأكد أن المحاسبة ستبدأ من الآن فصاعدًا، وليس من الحادث الذي وقع. وأنه -ذلك الحادث- آخر حوادث السكك الحديدية في عهد وزارته وإلا سيقدم استقالته.

بعدها بفترة قصيرة احترق قطارٌ آخر..

وخرجت صحيفة الوفد بعنوان يقول:

(الشعب يرفع الحذاء على حكومة نظيف)

ووقف منصور أمام الكاميرات من جديد مأخوذًا يؤكد أن هيئة السكك الحديدية تحتاج لتطوير بالمليارات، وأن ذلك يحتاج إلى وقت لتنفيذه، وخلال الفترة الانتقالية لابد من حدوث (بعض السلبيات)!!! وأنه لن يقدم استقالته...

كانت مصر تسير إلى أسوأ كوارثها في التاريخ الحديث، منكوبة بسلطة فاسدة وحكومة من اللصوص، وكان الشعب يغلي... ويشاهد مصيره المقدر المحتوم وهو يُساق إليه على يد هذه السلطة وينتفض بين الحين والآخر بمظاهرات تحشد لها الشرطة حشود الأمن المركزي في الميادين والشوارع، وتضرب وتعتقل وتُعذب.

لم تكن البطالة وحدها ولا غرق العبّارات ولا حريق القطارات هو كل ما قُدِّر لمصر..

كانت هناك لجنة السياسات بالحزب الوطني الحاكم التي تحكم مصر فعليًا والتي يرأسها جمال مُبارك.

كانت تضم رجال أعمال، لا يعنيهم إلا الربح ولو على مصلحة البلد، ليس أولهم محمد منصور وزير توكيلات السيارات، ومحمد رشيد الذي عقد اتفاقية الكويز مع إسرائيل، لفتح الشراكة الاقتصادية بيننا وبينها، وإقامة علاقات تكاملية في الصناعة والتجارة مع الكيان الصهيوني، وخاصة في قطاع المنسوجات والملابس الذي تشتهر به مصر، ومحمود محيي الدين وزير الاستثمار الشاب الذي بدأ منذ تولى الوزارة في وضع خطط بيع مصانع مصر وتفكيك اقتصادها والسماح للشركات الأجنبية بتملك حصص أكبر من نسبة الحكومة المصرية والشركاء المصريين في المؤسسات والشركات تحت مفاهيم السوق الحرة والاقتصاد المنفتح.

على ما جلبته هذه السياسة من خراب في العديد من دول العالم التي انتهجتها وراحت الشركات تُخَصْخَص والعمالة المصرية تخرُج من الشركات لتتركها للسياسات الأجنبية، مقابل معاش مُبكر ومكافأة نهاية خدمة كبيرة، بعدما ينفقها الموظف الذي عاد لمنزله يكتشف أنه لم يَعُد يعمل، وانضم إلى البطالة التي يعاني منها أبناؤه في بيته، حتى البنوك الكبرى خصخصت.. بنك القاهرة، وبنك الإسكندرية، وهي بنوك وطنية وبيع أسهمها للأجانب فيه خطورة كبيرة، إلاَّ أن ذلك قد تم..

وهناك أحمد المغربي، وزير الإسكان الذي ترك له أحمد نظيف حقيبة الإسكان بالسياحة من أجل أن يظل قريبًا من شركاته السياحية وفنادقه (أحدها بجوار مستشفى دار الفؤاد في مدينة ٦ أكتوبر)، ويخوته، ويضعها نصب عينيه وهو يباشر مهامه القريبة من نشاطه...

وكان في داخل لجنة السياسات أشخاص آخرون يتحكمون في البلد واقتصادها ومقدراتها من دون أن يكونوا وزراء، أولهم أحمد عز... فتى الحزب الوطني المدلل، الذي مُنِحَ احتكار صناعة الحديد في مصر، فرفع ثمنه ثلاثة أضعاف، وهو ما انعكس على صناعة البناء والإسكان في مصر، فارتفعت أسعار الشقق إلى مبالغ لا يقدر عليها متوسطو الدخل ومنعدموه!!! فعزف قطاع كبير من الشباب عن الزواج مستسلمًا للواقع وقد بلغت أسعار الشقق منخفضة المستوى الفقيرة أربعين ألف جنيه على الأقل.. فاجتمعت البطالة مع العنوسة لدى المصريين وكان الفقر ثالثهم...

ومن أبرز رجال لجنة السياسات أيضًا مصطفى الفقي مدير مكتب حسني مبارك سليل عائلة الفقي الإقطاعية في قرية كمشيش، التي كتبت عنها شاهندة مقلد في أوراقها عما فعلته بالفلاحين من أهل قريتها عندما تصدوا لعائلة الفقي التي أرادت التهام أراضي الفلاحين الفقراء وطردتهم منها، فأطلقت العائلة النار على زوجها الذي قاد الفلاحين للوقوف في وجههم فأردته قتيلاً. وحصلت العائلة الإقطاعية على الأراضي.. كان هذا قديمًا.. أما حديثًا فقد تابع الفقي مسيرة أجداده بأصالة حقيقية عندما زورت الانتخابات في دائرته شبين الكوم في انتخابات مجلس الشعب لعام ٢٠٠٥، أمام الدكتور جمال حشمت مرشح الإخوان المسلمين، ودخل مجلس الشعب عنوةً واغتصابًا لحق المصوتين للدكتور جمال حشمت، وعلى الرغم من تقرير المستشارة الأمينة نهى الزيني التي أكدت حدوث التزوير في الدائرة التي أشرفت على الانتخابات فيها، وخرجت المظاهرات في الدائرة تندد بنجاح الفقي، إلا أن القرارات الفوقية كانت قد صدرت بضرورة دخوله مجلس الشعب، فدخل، بعدما راح رجال الحزب الوطني يعلنون أن المستشارة نهى الزيني منتمية لتيار الإخوان المسلمين الذي ينتسب له جمال حشمت، ويشككون في نزاهتها"!! بينما شرطتهم وأمنهم المركزي يمطرون المتظاهرين بالرصاص والقنابل..

ولم يكن الفقي وحده من تم التزوير لدخوله مجلس الشعب عام ٢٠٠٥، إنما كان التزوير شاملاً لمعظم أعضاء الحزب الوطني الذي لم يحصل سوى على (٣٣,٥ %) من مقاعد البرلمان فلجأ إلى ضم الأعضاء المستقلين ليحصل على أغلبية غير حقيقية أمام اكتساح الإخوان المسلمين الذين حصلوا رغم التزوير على (٨٨) مقعدًا بالبرلمان أو أكثر من ربعه قليلاً....

... وهناك مصطفى السلاب التاجر الأكبر للأدوات الصحية في مصر، والذي وقفت الناس طوابيرَ ليلة انتخابات مجلس الشعب في دائرة مدينة نصر، وقد أعلن عن أن ثمن الصوت الواحد له (٢٠٠٠) جنيه، وهو المبلغ الأخير الذي وقف به لهاث المزاد الذي بدأه... بمنح أجهزة منزلية لكل من يصوت له، تليفزيون ملون، أو فيديو، أو دش، أو ثلاجة، أو غسالة أتوماتيك...

ودخل البرلمان بالطبع بأصوات الفقراء الحالمين بالدش والغسالة.

... كانت مصر تتحرك من نكبة لأخرى ومن فساد علني لآخر، وكان الفقر يزداد، والطبقة الوسطى لم يتبق منها سوى خيط رفيع، ووصل أربعون في المائة من المصريين إلى ما تحت خط الفقر، ومثلهم يعيشون على الخط نفسه، حسبما ذكر تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠٠٥، وراحت العشوائيات المحيطة بالقاهرة إحاطة السوار بالمعصم والعشش وأحزمة المناطق

الفقيرة التي تلف خصر العاصمة تفرز نماذج إنسانية مقهورة مشوهة من شباب عاطل مدمن ومتطرفين، ومرضى نفسيين، وفتيات نُفعن دفعًا للانحراف من أجل أن يقتتنَ ويُبقين أهاليهن على قيد الحياة...

وصحا المصريون ذات يوم على جبل المقطم وقد انهار على رؤوس ساكنيه في منطقة الدويقة، ودفن المئات من المصريين تحت الصخور التي يزن بعضها عشرات الأطنان، وبعد يوم كامل على الكارثة ومحاولة الناس انتشال بعضهم بعضا من تحت المقابر الحية المفاجئة، تحركت الحكومة بأوناش ومعدات ظلت واقفة مكانها أمام مكان الكارثة، وأعلن المسئولون أن طبيعة المنطقة ووعورتها تمنع المعدات من دخول المكان، ولم يستطيعوا انتشال سوى بعض الجثث، وأعلن عن المنطقة مقبرة جماعية للقتلى.

كانت مصر تنهار.

ولم تكن الحكومة أو من جاء بها يريدون أن يصدقوا هذا الانهيار.

كانت المهرجانات تعقد، والمعارض تُقام، والقاعات تُنصب وتجهز على الخرائب والحرائق والأنقاض، وكان لدينا مجالس متخصصة وقومية للمرأة والطفل، تلتقي فيها سيدات المجتمع بينما مصر بها (٣,٥) مليون طفل شوارع، وأكثر من (٦٠%) من أمهات مصر مصابات بفقر الدم وسوء التغذية.. وبالأخص في منطقة الصعيد...

وكان الغلاء يستشري في البلد إلى حدٍّ مخيف، وكلما زادت أسعار السلع وارتفعت كان رئيس الوزراء يخرج على الناس قائلاً: إن الغلاء راجع إلى جشع التجار.. وأن الحكومة ليس لديها دخل في ارتفاع الأسعار...

وكانت الناس تتعجب من هذا الرأي الصريح للحكومة بانعدام دورها على الحكم والضبط، وكيف - لو كان كلامها صحيحًا- تترك الأمور لسيطرة التجار، من دون أن تقوم بدورها في السيطرة والمنع ولا حتى الرقابة...

.. كان هذا من أكبر المؤشرات على أن هذه الحكومة بلا دور ولا قيمة في حياة الناس..

وكان التصريح الأول لنظيف عندما تطرق إلى قضية البطالة:

«أن الدولة غير ملزمة بتعيين الخريجيين، وعليهم أن يبحثوا عن صنعة أخرى سوى انتظار الوظيفة الحكومية»!

وعَمَّ اليأس ملايين الشباب المصري العاطل الذي تعقدت حياته الاجتماعية إلى حدٍّ مخيف، وصار الشاب الذي يجد عملاً بمائتي جنيه في الشهر (٤٠ دولاراً) محظوظًا وموضع حسد وغيرة من أصدقائه وزملائه...

وبعد ارتفاع أسعار السلع الأساسية من اللحوم والبيض والأرز، حتى الخبز واللبن، رأت الحكومة أن الماء لم يرتفع سعره بعد.. فقررت خصخصة شركة مياه القاهرة لترفع أسعار الماء... وثار الناس وغضبوا، ومضت الأمور إلى مقدراتها وارتفعت أسعار المياه...

وأثناء انشغال الحكومة بوضع خطط رفع أسعار المياه ظهرت حالات تيفود في بعض قرى ومحافظات الوجه البحري، وتوفي العديد من الأشخاص، واتضح أن مياه النيل تلوثت هناك، وأن مياه الصرف الصحي اختلطت بالشبكات المتهالكة الملوثة بدورها والتي لم يتم عمل صيانة لها منذ سنوات طويلة، وثار الأهالي..

وخرج وزير الصحة ينفي ويكذب ويؤكد أن المياه نقية والحالات المصابة فردية والوضع تحت السيطرة..

.... ثم وصلت إنفلونزا الطيور إلى مصر، بظهور إحدى الحالات المصابة في الفيوم... وتوفيت فتاة هناك بسبب الوباء، وكان قرار الحكومة جذريًا وفوريًا: إعدام كل الدواجن في مصر، وإغلاق محال بيعها، وانهارت صناعة الدواجن في مصر.. وحل الخراب بأصحاب المحلات الصغيرة، وأصحاب مزارع ومشاريع الدواجن، ورأينا على الشاشة أحد أصحاب مزارع الدواجن ممن قررت الدولة التخلص من كل ما يملكه من دجاج وحصص، يموت مُباغتًا بسكتة قلبية..

وثار أصحاب المحلات الصغيرة والتجار الصغار، وتظاهروا أمام البورصة وفي ميدان التحرير وهم يبكون ويصرخون.. إلا أن هراوات الأمن وسيارات الأمن المركزي أنهت الأمر...

اختفى الدجاج من مصر، فرفع الجزارون أسعار اللحوم بصورة غير مسبوقة، وصار اللحم حلمًا بعيدًا عن مائدة الأسر المصرية..

ورأى تجار الأسماك أن يفعلوا الأمر نفسه، فرفعوا أسعار السمك، وانتهز باقي التجار لمختلف السلع الأخرى الفرصة ورفعوا أسعار كل السلع الغذائية، واختنقت الأسرة المصرية فعلاً...

واتجه الكثير من المصريين ممن يملكونَ بطاقة صرف سلع التموين إلى استعمالها وصرف السلع الأساسية المدعمة من الحكومة بعدما كانوا لا يستعملونها ولا يحصلون على السلع شهريًا.

وكانت الحكومة قد أضافت منذ عام في ذلك الوقت بعض السلع الإضافية لبطاقة للتموين كالبقوليات الفول، والعدس، وعلبة سمن صناعي، وسكر إضافي، ومكرونة.. وأرز..

وما أن رأت الحكومة هذا الضغط غير المسبوق ولا المتوقع على للسلع التموينية حتى قررت وقف السلع الإضافية، وعادت إلى صرف السلع الأساسية الثلاث الزيت والسكر والشاي....

وحتى هذه تشبث بها الناس، واستمروا يصرفون السلع المتاحة تموينيًا، بعدما عجزوا عن التعامل مع تجار المحلات العامة والبقالة...

وفجأة قررت الحكومة مراجعة بطاقات التموين لكل المصريين ووقفت صرف السلع إلى أن تتم المراجعة، وتوجه الناس إلى مكاتب التموين ليجدوا موظفين يحاسبونهم حساب المَلَكَيْن عمن مات من الأسرة أو تزوج، ليحذفوا حصته من البطاقة، وألغت الحكومة بطاقات مليون ونصف مليون شخص.. بدون أن تتحقق من أنهم لا يستحقون الصرف، كانت المسألة تعود إلى حصافة الموظف وعينه المدققة كالمخبرين..

رأيت بنفسي رجلاً سبعينيًا في جلباب قديم يبكي في أحد مكاتب مراجعة البطاقات وينتحب بصوت عال بعدما حذفوا من بطاقته ستة أبناء له من أبنائه الثمانية بعدما أقسم للموظف عشرات المرات بأنهم جميعًا يعيشون معه، لم يعمل منهم أحد، ولم يتزوج أحد...

ولم يَعُد الناس يدرون ماذا يفعلون بعدما حاصرتهم الأوبئة والفقر والجوع والغلاء والبطالة...

كان الفساد مستشريًا في مصر، وعندما خرج تقرير الأمم المتحدة للتنمية الإدارية في العالم نهاية عام ٢٠٠٦ كانت مصر محتلة مركزًا متقدمًا ضمن أول عشر دول من حيث الفساد غير

المسبوق على مستوى العالم، وكانت الحكومة تهيم في أودية الكذب من أن الاقتصاد المصري يُحقق نموًا ثابتًا ومستمرًا، ويخرج علنيا أساتذة الاقتصاد على شاشات التليفزيون الحكومي ليؤكدوا أن مصر تتقدم بثبات ورسوخ اقتصاديًا على طريق (النهضة الاقتصادية).

ولم يقل أحدهم للناس المعلومة البسيطة التي يعرفها علم الاقتصاد جيدًا أن علامة النجاح الاقتصادي الأول ومؤشره الأساسي أن يشعر المواطن بوجود انتعاشة وفرق في (حياته اليومية) على أرض الواقع لا أن يستمر النجاح أرقامًا في لوغاريتمات على أوراق تتبخر نتائجها بمجرد ملامسة الشارع.

اختنقت الناس ولجأ الشباب إلى الهروب من مصر وأقلتهم سفن عصابات التهريب إلى إيطاليا وإسبانيا، وصارت تلقي بهم وسط البحر إلى أسماك القرش أو الغرق بعدما تأخذ أموالهم التي يستدينونها من أجل أن يهربوا من مصر..

أو تلقي بهم قرب السواحل المصرية وتلقيهم بجوارها وقد أوهمتهم أن هذه سواحل أوروبا.. مثلما حدث مع شباب مصريين عام ٢٠٠٦ كادوا يغرقون جميعًا على ساحل مرسى مطروح بهذه الطريقة وقد تصوروا أنهم على سواحل إيطاليا بينما ألقى بهم المهربون على سواحل مصر.

وظهرت حالات لشباب أعدموا أنفسهم في غرفهم... بعدما يئسوا من إيجاد عمل بمائة جنيه شهريًا.

على الجانب الآخر كان هناك آلاف الوظائف التي يؤمِّنها المسئولون الكبار لبناتهم وأبنائهم وأقاربهم في أكبر قطاعات الدولة وبمرتبات تبدأ من سبعة آلاف جنيه للخريج، وكان التليفزيون المصري مثالاً فاضحًا على ذلك، والمجلس الأعلى للثقافة ووزارة الثقافة بشكل عام..

ووصل الأمر إلى الجامعة المصرية نفسها، التي ابتكروا لها قانونًا جهنميًا في كليات الطب بالأساس، من أجل إلغاء التعيين على أساس التقدير والتفوق واعتماد التعيين المباشر من العميد أو الأساتذة لمن يرون من الطلاب، أو بالأحرى لمن يريدون من أبنائهم الملتحقين بالكليات نفسها.

انفلتت المعايير تمامًا، وبدأ الخراب يحل في أكبر الحصون التي تؤمن مسيرة أي بلد.... التعليم!

أثناء ذلك خرجت الدعاية الرئيسية للبرنامج الانتخابي لرئيس الدولة بشعار "مبارك- العبور إلى المستقبل".

وراح الناس ينظرون تحت أقدامهم وأعينهم، فلا يجدون أرضًا في الحاضر يعبرون بها نحو المستقبل.

وكانت صورة الرئيس على الملصق الانتخابي باسمة حقًا، رجل على مشارف الثمانين سيقود مصر نحو المستقبل.

اتشح الناس بالخَرَس والصَّمت، وهم يسيرون بجوار حائط الخوف، نحو ما لا يعرفون... وزورت الانتخابات ونجح الرئيس، واستمر يحكم مصر، وكان أن أطلق تصريحه الشهير تحت قبة البرلمان:

(باق معكم إلى آخر نبضة من نبضات قلبي)..

وسخر الناس في أعماقهم من بلاغة الكذب والالتفاف. فالرئيس جاثم على صدور المصريين إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً!

واستمرت الحياة تترنح بالمصريين من سيئ إلى أسوأ، وظهرت أنواع من الجريمة غريبة على المجتمع المصري والإنسان المصري... صار المصريون يقتلون بعضهم بعضًا لأسباب تافهة وانتشرت جرائم السرقة والاغتصاب، وصارت حوادث القتل حدثًا يوميًا عاديًّا يقرأه المصريون في الصحف، القتل من أجل سرقة مائة جنيه من موظف، أو قتل سائق تاكسي للحصول على حصيلته، أو القتل بسبب عدم قبول مزاح شخص من آخر، أو القتل للتنافس على معاكسة فتاة... أو القتل لتفريغ شحنة من الغيظ والغضب لم يكن المقتول مسئولاً عنها.

كانت هذه الجرائم تقرع أجراسًا ذات دلالة ؛ فما وراء مثل هذه الجرائم إنما هو اليأس، والإحباط من كل شيء، الاختناق والاكتئاب، وانعدام الإحساس بقيمة الحياة، كل هذه العوامل هي التي تؤدي إلى الاستهتار بالجريمة على فداحتها. تاه الناس وانفلت الزمام وتُرك البشر نهبًا للإفقار والفوضى في ربوع مصر.

وكان من الطبيعي أن يتحرك من وُهبوا الوعي والمقدرة على رصد الأمور وابتكار الحلول لقيادة الناس إلى الرفض والمواجهة.

أو من يُسمون بالمثقفين!

أما المثقفون في مصر... فقد دارت عليهم السُنة التاريخية والموقف المكرر في تاريخ الشعوب والدول...

فقد انقسموا إلى فريقين مألوفين للغاية!

فريقٌ يقف موقف الرفض، ومواجهة ما يراد لمصر وإعلانه على الملأ والتحرك أيضًا لمنع ما يمكن منعه من المزيد من الخراب.. وفريق آخر هادن السلطة والسُلطان وراح يطبل لسياساتها ويهلل ويصفق لتخريبها وفسادها.

وأسماء الفريقين كثيرة.. ومن الصعب حصرها، إلا أن المعسكر الرافض المُجابه لتخريب مصر وتدميرها، بدأ تدشينه مثقف كبير، وقف أمام وزير الثقافة ووكالات أنباء العالم معلنًا رفضه جائزة كبرى تشتري بها الحكومة صمت المثقفين ذرًا للملح في عيونهم وتقية منهم.. هو صنع الله إبراهيم الذي كان موقفه منعطفًا حاذا في مسيرة الركود العربي، ومثقفيه، وإعادة توجيه له لممارسة دوره الطبيعي في علاقته بمجتمعه، ورفض تمرير خطاب سلطوي فاسد من خلاله..عندما رفض جائزة مؤتمر الرواية العربية الثاني في مصر في أكتوبر ٢٠٠٣ على الملأ وأعلن (عدم قبوله جائزة من حكومة لا تملك مصداقية منحها)، وراح أمام الناس ووسائل الإعلام المندهشة يعدد مفاسد الحكومة والسلطة في مصر.

وظهرت كوكبة من الأسماء الأخرى الشجاعة المناضلة الرافضة بدءًا بعبد الحليم قنديل الذي وقف بمقالاته وقلمه في وجه فساد مبارك وسلطته، وفنّد سيناريو التوريث المراد لمصر.. فكان أن اعتدى عليه بلطجية الحزب الوطني وألقوه عاريًا بعدما أوسعوه ضربًا على الطريق الصحراوي، وهناك جورج إسحاق مؤسس حركة كفاية الرافضة للتوريث والتي استقطبت عددًا كبيرًا من أبناء مصر للنزول للشارع المصري من أجل رفض التوريث، وأحيت موات الشارع

المصري الذي نسي التظاهر من وقت طويل رفضًا للأوضاع وبحثًا عن حقوقه، وتعرض بدوره للسجن والتوقيف واتهم بالاعتماد على الغرب في تمويل حركته..

والعديد من الأسماء المضيئة التي وقفت في وجه بيع مصر والفساد.. أحمد بهاء الدين شعبان، د: إيمان يحيى.. إبراهيم عيسى، د. سيد البحراوي... أستاذ الجامعة الذي قلبت عنه أركان الجامعة في أحد الأيام باحثًا عنه لعرض إحدى الأبحاث النقدية عليه فلم أجده.. وعدت إلى منزلي متضايقًا، وبينما كنت في وسط البلد، في طريق العودة رأيته من بعيد في قلب مظاهرة لحركة كفاية ملتحمًا بالناس، يهتفُ ولا يكاد يظهر بين الحشود وهو يتقدم!! كان درسًا كبيرًا صامتًا بالنسبة لي ولأساتذة الجامعة من حركة ٩ مارس، وعلى رأسهم د. محمد أبو الغار ود. سعدية منتصر، ود.أمينة رشيد، ود. رضوى عاشور، وآلاف الأساتذة ممن لا أعرف أسماءهم، وأقلام شريفة أخرى لقامات كبيرة كعبد العظيم أنيس، وطارق البشري، وسلامة أحمد سلامة، وعبد العال الباقوري، وحسنين كروم وغيرهم.

أسماء كثيرة وكبيرة، وقفت في وجه الخطأ والنهب وما يُراد لمصر ورفضت وقاومت، وهزت الوعي عبر مقالات وتظاهرات ومواقف.

وعلى الجانب الآخر، وقف صف آخر من المثقفين يكيلون الحمد للنظام ويقومون بوظيفة أساسية هي (التبرير)..

التبرير للخراب وإسباغ المنطقية على كل ما هو كاذب وفاسد، من أجل العطايا والمرتبات والمناصب والمرتبات الضخمة.

كان وزير الثقافة على رأس هؤلاء..

وكان يفتخر دومًا بأنه قام بإدخال المثقفين إلى (الحظيرة)، حظيرة وزارة الثقافة، وكانت وزارته تُقدم مكافآت تفرغ سنوية للمثقفين، لكي يتفرغوا لإبداعاتهم، ولم تكن أكثر من رشوة مُقَنَّعَة للدخول في حظيرة الولاء. وكانت الكشوف التي وقَّع عليها طالبوا المنحة بمثابة سجلات مكشوفة أمام أعين النظام عمن أتى إلى الحظيرة بقدميه وهادن واستسلم حتى وإن لم تمنح المنح لكل الأسماء؛ فالأمر كان محكومًا بحسابات أخرى، حسابات قوى وموازنات عمن يستطيع أن يخدم الوزارة وأن تفيد منه كمثقف، وكانت قوائم شراء الوزير للمثقفين تُعد له في ديوان الوزارة بالزمالك..

أما ثاني المثقفين الكبار الذين كانوا من أشرس المدافعين عن النظام فكان جابر عصفور الذي تُعد سيرة حياته الوظيفية نموذجًا لتحولات المثقف، بدأ يساريًا وانتهى إلى صفوف النظام أمينًا عامًا للمجلس الأعلى للثقافة - يساعد الوزير في إدخال المثقفين للحظيرة، ويمتلك في توقيعه المنح والمنع، منح الجوائز والعطايا ومنح التفرغ وتذاكر طيران المؤتمرات بالخارج، ومنع كل ذلك عن آخرين لا يأتون على هوى السلطة أو النظام.

ومنذ انتدب جابر عصفور للعمل بالمجلس الأعلى للثقافة من عام ١٩٩١ حتى خرج منه عام ٢٠٠٧ سُخِّر تمامًا لخدمة النظام المصري ووزارة الثقافة المصرية الفاسدة. ستة عشر عامًا كانت كافية بأن تنسيه دوره كأستاذ للجامعة ومفكر.. بدأ مشروعًا تنويريًا يساريًا، أراد طموحه أن يجعله كمشروع طه حسين، إلا أن شهوة السلطة سارت به في مسارات أخرى... وأنسته دوره الحقيقي فانتهى إلى أحد كراسيها الوثيرة.. موزعًا للجوائز والمهرجانات.. معدًّا

للكراسي والقاعات للضيوف! وكان يدافع عما يقوم به المجلس من ندوات ومؤتمرات واحتفاليات.. حتى صرح واحد ممن يشرفون على إحدى الشُّعَب الكبرى بمجلسه بأن المجلس لن يبقى له تاريخ ولن يرسب منه شيئاً في ذاكرة الناس.

وكان ذلك هو محمود أمين العالم المفكر الكبير.أستاذ الوعي، الذي بدأ مناضلاً يساريًا ومفكرًا طليعيًا وانتهى به الحال إلى (استخدامه) عبر لجان المجلس الأعلى للثقافة ومؤتمراته وشعبه من خلال استخدام اسمه ووضع تاريخه بكل دلالاته في خدمة وزارة الثقافة (رغم أنه لم يدع توجهه الفكري ولا أستاذيته الكبيرة).

ولما سُئِل العالِم عما حدا به إلى قول ذلك عن المجلس، أكد أن رأيه هذا نابع من رؤية أن المجلس يتحرك بصورة منعزلة عن الناس، لا يحضر ندواته أحد ولا تجد مطبوعاته الإقبال من الناس.

وتعددت الأسماء التي يعينها النظام للدفاع عن سياساته، وعن الانهيارات التي يعلقها بالمهرجانات والأضواء والميزانيات الضخمة..

وكان منها مجدي الدقاق، أحد هواة الصحافة الذين هبطوا على كرسي "جرجي زيدان" في دار الهلال بالباراشوت بعدما عينته لجنة السياسات بها، حيث إنه أحد أعضاء الحزب الوطني الفاسد.

وصارت مطبوعة الهلال تخرج علينا كل شهر بعشرين صفحة عن الرئيس. إذا زار فرنسا، فالعدد بأكمله يصدر عن العلاقات التاريخية الثقافية بين مصر وفرنسا، وإن حصلت السيدة الأولى على جائزة من السويد، يصدر عدد خاص عن العلاقات التاريخية الثقافية بين مصر والسويد! ويظهر الدقاق في العدد من خلف الرئيس أو قرينته وهو يبتسم فارجًا فمه، مع وفود الصحفيين المرافقين!

وأحجم كُتّاب كبار عن الكتابة لأعرق المجلات العربية وأقدمها وأهمها، منذ تولاها الدقاق، الذي كان نجم الحلقات التليفزيونية، التي كان يدافع فيها عن مثقفي السلطة وحُرّاس الوزير ووزارة الثقافة التي كانت أكبر منجزاتها حرق جمهور المسرح وأبرز المسرحيين أحياء في مسرح بني سويف، ونقل تمثال رمسيس من مكانه، وترك قصور الثقافة القديمة تنهار أو تأكلها المياه الجوفية، وإهمال أجيال كاملة من المبدعين الحقيقيين في جنوب مصر من الفقراء دون أن تمد لهم يدًا أو تدعمهم.

.. ولم يكن الدقاق هو آخر الأسماء المنحنية من مثقفي السلطة والنظام.....!!

الكثير والكثير من الأسماء التي كانت واجهات للنظام المتسلط الفاسد، واجهات ثقافية لامعة، قبلت التدجين للأسف والعمل لخدمة هذا النظام وفي مؤسساته التي لا يعنيها ان تنقل ولو اقل القليل من الوعي للناس وتعلمهم أو تثقفهم أو تبني فيهم شيئاً للمستقبل قدر اهتمامها بالمنح والعطايا والمناصب والمكافآت والانضمام للصفوة المثقفة المرضي عنها. فبعد جابر عصفور يأتي عماد أبو غازي. أستاذ التاريخ والوثائق في جامعة القاهرة،حفيد محمود مختار. كان الرجل الثاني في المجلس الأعلى للثقافة، ومعروف بدماثة خلقه، واستيعابه للمثقفين ومشكلاتهم، وأفضل من يستطيع ترضية المثقفين ظاهرياً في حال مواجهتهم أي مشاكل، ثم تسير الأمور في طرقها المُقدَّرة سلفاً من فوضى وفساد! كان محبوباً ومقبولاً من الكل، لتهذيبه وهدوئه، لكنه كان

ينفذ توجيهات دكتور جابر عصفور في المجلس ومن قبله وزير الثقافة بكل إخلاص. والأسباب واضحة للغاية.

وهناك حلمي النمنم. الصحافي في دار الهلال، الذي تاق إلى منصب قريب من وزير الثقافة وسخط على كرسيه العتيق في دار الهلال بينما المثقفون يذهبون إلى شارع الجبلاية في الزمالك حيث العطايا والمنح والمناصب الوفيرة، فقام بإسداء خدمةٍ إلى الوزير، عندما اتصل بسكرتيره، وطلب منه مقابلته واقترح على الوزير أن يقيم معه حواراً صحفياً لدحض مقولات تسيئ إلى الوزير وتهم ألصقت به، ووافق الوزير، وعمل النمنم الحوار، وأظهر فاروق حسني بأنه من أشرف وأنزه الرجال، وكان أن كوفئ بمكتب في الدور الثاني بالمجلس الأعلى للثقافة بعدما أسند إليه الوزير لجنة النشر بالمجلس ليشرف على الكتب التي تصدر من المجلس. صرت أراه في المجلس متأنقاً بحُلل جديدة أنيقة يوماً بعد آخر، ونادراً ما صرت أراه في دار الهلال.

وكان اسم " ش. أ. ع " يملأ أرجاء المجلس الأعلى للثقافة ويرتبط بالمشروع القومي للترجمة، الذي كانت تشرف عليه مع مثقف نبيل، ربما كان خطأه الوحيد انه قبل إدارة مثل هذا المشروع رغم أنه لن يضيف إلى تاريخه المحترم الكثير.. هو طلعت الشايب.

أما شهرت العالم ابنة الدكتور أمين العالم، فكانت تنفذ أوامر الإدارة العليا في مشروع القومي للترجمة، تشرف على ترجمة الكتب وتعطي أوامر التشغيل وتقدم الطلبات إلى دكتور جابر عصفور ليعين فتاة أو أخرى معها في المشروع بواسطتها..

مع انتهاء المشروع قبضت مبلغاً محترماً بعشرات الآلاف من الجنيهات وذكر أنه تعدى إلى المائة ألفاً وأكثر لإشرافها على الألف كتاب التي صدرت عن المشروع القومي للترجمة. اما الشباب الذين اعتمدت عليهم هي ود.عماد أبو غازي في مراجعة الكتب وتصويبها وجمعها على الكمبيوتر حتى، فأهدرت حقوقهم بين شيك مؤجل الدفع، أو سقط سهواً من حسابات المجلس، أو صرفت المكافأة في ظروف غامضة لشخص آخر، أو بنظام (فوت علينا بكره) وكان هناك موظف بالمجلس، مسؤول الشئون المالية يتفنن في إضاعة الحقوق المالية لأصحابها وطالبيها في المجلس يستطيع بقدرة قادر –وباللوائح والقوانين والمذكرات المالية- أن يؤجل صرف شيك مستحق إلى سنوات حتى ييأس صاحبه منه، ويتركه إلى من لا يعرف،ربما له شخصياً! وهو يسمع (فوت علينا بكره).. وبكره هذا لا يأتي أبداً في وزارة الثقافة المصرية ومجلسها الأعلى سوى لأصحاب الحظوة.

كانت الساحة الثقافية في مصر نموذجاً مصغراً لأحوال هذا البلد. المثقفون المدجنون، والصحفيون الذين يطبلون للحكومة كلما تنامى فسادها، وأسرعت السفينة نحو الغرق بينما يهللون لها.

أما صحافتنا القومية فصارت صحافة حكومية بامتياز، صارت جريدة مثل الأهرام بكل ما لها من ثقل وتاريخ في الحياة المصرية جريدةً للحزب الوطني فقط تعبر عنه وتهلل له ولمشروعاته الوهمية وتدافع عن الوزراء الفاسدين، وكان هذا طبيعياً، فإدارتها تأتي بالتعيين من حسني مبارك.

ورأينا أسامة سرايا يجلس على قمة تحرير الأهرام – دون ان يتوقعه أحد، فليس له تاريخ صحافي حافل- ليخلف إبراهيم نافع الذي التصقت باسمه قضايا فساد مالي ورشى.

والأمر نفسه حدث مع الأخبار والجمهورية.

وكان رؤساء تحرير الصحف الثلاث يتبارون في النفاق للرئيس وحكومته، وكان على راسهم سمير رجب وابراهيم نافع وابراهيم سعدة.

كانت العطايا جاهزة لمن يشارك في تضليل الناس، وكانت المعتقلات والمصانر المُدبَّرة أيضا مُعدَّة لمن يحاول تثوير وعيهم..

كانت مصر تغرق.

ولم يكن من سبيل للقفز منها وقد أصبحت بناسها وأبنائها في منتصف البحر

*

كان الدكتور في فرنسا عندما رن جرس الهاتف في البيت، كانت الساعة السابعة صباحًا، تثاءبت وأنا أتمطع متسائلاً. رحت أنظر للهاتف الذي لم يتوقف عن الرنين.. هل يكون.....؟!! ولكن هناك ٤ ساعات فروق توقيت بين القاهرة وباريس، ولا شك أنه نائم الآن و....؟!!

- آلو!

- صباح الخير، لماذا تترك الهاتف يرن عشرين مرة، طبعًا في عاشر ألف نومة.

- صباح النور، قلنا صباح النور...!

- لا أريد لماضة على الصبح، لماذا أنت نائم للآن؟!!

- خير يا دكتور؟!

- هناك مصالح أريد أن تقضيها..

- لقد نفذت قائمة المصالح والمتطلبات والمشاوير التي كلفتني بها منذ سفرك من أسبوعين أنجزت الـ(٣٨) مشوارًا الموجودة في (اللستة).

- هناك اشتراك النادي يا أستاذ! لم أجدده، هل تريد أن يضيع عليَّ الاشتراك، وأجلس في البيت (فطسان)؟!!

- طيب لماذا لم تخبرني قبل أن تسافر؟!

صرخ حتى أبعدت السماعة عن أذني وقد آلمتني:

- نسيت يا أخي! انت شريكي، أنا حر.. أنسى. افتكر، هذا اشتراكي أنا.

- طيب يا دكتور، حسنًا، ولكن أنا لم أرك تذهب لهذا النادي مرة واحدة، فلماذا تُجدد اشتراكه؟!!

- *(عاد يصرخ)* ليس شأنك يا عديم النوادي، الحقد الطبقي يملؤك، لا فائدة منك، أقسم بشرفي العسكري..

انفجرت ضاحكًا..

صرخ... تضحك؟ أنت علام تضحك؟

- لا شيء يا دكتور..

- لا.. أنا أعرف علام تضحك. على كل حال، اسمع! أنا لا أريدك أن تستمر معي، سامع؟

- سامع يا دكتور.

- أنت مرفود إذن!!
- أشكرك - تصبح على خير..
أغلق السماعة فوضعتُ السماعة بدوري وسحبتُ الغطاء على وجهي، مبتسمًا، دقيقتان من الهناءة والحرية، أسبح في النوم.
رن الهاتف فجأة.
- آلو..
- ....!
- النادي يفتح من الثامنة صباحًا، ستجد شباك الاشتراكات في نهايته بعد ملعب الاسكواش والكرة.
- ....؟
- ... لو لم تجدد الاشتراك اليوم على أقصى تقدير سارفدك!!
....
حملت حقيبتي على كتفي وأنا أسير في شارع الحجاز بمصر الجديدة، الساعة التاسعة صباحًا، والشمس تنشر أشعتها على الحياة، البشر والأبنية، والحركة، الحشائش الزاهية في المساحات الفاصلة بين الشوارع، وخلف محطة الترام.. والناس تتحرك بسرعة للحاق بأعمالها.
أمام مبنى المحكمة في الميدان ثلاث سيارات زرقاء لنقل المساجين، وأخرى بنية من عربات الأمن المركزي، وزحام كبير، وعساكر وصولات.. أخذت أتأملهم وأنا أسير بجوار نادي النصر بينما تدلت حقيبتي من على كتفي، (حقيبة البوسطجي كما تسميها أمي كلما رأتني أفتحها على السرير وأقلبها رأسًا على عقب ناثرًا محتوياتها الخاصة بالدكتور، ورق، رسائل، كتب أبحاث، صور، مجلات، وصحف، وأقلام ومقالات).
رحت اسرع خطاي وأنا أحدق في أرقام العمارات باحثًا عن رقم عمارة الدكتور ألبير فانوس، أستاذ الجامعة الأمريكية قريب الدكتور، عبرت على الجانب الآخر، على رصيف المحكمة ورحت أسير وأنظر في أرقام العمارات، إلى أن وجدت العمارة، صغيرة، ومدخلها مميز جميل، خمنت أنها من العمارات القديمة التي أنشئت مع إنشاء مصر الجديدة، وإن كانت مطلية حديثًا..
وقفتُ حائرًا أمام المدخل أبحث عن البواب.. لم أجد أحدًا، تنحنحت وهتفت، - أهلاً.. صباح الخير!
لم يرد أحد.
ظللتُ واقفًا أنظر في المرايا المحيطة بجهات المدخل..
.. عدت إلى الباب، خرجت.
رأيت كابينة تليفون قريبة، فاتجهت لها، أخرجت الكارت من محفظتي واتصلت برقم الدكتور ألبير..
- أهلاً حمزة، أين أنت؟
- أنا تحت البيت.
- طيب، ستجد الأسانسير على اليسار. سأرسله لك من أعلى؛ لأنه لا يُفتح إلا بأمر صوتي.

-.......!!

وضعت السماعة، وعدت إلى العمارة، دخلت وصعدت السلمات القليلة، على اليسار وجدت الأسانسير فعلاً، تأملت شريط الأرقام أعلى حافته لأرى في أي طابق هو، وجدته في الطابق الثالث والمؤشر يتحرك باتجاه النزول.

بجوار الشريط عدسة سوداء عمقها مختفٍ في الجدار!

وصل الأسانسير وفُتح فركبت. ظللتُ ثابتًا هادئاً لا أضغط على أية أزرار. فجأة علا صوت الدكتور ألبير من حولي.

- لماذا لم تصعد يا حمزة؟

- آ.. أنتظر الأمر الصوتي!

ضحك الرجل

- لا بأس.. اضغط على الطابق الثالث.

ضغطت، فتحرك المصعد، ووصلت إلى طابق الدكتور ألبير، وجدته ينتظرني على باب الشقة، حياني بحرارة وهو يبتسم، ودعاني للدخول.

جلستُ في الصالون بينما نهض يحضر علبة الشوكولاته، تناولت قطعة، فأعاد العلبة وجلس في مواجهتي.

تناول مظروفًا صغيرًا أمامه: شوف يا أستاذ حمزة، هذا المظروف به "كارنيه" النادي المنتهي، وبه مبلغ مالي، بضع مئات من الجنيهات قيمة التجديد السنوي. وصورتين حديثتين للدكتور، ستذهب فقط إلى النادي - تعلم أنه ليس بعيدًا عن هنا- وتتجه إلى شباك التجديد في نهايته وتجدد الاشتراك، ستستلمه بعد أسبوع على الأكثر.

- حسنًا.

- أعتذر عن تعبك يا أستاذ حمزة.

صمت قليلاً وهو ينظر من النافذة إلى شارع المحكمة وأردف:

- الغريب أنني اقترحت عليه أن أجدده له أنا أثناء عودتي للبيت، لكنه أصر عليك..

- آه.. طبعًا!

ضحك د: ألبير، وهو ينهض قائلاً:

- واضح إنه بيحبك جدًا.

نهضت بدوري وأنا أتأمل كلمته وأتناول منه المظروف.شكرته واتجهت إلى باب الشقة.

بعدها كنت واقفًا أفكر في المشوار، وأضغط زر المصعد الصوتي!

....

نزلت من الميكروباص أمام بوابة النادي في شارع جسر السويس، رحت أسوّي حقيبتي على كتفي، أخرجت منديلاً ورقيًا أجفف عرقي، كان الجو قائظًا والساعة العاشرة والنصف صباحًا.اتجهتُ للبوابة المرتفعة ذات الأعمدة المقوسة للأعلى، المطلية بالأصفر والأزرق.استوقفني موظف الأمن وهو يتفرسني بعين فاحصة كالمخبرين.

- أي خدمة يا أستاذ.

- أريد أن أجدد اشتراك النادي الخاص بأحد اقاربي..

- أره لي من فضلك..

فتحت سوستة الحقيبة وأخرجت المظروف، وأخرجت منه الكارنيه، تناوله مني، وأخذ يتأمله طويلاً، قلبه وقرأ شيئًا على ظهره، قبل أن يعيده لي، سألني:

- هل هذا جدك؟

- آ.. نعم!

هز رأسه وهو ينظر لي، وقال:

- غريبة....

ابتسمت له، وأنا أعيد المظروف إلى الحقيبة، وأدخل.

رأيتُ مجموعة من الشباب، فتيات وشباب يتمازحون حول منضدة بالقرب من كافيتيريا بيضاء، وهم يدخنون.

الفتيات عليهن أثر نعمة. وصحتهن وافرة! لمحتُ واحدة منهن تميل على أذن صديقها هامسة بشيء، فيتشب عينيه أثناء ميلها في استدارة فتحة بلوزتها التي كشفت جزءًا كبيرًا من صدرها، قبل أن ينفجر ضحكًا، وتعود هي إلى وضعها وقد ابتسمت ابتسامة ذات مغزى، وأخرجت إحدى السجائر لتشعلها!

بجوارها فتى يمازح صديقته، ويتعابثان بالأيدي، لمحت يد الشاب تتصنع العفوية وهي تلمس صدر البنت التي راحت تغطي بضحكها على ما يفعله، وتذيبه في مرح يتظاهر بالبراءة!

أمامهما مطفأة سجائر عليها سيجارتان مسندتان إلى حرفها، على يمين المناضد انهمك عاملا الكافيتيريا في شواء كتلة ضخمة مثلثة من الشاورمة، وراح آخر يرص فاكهة في ثلاجة نظيفة، وراحت فتاة ترتدي جينز ضيقًا للغاية وبلوزة تقبض على صدرها بقسوة فتزيده بروزًا، تلمع أكوابًا وهي تنظر في نعومة وتبتسم إلى أحد الشباب، وقد أخفى وجهه خلف نظارة شمس عريضة وهو يبادلها الابتسام.

مضيت في طريقي.

رحت أنظر إلى ملعب الكرة، وراءه ملعب الاسكواش البعيد.. إلى أن أصل له ساكون قد (شُويت) في هذه الشمس!! أخرجت جريدة من الحقيبة ووضعتها على رأسي...

مرت أمامي امرأة في تنورة قصيرة وحذاء بكعب مرتفع.

أمالت نظارة الشمس من عينيها تجاه أنفها وهي تتأملني بشيء من الضيق! لمحت عينيها تعريانني وقد مستحني نظراتها، وهي تتأملني بالكامل، البنطلون الجينز والقميص وحقيبة البوسطجي، والكوتشي.. والجريدة المنصوبة كالهرم فوق رأسي.علا وجهها تعبير بالاستغراب ومضت تمط شفتيها. ابتسمت وأنا أنظر إلى ملعب الاسكواش الأبيض البعيد على الطرف الآخر من النادي وأواصل سيري.

فجأة أمسك قدمي طِفل مستدير الوجه. ذو صحة واضحة، وراح يخبئ نفسه وراني، جاء طفلٌ آخر ممتلئ وراح يحاول الإمساك به، وهما يدوران حول قدميّ ويجذبانني من بنطلوني وأنا أتمايلُ بينهما. أمسكتُ بهما بيديّ معًا. ونظرتُ لهما نظرة حازمة. راح الطفلُ الأول يتأملني

باندهاش، كأنما اكتشف فجأة أنني موجود وأن الأقدام لها صاحب بأعلى! أما الآخر فنظر جهة اليمين، ثم تطلع إلى وجهي، ونظر إلى اليمين ثانية، ثم انفجر في البكاء فجأة وهو يصرخ (ماما)!

أفلتهُما ومضيت مُسرعًا!

ظللتُ أسير وأنا أنظر خلفي إلى أن ابتعدت أصواتهما واختفيا.

شعرت بالتعب، نظرتُ حولي أبحثُ عن ظِلٍّ أستريح عنده..لم أجد، سِرتُ مغتاظًا.

فجأة ظهرت امرأة بيضاء في مايوه لبني من قطعة واحدة.كان جسدها آية في التناسق، شدت أعصابي وتوفَّزَت، وشعرت بسخونة الشمس تشتعل.

توقفتُ عن السير، وهي تتهادى أمامي وقد ألقت فوطة كبيرة على كتفها، رفعت أصابعها فجأة وأشارت لي بالسلام! أخذت أحدق فيها، دون أن أرد إشارتها أو أرفع يدي!

انفجرت منها ضحكة وهي تتأمل ذهولي وتُسرع تجاه حمام السباحة، ابتسم لها موظف الأمن المسئول عن الحمام وهي تختفي في الممر الذي يقود إلى ساحته!

نظرت إلى مبنى الاسكواش الذي اقترب كثيرًا.. واصلتُ السير!

... أمام الشباك لم يكن هناك سواي.

.. مددت يدي للموظف بالمظروف كما استلمته من الدكتور ألبير، فتحه، وراح يعد النقود الموجودة بداخله.استخرج صورتي الدكتور وأخذ يتأملهما، نظر لي.. وقال:

- قريبك؟

- آ... نعم!

- هز رأسه مستغربًا، وقال لي:

- تعال لتستلم الكارنيه بعد أسبوع..!

ذهبت!

بعد أسبوع قطعت المشوار نفسه إلى النادي، ومنه إلى مبنى الاشتراكات..

وقفتُ أمام شباك تسليم الكارنيهات الجديدة، رأيتُ موظفًا غير الذي أعطيته الكارنيه المرة السابقة.أخبرته باسم الدكتور، فراح يبحث في خزانة خشبية مفتوحة أمامه عن كارنيه!

وجده، فناوله لي، وهو ينظر في وجهي مبتسمًا. سألني فجأة:

- جدو؟

حدقت فيه مندهشًا..

- نعم؟؟

عاد يسأل وقد اتسعت ابتسامته وخِلته يغمز بعينه في مرح!

- جدو.. صح؟

قلت وأنا أنظر لعينيه الخضراوين ووجهه الممتلئ:

- يا سلام! ما كل هذه الفراسة؟!! صحيح.. رأيك في محله!!

أكمل وهو يرفع حاجباً ويتجهم وجهه بجدية مضحكة مقلداً مفتشي الشرطة:

- ولكن هذا ليس جدك مباشرة يا أستاذ!!
- ومن أين عرفت هذه أيضًا؟
- لأنني لم أرك أتيت هنا من قبل، أنت لست مشتركًا، لو كان جدك مباشرة لأضافك إلى العضوية الأسرية على كارنيهه.!!
(أسرية.. هه)
- صحيح. أنا لستُ عضوًا في النادي ولا في أي نـ.......
قاطعني وقد اندفع متحمسًا فجأة وقد نهض من على مكتبه:
- ماذا تنتظر يا أستاذ؟ اشترك فورًا..
أجبته مندهشًا:
- ينفع؟
- طبعًا يا أستاذ...
أشار لي بيده بمعنى انتظر. رأيته عبر الزجاج يستدير بجسده الضخم، وكرشه البادي من البدلة الفاخرة، ويغادر المكتب نحو الباب. بعدها بلحظات كان أمامي. قال لي في ود بالغ:
- لماذا تحرم نفسك من عضوية دائمة في نادينا المحترم؟! نحن رئيس نادينا متفتح ومثقف.. ويريد إضافة شخصيات مؤهلة وذات وجاهة اجتماعية إلى قائمة المشتركين..
توقف عن الكلام فجأة وأخذ ينظر لي بتفرس وقد قطب حاجبيه وعلا وجهه الاهتمام.
- حضرتك طبعًا مؤهل عال؟!
- نعم..
خبط بيده على الأخرى محدثًا صوت فرقعة.. واهتز كرشه وهو يهتف بمرح:
- محلولة... إذن.
- ما هي؟!
- رئيس نادينا يُقدم تسهيلات ضخمة للمؤهلات العليا ممن يريدون الاشتراك. لماذا تحرم المدام والأولاد مناخًا راقيًا وأنت ترى إلى أي مستوى وصلت القاهرة؟
هززت رأسي مؤمِّنًا على كلامه وأنا أغمض عينيَّ في حكمة المتفهم:
- آه.. معك حق. المدام والأولاد!
انفرج وجهه وصاح بحماس:
- شفت؟!
مال عليَّ وقد خفض صوته واكتسى لهجة صديقة مباغتة:
- بذمتك.. هل ترى منظر القاهرة كيف صارت؟ هذه الحواري والأحياء العشوائية التي تنمو حولها كل يوم..وتخرج لنا ناسًا ليسوا على (المستوى).. طيب أين يذهب الهاي كلاس يا أستاذ؟
تذكرت حارتنا في حي المطرية وأنا أهز رأسي مؤمِّنًا على كلامه..
- معك حق، أين سنذهب يا أخي؟ زاحمونا في كل مكان..
لكزني في كتفي مبتسمًا وقد لفه المرح كأننا أصدقاء قدامى:

- شفت! انضم إلينا يا أستاذ.. نادينا شيك، وكل فناته ذوو أصول وجذور..
غمزني وهو يميل على أذني مكملاً:
- وعضواته بالأخص!
انفجر في الضحك فاهتز جسده الممتلئ وراح كرشه يرتج بصورة قوية.
- تعرف يا أستاذ..
- ماذا؟
- المهندس رئيس النادي يعمل تسهيلات كبرى لمن يريد الانضمام للنادي من ذوي المؤهلات العليا.. يخفض الاشتراك ويقسطه. يعني ممكن أن تدفع أي جزء من ثمن الاشتراك الآن أو غدًا.. وتكمل سداده على دفعات على سنتين..
أنزلت الحقيبة من على كتفي وقد انتابني الحماس نفسه، وقلت:
- ولماذا غدًا؟ نحن فيها الآن!
راح ينظر إليّ منتشيًا وقد انتفخت أوداجه..
أكملت:
- كم قيمة الاشتراك؟
ابتسم وهو يرد بدماثة وقد خفض صوته بتهذيب جم:
- ٥٥ ألف جنيه بس يا فندم!..
قلت وأنا أتأمله وأبتسم:
- عظيم.. بسيطة!
رحت أقلب جيوبي من الداخل للخارج نافضًا محتوياتها على يديَّ... بينما ينظر لي وقد عقد كفيه على بطنه ونظر لي في أدب.. أمسكتُ بعملتين ورقيتين لوحت بهما له..
- معي الآن ١٥ جنيه من المبلغ.. كويس؟!!

*

اتصل بي الدكتور من فرنسا، كان منفعلاً ويتحدث بسرعة.. فخمنت أنه يُعد العدة للعودة إلى مصر..
- آلو.. حمزة؟!!
- أيوه يا دكتور.
- انتظرني غدًا في مطار القاهرة.. طائرتي في الثامنة مساءً..
- حسنًا يا دكتور..
- أيقظ سائقنا النابه النبيه الغارق في نوم أهل الكهف منذ سافرت أنا، واجعله يأتي للمطار.
- طيب!
- واشتر لي كرتونة مياه معدنية.. لا.. كرتونتين.. فلا توجد أية زجاجة في البيت..
- يا دكتور. لديك مُرشّحان فوق الحنفية لا واحدًا، لماذا لا تشرب من الحنفية؟
صرخ ثائرًا..

- وانت مالك يا أخي.. أشرب من الحنفية.. أشرب من البحر.. أو أشتري مياه المحيط حتى..انت دافع من جيبك؟!

- في الحقيقة.. نعم. فأنت لم تترك لي أي نقود. بل أنت مدين لي بثلاثمائة جنيه و...

صُفِعت السماعة في وجهي..!

أغمضتُ عينيَّ متمنيًا أن اقتل أحدًا... اي احد.. غير الدكتور!.

زفرت مطرقًا.

يجب أن أتصل بالسائق النابه.

مددت يدي إلى السماعة.. بمجرد أن لمستها حتى علا رنين التليفون فانتفضت يدي متراجعة كأنما لسعت!

- آلو..

- يا أستاذ حمزة.. أنا أشرب مياه سيوه لا تشتر لي أكوافينا ولا بيبسي ولا بركة، قال بركة قال...! هذه مياه وهابية.. إوعَ تجيبها!

أغلق الخط قبل أن أرد!!

ظللتُ جالسًا على حافة السرير بعدما أعدت السماعة إلى مكانها أتأمل التليفون..

*

وقفتُ أمام بوابة انتظار المسافرين في المطار.. أحدِّقُ في الساعة الإلكترونية المعلقة منتظرًا طائرة باريس.. كان حولي وإلى جواري منتظرون كثيرون.بينما تركني عبد المنعم، ووقف يتفرج على السيارة الـ(BMW) المعروضة في صندوق زجاجي بجوارنا.. أتت طائرات كثيرة من أوروبا.. ولم تأتِ طائرة باريس.. في الثامنة والنصف أو مضت الشاشات برقم رحلة باريس.. فمددتُ عنقي إلى الكاميرات التليفزيونية التي تعرض الصالة بالداخل وإنهاء المسافرين لإجراءات الدخول. ظهر أمامي الكثير من الناس وهم يسحبون حقائبهم، فرنسيون ومصريون.

أخذتُ أنظر وانتظر..

... فجأة ظهر الدكتور لمحته يسير ببطء، أدركت كم أتعبته الرحلة، كان الإرهاق باديًا عليه..

نظرتُ إلى عبد المنعم.. وجدته ألصق وجهه بالصندوق الزجاجي حتى أن أنفه انضغطت على الزجاج وهو يريد أن ينفذ للداخل!

ناديت عليه فلم يسمع، ظل في هيامه وشروده بالسيارة!

علا صوتي وأنا أنادي عليه ولا من مجيب. لم يَعُد في هذا الكوكب.

سرت بعصبية إليه، وقفتُ وراءه وهززت كتفه..

- أنت يا أخينا!!

استفاق من ولعه بالسيارة وشروده فيما لا أعرف وأجاب مبهوتًا:

- هاه! أستاذ حمزة.. متى وصلت؟!

رددت بغيظ:

- وصلت من أين يا عبد المنعم؟ نحن جئنا للمطار معًا في السيارة..
- آه... صحيح!
زفرت وأنا أهز رأسي غاضباً:
- يا أخي أفق قليلاً، طائرة الدكتور وصلت. رأيته على الشاشة منذ قليل، جهِّز السيارة، وقربها من باب الخروج.. لأنه لا يستطيع المشي مسافات طويلة كما تعلم.
- حالاً يا أستاذ حمزة!
جرى من أمامي، متجهًا إلى باب الخروج، فعدت إلى مدخل استقبال المسافرين، امتدت يد تلمس كتفي برفق، نظرتُ خلفي، وجدت عبد المنعم، بقصره الواضح أمامي..
- خير يا عبد المنعم.. لماذا رجعت؟
- لو سمحت يا أستاذ حمزة، أريد أن أسألك عن شيء؟
- تفضل...
سار أمامي متجهًا إلى حيث كان واقفًا منذ قليل، وقف أمام السيارة، حبيسة الصندوق الزجاجي، قال وهو يتأملها بافتتان:
- ما رأيك فيها يا أستاذ حمزة؟!
حدقت فيه وقد اتسعت عيناي، فكرت في أن أصرخ وشعرت أنني سأنفجر غيظًا، ولكنني نظرت فرأيت عينيه الجاحظتين قليلاً كلهما براءة وتمنِّي، زفرت.. وقلت له:
- عظيمة يا عبد المنعم، سيارة فاخرة، وقوية..
أكمل كلامه وهو يستند بمرفقه على الزجاج في ألفة:
- طيب.. في رأيك. ممكن أن أشتريها في يوم؟
تمنيت أن يلهمني الله الصبر فقط، نظرتُ له، لهذا الإنسان المسكين الحالم، رأيت في عينيه رجاءً كبيرًا وأملاً.. سألته:
- قل لي يا عبد المنعم.. بلا تطفل مني.. أنت كم راتبك؟
- نظر لي مترددًا، وراح ينظر لأعلى الصندوق من الزجاج قبل أن يُجيب.
- (٤٠٠) جنيه.
كان المفروض أن أصدم لكنني تذكرت وجهًا أعرفه يعطيه الراتب، فلم أصدم ولم أندهش، شعرت بالأسف فقط في أعماقي وأنا أغمض عيني.
- وأنت متزوج كما أعلم؟
- نعم يا أستاذ حمزة، وعندي أربعة أبناء..
- ولماذا لا تعمل إلى جانب وظيفتك مع الدكتور؟
- أولاً هو رفض.. وقال لي: لو عملت في وظيفة أخرى سيرفدني، وثانيًا.. هل ترى أنني أستطيع أن أبقى مع نفسي ولو ساعة واحدة بعيدًا عن مشاويره التي لا تنتهي؟! أين سأجد وقتًا إضافيًا للعمل؟ أنا أعمل معه منذ الفجر إلى منتصف الليل..!
لم أعرف بم أرد عليه. فصمتُ، نظرتُ له.. فوجدته مازال ينظر للصندوق الزجاجي.. ويرفع نظره عنه لينظر لي آملاً..

كان من الصعب أن أشرح له استحالة ما يتمناه، والأصعب أن أكسر أملاً في نفس إنسان بسيط..

قلت:

- يا عبد المنعم، لو اشتريت هذه السيارة الفاخرة هل ستجد وقتًا لقيادتها؟!

أطرق برأسه في الأرض مفكرًا وقد عقد كفيه وراء ظهره، كما يفعل الدكتور واتخذ هيئته تمامًا، لا فرق بينهما سوى الطول! رفع رأسه وأجاب:

- لا يا أستاذ حمزة ! فمعظم الوقت سأظل فيه بسيارة الدكتور، وقضاء المشاوير..!

وضعت يدي على كتفه بسرعة وأنا أحاول إقناعه:

- شفت يا عبد المنعم؟

- صحيح يا أستاذ حمزة، من أين سأجد لها وقتًا، وأنا في العمل طوال الوقت؟

لا شك سأركنها في الجراج...

أكملت كلامي وقد شعرت أنه بدأ يقتنع:

- ثم إنك تركب أصلاً سيارة ليست أقل منها كثيرًا، فخمة وحديثة، الا تشعر بأنها ملكك وأنت تقودها؟!

لمعت عيناه وهو يقول:

- فعلاً! صحيح، عندما أقودها ولا يكون الدكتور معي، اشعر بأنها ملكي!

- حسنًا يا عبد المنعم، فلماذا تحتاج إلى سيارة أخرى إذن؟!

ضحك وقال:

- معك حق والله يا أستاذ.. لا أحتاج سيارة ولا شيء.

ثم قبل يده بصورة مسموعة وجهًا لظهر، وهو يقول: الحمد لله على الستر. فالتفت ناحيتنا عيون البعض الذين سمعوا صوت القبلة التي شنّفت الآذان وهم ينظرون باستهجان واندهاش..

قلت له وأنا أحثه على التحرك:

- طيب اذهب الآن وأت بالسيارة؛ لأن الدكتور على وشك الظهور أمامنا.. وإن لم يجد السيارة قريبة من المدخل فستحدث عاصفة!!

انطلقَ من أمامي دون أن يَرد، وراح جسده الصغير وكرشه البارز العجيب، يهتزان، وهو يركض تجاه الباب، ويختفي في الظلمة..

وقفتُ مكاني مشدودًا مغمضًا عيني وأنا أتمتم:

الحمد لله يا رب.. عوضتني عن الدكتور بعبد المنعم.. كائنان أسطوريان، لا أعرف كيف جمعتهما ببعض، ومن نعمائك أن يصب كل هذا عندي أنا.. فضل وزيادة!

عدت إلى وقفتي منتظرًا خروج الدكتور، وقد بدأت الناس تخرج بالفعل.. فيركض نحوهم المستقبلونَ ويعانقونهم في لهفة!!

ظهر صديقنا أخيراً يرفع حقائبه أمامه على العربة المعدنية، فاتجهتُ له مستبشرًا.. رآني، فانفجرت أساريره وعانقني بلهفة خلتها حقيقية للمرة الأولى في حياته..

- حمد الله على السلامة..
- الله يسلمك.. كيف حالك.
- الحمد لله.
- وأين سائقنا الهُمام؟
- في السيارة ينتظرك...
سار إلى جواري مبتسمًا، بينما رحتُ أدفع عنه الحقائب..
سألني...
- كيف حال مصر؟!!
نظرتُ له قائلاً (مصر بخير الحمد لله).
فهز رأسه شاردًا.
أكملتُ في سري (... الذي لا يُحمد على مكروه سواه!)..
*
راح عبد المنعم يصيح بصوته الجهوري الذي يطال الجيران، كعادته كلما يتحمس لشيء:
- أشكرك يا دكتور. جمالك أغرقتني!
وهو يدور حول نفسه ممسكًا القميص الأزرق الذي أحضره له الدكتور من فرنسا، بينما جلس الأخير مبتسمًا أمام الحقيبة المفتوحة وهو يضع ساقًا على الأخرى، ضم عبد المنعم القميص لصدره وأغمض عينيه يتمتم بشيء.
خلته يدمع..
فتح عينه فجأة وركض نحو مقعدي المواجه للدكتور وهو يفرد القميص أمامي..
- شوف يا أستاذ حمزة، (ماركة) أيضًا ليس أي قميص..
نظرتُ إلى الشريط الأسود الصغير على ياقة القميص الداخلية، مكتوب عليهـــــا (second Hand -Victory)
نظرتُ له، ولسعادته البريئة وقلت:
- نعم يا عبد المنعم، ماركة مفتخرة!
قال له الدكتور وهو يبتسم:
- أنت عزيز عليَّ يا عبد المنعم، أنا لا أنساك أبدًا!!
- أشكرك يا دكتور.. ألف شكر..
أخذ عبد المنعم قميصه، وراح يحمل الحقيبة الكبيرة التي بها ملابس الدكتور إلى الداخل، حيث يخرج الملابس ويعلقها في الدولاب..
نظر لي الدكتور..
- هاه.. وأنت يا بطل..
- أنا.. مالي؟!
صمت قليلاً وهو ينظر لي بامتنان. ثم قال بصوت عميق:

- هل تظن أنني نسيتك؟

مال نحوي وقد ضيّق عينيه كأنما سيقول شيئًا خطرًا:

- أنا أذكرك دومًا.إياك أن تظن أنني لا أعرف تعبك معي أو لا أقدر ذلك في أعماقي! أنا لا أفوّت شيئًا!

-...........؟

مد يده إلى الحقيبة الصغيرة التي أمامه وأخرج منها علبة بلاستيكية.. علبة شريط كاسيت.

- تفضل.

- ما هذا يا دكتور؟!!

- هذه أوبرا من التي تحبها.. شريط " زواج فيجارو"!

نظرت للشريط، لم أجد على العلبة اي غلاف أو صور تشير إلى الأوبرا أو إلى أبطالها ومغنيها.

قلت وأنا أقلب الشريط بين يديّ وأتامله:

- ولكن هذا شريط مسجل؟

تحولت ابتسامته إلى ملامح جامدة

- نعم؟

قلبت العلبة بين يدي وأخرجته، رحت أنظر إلى الشريط الحساس أعلاه.. اردفت:

- وقديم أيضًا!

فجأة صرخ وقد انتفض ناهضاً:

قديم.. جديد.. هل تريده أم لا؟! ما قلة الذوق هذه يا أخي؟! عندما يحضر لك أحد هدية لا تفاصله، اقبلها وخليّ عندك لياقة.

- يُحضر هدية؟ يا دكتور هذا الشريط، هذه النسخة بالذات نحن سمعناها معًا في بيتك هنا عشرات المرات، وأنا بيدي وضعتها لك في حقيبة السفر وأنت مغادر لباريس..... أنت سافرت بها من هنا والآن رجعـ...

صرخ فيّ وقد جن:

- اتركها يا أخي وخلصني...

مددت يدي له بها، فاختطفها من يدي وهو ينظر لي بسخط ويتمتم بملا لا أسمعه ولكن أعرفه جيداً!.. ساد صمت متوتر. بعد دقيقة نطق:

- سأدخل لآخذ دش، عندما أخرج تكون قد أنهيت إعداد الرسائل والبوسطة التي وصلتني، وتُعِد المقالات التي نُشِرَت وأنا غير متواجد، وتُعد قائمة بالمشاوير التي أنجزتها..

أومأت براسي.. فنهض من أمامي، وهو ينظر لي بعنف، ويتمتم ساخطًا.. بينما كان يسير في الطرقة علا صوته..

- وافترض أن الشريط قديم، هل قدِم صوت المطربة؟ هل اختلف سيناريو الأوبرا؟! جهل!

أخذت أنظر إليه وأنا أكتم غيظي إلى أن اختفى يسارًا في الحمام.

نهضت أنظر من الشباك خلفي إلى الحديقة المظلمة والعشاق الصغار الخارجين للشوارع ينظرون في ساعاتهم في قلق، ويقنعوا رفيقاتهن بأشياء لا أسمعها، بينما الفتيات يمددن خطواتهن...

ابتسمت.

التفتُ إلى حقيبتي الصغيرة، جلستُ وتناولتها، فتحت السوستة، أخرجت الخطاب الأول الذي اتى للدكتور قبل ان اقرأ عنوانه، وجدت عبد المنعم أمامي..

- أستاذ حمزة !

- نعم يا عبد المنعم؟

- تفتكر لو طلبت من الدكتور أن يعطيني (سُلفة) لأشتري السيارة التي رأيتها في المطار.. هل سيوافق؟!!

*

صرخ جرس الهاتف.. قاطعًا هدوء بيتنا الصغير.

كنت على وشك النوم، نظرت للساعة أعلى سريري، كانت العاشرة مساءً.

- آلو..

- مساء الخير يا أستاذ حمزة...

- مساء النور يا دكتور..

- أريدك الآن لو سمحت.

اعتدلت بنصف جسدي مسندًا ظهري إلى السرير، وقد أغمضت عينيَّ يائساً:

- خير يا دكتور.

صرخ :

- خير ولا مش خير، ألا تعمل معي أم ماذا؟

- نعم. أعمل. أعمل بمائتي وخمسين جنيها شهريًا، كالطواحين وعبيد اسبرطة!

انفجر:

- لا أريد كلمة زيادة، إن كان لا يعجبك المرتب، استقِل... وسأجد من الغد عشرين واحد أفضل منك، ويعملون بنصف هذا المرتب!!

- حسنًا يا دكتور، أنا مستقيل. تصبح على خير.

أغلق السماعة بعنف، حتى خلتها تحطمت..

عدت إلى النوم.. وقد علت وجهي ابتسامة كبيرة، يا للهناءة.

أزحت الغطاء وتوجهتُ إلى الباب... مددت يدي خلف المكتبة وأطفئتُ النور، عُدت إلى السرير. سحبتُ الغطاء فوقي، وأغمضتُ عينيَّ مبتسمًا.

فجأة صرخ الهاتف.. فانتفضت ملسوعًا، وقد ألقيتُ الغطاء...

ورحت أصرخ في الهاتف دون أن أرفع سماعته...

- لن أذهب! قلت أنا مستقيل. مستقيل..........! مستقيل........!

*

نزلت من التاكسي عند مدخل الشارع الموازي لشارع نهرو بعدما وجده السائق مغلقا بسبب أعمال إصلاحات تتم فيه.

رحت أناول السائق أجرته، وأنا غاضب.

فقال الرجل وهو يتأمل سحنتي المقلوبة:

- لا تغضب يا أستاذ لهذه الدرجة، هذا شارع صغير ستتمشاه فقط..

قلت بعصبية:

- يا أخي لستُ غاضبًا من الشارع ولا المشوار، غاضب من شيء آخر.. من عبودية اسبرطة..

نظر لي الرجل يتفحصني، وقد علا وجهه عدم الفهم..

- لا مؤاخذة يا أستاذ!

- نعم..

- هل عبودية اسبرطة هذه هي الشركة التي أغلقت الشارع؟!

نظرتُ له وأنا على وشك الانفجار.

تركته وذهبت.. بينما سمعت السيارة تبتعد.. دلفت إلى الشارع الموازي لشارع نهرو وأنا أحمل حقيبتي على كتفي، نظرتُ في ساعتي، كانت الحادية عشرة ليلاً... رحت أمد.. وأنا أفكر فيما يريد الدكتور.. ولا أصل إلى شيء!!

كنت الوحيد الذي يسير في الشارع، ولاحظتُ اصطفاف مجموعة ضخمة من السيارات الفاخرة بشكل ملفت على جانبيه، ولا سيارة واحدة قديمة..! رحت أتأمل العمارات أيضًا. كلها فاخرة وحديثة، وتشطيبها مُتقن، كأنما صُنِع هذا الشارع صُنعًا وسط مصر الجديدة ذات المائة سنة! خلت نفسي في منطقة حديثة للغاية في مدينة نصر!.. وقفتُ أتأمل كل هذا..

لا توجد شقة واحدة تنشر غسيلاً على امتداد الشارع - على امتداد أربعين عمارة تقريبًا! هل هي مصادفة ثالثة؟ أم أن هناك تصميمًا قياسيًا موحدًا لهذا الـ..

- أنت يا..

التفتُ خلفي إلى مصدر الصوت الجهوري المنادي لي..

لمحتُ رجلاً ضخمًا في حُلة متقنة وربطة عنق يسير نحوي في هدوء..

- هل تكلمني؟

رد ببرود متحدٍّ:

- وهل ترى أحدًا غيرك في الشارع؟!

أجبته بالبرود نفسه:

- نعم.. أنت!!

راح ينظر لي بتفحص وقد قطب وجهه..

- ما اسمك؟

انفجرتُ فيه:

- وما شأنك؟ ومن أنت أصلاً، ولماذا توقفني وتسألني يا عم؟!

اتسعت عيناه دهشة، خلته سينفجر فيَّ، وتوقعت الأسوأ! هيئته توحي بأنه بطل جودو أو مصارعة. غير أنه أجابَ بهدوء:

- ممكن أعرف ماذا تعمل؟!

- لا..

صمت يتأملني ويفكر.. كأنما يحاول أن يجد شيئاً مقنعاً يقوله وهو ينظر يمنة ويسرة في نفاد صبر:

- طيب أنا أحد سكان هذا الشارع، ولم أرك تسير فيه من قبل.. هل من الممكن أن تخبرني لماذا تسير فيه الآن؟!!

حملقت فيه مندهشًا.. أردت التهكم فلم أستطع..

- ماذا قلت يا أستاذ؟ أنت أحد سكان هذا الشارع، ولم ترني فيه من قبل؟ هل تريد أن تقول لي إنك تعرف كل من يمرون من هذا الشارع منذ إنشائه؟! هل تمزح؟

ظلت نظرته ثابتة وهو يرمقني بصلابة وتحدٍّ، رد ببطء..

- أنا لا أمزح.. أنا لم أرك من قبل.

اجبته بالصلابة ذاتها وأنا أنظر في عينيه مباشرةً:

- إن افترضنا أن كلامك هذا صحيح، فهذا يعني أنك لا تفعل شيئًا في يومك أو حياتك سوى مراقبة السائرين هنا! وإن صح هذا.. فهذا يعني أنك لست (ساكنًا) كما تقول، وإنما شيئًا آخر..!

اتسعت عيناه دهشةً مرة أخرى، خلت على وجهه ابتسامة غريبة ومضت وانطفأت في لحظة قبل أن يقول:

- اسمع، اعتبرني ساكنًا أو غير ساكن أو جنًا أزرق، ستجيب على أي حال.. لماذا تسير هنا في ذلك الوقت؟!

(تأكدت مما ظننته!)

- لماذا أسير هنا؟ صحيح! معك حق، لماذا يسير الإنسان في الشارع؟! لأني مواطن، هل سنوا قانونًا يمنع المواطنين من السير في شوارع بلدهم؟!

- لا! ولكن ربما بعض المواطنين من المفروض ألا يكونوا في الشارع من الأصل..

- ماذا تقصد؟!

- أرني بطاقتك.

- لا.. أرني بطاقتك أنت أولاً لأعرف من أنت ثم أريك بطاقتي.

ظل ينظر لي نظرة ميتة خالية من أي تعبير

ظل الصمتُ على حاله بيننا وقد رشق كلٌّ منا عينيه في عيني الآخر.

مرت نصف دقيقة كأنها زمن، وكأننا شخصيتان خرافيتان في مشهد صامت، حتى حقيبتي المدلاة من كتفي خلتها لا تهتز مع الهواء.

لا شيء، سوى السكون والثبات. والتوتر!

فجأة تحركت يده بهدوء إلى خصره المختفي تحت حافة جاكيت البدلة، سحب شيئًا، ورفع إلى وجهه، جهاز لاسلكي ضخم. علت الأصوات والشوشرة التي يحدثها الجهاز:

- نعم يا فندم. معك الإشارة.

- ابدأ!

ابتعد قليلاً يمشي متراجعًا خطوات وهو يلتفت لينظر لي بين لحظةٍ وأخرى.. سمعت كلمات قليلة من صوته الذي يبتعد مع ابتعاده.

- شارع المجد يا افندم. بعد الساعة ١١. شنطة سوداء.

-................!

- مؤهلات يا باشا..!

لم أسمع شيئًا من باقي الكلام.. فقد ابتعد، بينما ظللتُ واقفًا أتابع الرجل الذي أخذ يُنصِت من دون أن يتكلم، وهو يهز رأسه. بعدها أنهى الاتصال، وعاد يسير نحوي ببطء.

وقف أمامي، قال:

- تفضل معي.. ومن فضلك.. بهدوء، واحترام.

نظرتُ نحوه وأنا أقيِّم الموقف في رأسي بسرعة وأقلِّب الأفكار..

أخذ ينظر لي في هدوء.

سألت:

- وأين سأذهب؟

قال وهو يشير إلى كشك خشبي متوار تحت أغصان وأوراق شجر وما تبقى منه مختفٍ خلف السيارات الفاخرة المصفوفة:

- أبدًا، ستجلس معي في هذا الكشك الصغير قليلاً إلى أن نعرف معًا إلى أين ستذهب!

أشار لي بالتحرك. توترتُ أصابعي وهي تنقر على حقيبتي المدلاة من كتفي. وتحركت إلى حيث أشار.

نظرتُ في ساعتي.

كانت تُشير إلى الحادية عشرة والربع.

رحت أنظر إلى شارع نهرو وأنا أهز راسي في أسف عبر فتحة الكشك الجانبية.

....

توقفت سيارة شرطة زرقاء (بوكس) أمام الكشك لم تكن بها سارينة، نظرت في ساعتي كانت تُشير إلى الثانية عشرة وخمس دقائق. هبط منها رجل طويل في حلة زرقاء ورابطة عنق، يسير بثقة زائدة وينظر إلى الأشياء من حوله بلامبالاة، بينما نهض مرافقي من مقعده خارج الكشك إليه في نشاط وهو يجري تقريبًا.

دار بينهما حديث، أخذ اللامبالي ينصت للآخر، وهو ينظر نحوي بين الحين والآخر، عيناه حادتان باردتان.

أشار مرافقي نحوي ثلاث مرات، شعرت بالموقف يتعقد ولا أعرف ماذا ستفعل الدقائق القادمة بي.

فكرت طيلة الوقت الثقيل الذي جلستُ فيه بالكشك عن سبب توقيفي هكذا من الأصل.. فخانني ذكائي.

أشار لي الرجل الطويل بيده وهو لا يزال يستمع للأول، بما يعني أن أخرج من الكشك وأقف بجواره.. نهضت في بطء، حملتُ حقيبتي على كتفي ووقفتُ خارج الكشك وأنا لا أحوّل نظري عنه. بيني وبينهما سيارات مصفوفة بجانبها تعتلي مقدمتها الرصيف، بينما وقفا في نهر الشارع.

نظرتُ للسيارة التي نزل منها الثاني الطويل. وجدتُ عسكري نحيلاً أمام عجلة القيادة ينظر لي مُركّزًا بشدة.

بجوار الكشك كرسيان..أحدهما عليه سلسلة مفاتيح وتليفون محمول، والآخر فارغ..

تأملت الكرسيين!

نظرت للرجل الثاني. أشرتُ له بما يعني أنني أريد الجلوس. رمقني طويلاً، قبل أن يهز رأسه بالموافقة، دون أن ينزل عينيه المتفرستين من على وجهي.

جلستُ وأنزلتُ الحقيبة من كتفي..

نظرتُ نحو الرجلين، كان الطويل قوي البنية أيضًا يُحادث الضخم وهو يُحدِّق في وجهي، بينما أولاني الضخم ظهره.

نظرتُ للسيارات التي تفصلني عنهما..

لم أكن أرى من الرجلين سوى صدريهما، ولما جلستُ خمنت أن من ينظر لي من موقعهما لن يرى سوى وجهي.

رحت أنظر بعيدًا عنه وأنا أشعر بعينيه منشوبتين في عيني.

مددت يداي بهدوء تجاه الكرسي المقابل، دون أن يهتز وجهي، وأنا أتأمل السماء والبيوت في لا مبالاة. أمسكت الموبايل..

تلمست أصابعي مواقع الأرقام دون أن أنظر لها أو أخفض رأسي. ضغطتُ الأرقام ببطء وتركيز شديدين محاذرًا أن أخطئ..

أنزلتُ عيناي أنظر نحو الرجل الذي يرمقني. عيناه لا ترمشان عني.. تجمَّع الرقم أو هكذا قدرت في ذهني فضغطت زر الاتصال. تظاهرتُ بالنظر إلى الحقيبة بينما أرمق شاشة الهاتف في سرعة وهي تضيء بإشارة مكالمة مفتوحة. ظلت الشاشة مضيئة لنصف دقيقة، فعرفت أن الطرف الآخر يتكلم، ولكن لم أستطع أن أسمع شيئًا.

أطفِئَتْ الشاشة بعدما أشار الرمز إلى أن الطرف الآخر أغلق الخط، مدة المكالمة (٤٢) ثانية..!

أعدتُ الموبايل مكانه وأنا أحرص على تأمل الأشياء حولي بعفوية..

.... ما زال الرجلان واقفين بعيدًا..

راح الثاني ينظر إلى أول الشارع بين الحين والآخر...

(لم يمر أحد من هذا الشارع منذ جلستُ في الكشك وإلى الآن.. ولم تمر سيارة واحدة!)

.. فجأة علا رنين الموبايل بجواري. لم أنظر نحوه. أسرع الرجل الضخم تجاه الكرسي حاشرًا جسده بين السيارات المصفوفة بصعوبة. التقط الموبايل وأخذ ينظر فيه مستغربًا، مرت عشر ثوان وهو ينظر للموبايل قبل أن يرد بصوته الواثق.. وقد ملأت عينيه لا مبالاة..

- آلو..

(سمعت شخصًا يصيح على الجانب الآخر.. ابتسمت!)

بينما راح الرجل أمامي يرد في هدوء وهو يقطب حاجبيه.

- لا.. لم يتصل أحد بك.. من أنت..؟

-..........!

- من؟!

-..................؟

- ماذا؟ يا نهارك اسود.. توقف عن السباب وإلا ساعتقلك!

-................

- أنت من ستعتقلني؟!

بدا على وجهه التردد للحظة، فجأة تغيرت نبرته وقد نظر نحوي فجأة..

- لحظة.. يا أستاذ لو سمحت ربما يكون حدث خطأ..

أبعد الموبايل عن أذنه، كتم سماعته بيده وهو يسألني:

أنت! هل اتصلت بأحد؟

لم أرد..

صرخ فيَّ في غيظ بصوت مدوٍّ:

- انطق..

جاء الرجل الطويل مسرعًا بخطوات واسعة.

- ماذا هناك يا أشرف؟

نظر له مرتبكًا وهو ينظر لهاتفه في يده:

- لا أعرف يا فندم.. واحد اسمه ...، يصرخ ويلعن ويهدد باعتقالنا.

انقلب وجه الرجل مستغربًا.

- اعتقالنا؟!

نظر نحوي وراح يفكر في شيء.

تناول الموبايل من زميله في هدوء دون أن ينزل عينه عني..

- آلو.. ماذا هناك يا أستاذ؟

-.................!

- لا، لسنا عصابة.. وليس هاتفًا مشتركًا.. ولكن من فضلك لا تصرخ هكذا.

-.....................

- ربما يكون حدث سوء تفاهم، فهذا رقم خاص وسري الذي تقوله إنه اتصل بك، ولا يستخدم عادة للاتصالات العادية.

-.............!!

- ماذا تعني باتصالات سوبر؟! من فضلك كفاك استهزاءً بنا، ممكن أن تخبرني باسمك؟!

-.....................

- عفوًا.. هل أنت الذي يكتب في الأهرام؟!

-...........!

- من فضلك ابقَ معي دقيقة واحدة..

أبعد الرجل الهاتف عن أذنه وهو يكتم سماعته بيده، ونظر لي..

- ما اسمك يا ابني؟!

- حمزة قناوي

استمر يُحَدِّقُ فِيَّ مُتَفرِّسًا وهو يعيد الموبايل إلى أذنه ببطء ملحوظ..

- عفوًا يا دكتور. هل تعرف شخصًا اسمه (حمزة قناوي).

-.............!

- لا تريد أن تعرفه؟ طيب.. طيب، ولكن هذا يعني أنك تعرفه!

-.............!

- نعدم من؟!

-...............!

- لا لا.. ليس هناك مشكلة ولا شيء، هناك سوء تفاهم فقط، وهو لم يفعل شيئًا!

-....................؟

- معك العميد (إ.م) قائد حراسات شرطة مصر الجديدة...

-...........!

ابتسم الرجل وهو يرد:

- لا يا دكتور لم يحدث شيء، هذه فرصة طيبة سمعنا فيها صوتك.

-............!

- العفو.. مع السلامة.

أغلق الخط وأعاد الموبايل إلى مكانه على الكرسي. عقد ذراعيه أمام صدره وهو يلتفت نحوي ويتأملني وقد قطب جبينه وحاجبيه:

- والآن..! هل كان من الصعب عليك أن تقول لنا إنك قادم للدكتور كاتب الأهرام؟

ظللتُ أنظر له دون أن أرد.

تابع وهو يتأملني من أعلى لأسفل:

- والأهم، كيف استطعت الاتصال من موبايل أشرف بيه؟! أنا لم أنزل عيني عنك لحظة؟!
وضع سبابته على فمه مطرقا لحظة. نظر للكرسي الذي عليه الموبايل.ونقل عينه إلى الكرسي الملاصق له قبل أن ينظر لي ويتأمل شيئا.
التفت خلفه ينظر إلى موضع وقوفه مع زميله قبل أن يكمل ببطء:
-.. أقصد لم أنزلها.. عن وجهك!!
ظللت أنظر له في صلابة. ابتسم وهو يتأملني وقد اتسعت عيناه وأطرق برأسه مرارًا.
فجأة تدخل الضخم في الحوار بعصبية.
- كيف اتصل من هاتفي يا فندم؟ ثم إنه جعل هذا الشخص يحاول إهانتي ويقول لي ساعتقلك! أنا أعتقل يا فندم؟! أنا؟! من فضلك نأخذه ونكمل إجراءاتنا و...
أشار له الطويل بأن يتوقف فصمت. استدار ناحيتي:
- ماذا في حقيبتك يا أستاذ حمزة؟!!
أنزلتُ الحقيبة من على كتفي في بطء وفتحتُ سوستتها وأنا أنظر لوجهه وقد باعدت بين جانبيها له فنظر بالداخل إلى الأوراق والأقلام وقصاصات الجرائد
هز رأسه مكتفيًا، فأغلقت السوستة وأعدت الحقيبة إلى كتفي.
قال لي وهو يشير إلى أول الشارع:
- تفضل يا أستاذ حمزة...
نظرتُ للضخم الذي احمرَّ وجهه وبدا عليه الغيظ.
قلتُ للطويل: ممكن أن أعرف قبل أن أذهب، لماذا أوقفتموني؟!
عاد يبتسم ورد في هدوء وصلابة:
- لا!
أشار لي نحو الشارع واستطرد:
- شارع نهرو الموازي لنا، لن تسير كثيرًا، فالبناية التي تقصدها قريبة.
نظرت له طويلاً. راح يبتسم.
أعطيتهما ظهري. وسرت تجاه أول الشارع.
على بدايته وجدت عمودًا عليه إشارتان لاسمَي شارعين: شارع المجد، وشارع السعادة...!
وقفت أتأمل اللافتة. نظرتُ خلفي كان الرجلان قد ابتعدا!
تجاوزتها ورحت أسير في بطء ويدي شاردة على حقيبتي المدلاة، وعيني على عمارة مطفئة الأنوار في شارع نهرو.

*

انفجر الدكتور صارخًا:
-..! ليس وراءك سوى المصائب..! منذ عرفتك وأنت لا تجلب لي سوى المشاكل..! من الذي يتحملك على هذا النحو... قل لي أي مصيبة فعلت هذه المرة؟!
(لم أرد)

أكمل وهو يشيح بيديه:

- آه.. الآن لا تريد الرد يعني، أسمعني صوتك الذي يلعلع فقط عند الاعتراض على المرتب!

- مُرتَّب؟ هل ما زلت تقول مرتَّب؟! مائتين وخمسين جنيه مرتب؟

صاح صارخاً:

- نعم مرتب! مرتب ونصف! إن كان لا يرضيك استقِل يا أخي..

صرخت....

- استقلت يا دكتور.. والله العظيم استقلت حتى الآن أربع مرات وأنت رفدتني ثلاث مرات..

- إذا لماذا أنت أمامي هنا الآن.؟!

أشرت بيدي في رضا:

- معك حق.. تصبح على خير..

تحركت تجاه الباب.. فهب من مقعده صارخًا..

- تعال هنا.. هل أتيت لي في منتصف الليل تسبقك مكالمات الضباط وأمن الدولة والمشاكل من أجل أن تقول لي تصبح على خير وتذهب؟!!

- لا...!

- ازداد صوته ثورة: إذن لماذا أتيت يا افندي؟!!

شعرت أني على وشك الانتحار. صحت:

- يا دكتور أنت الذي اتصلت بي لآتي..

نظر لي باندهاش وقد بوغت. خلع النظارة ووضع ذراعها على طرف فمه وهو ينظر لي بعينيه المجردتين، وعاد إلى مقعده.

راح يفكر... مرت دقيقة.. قبل أن يرفع وجهه في بطء نحوي، قبل أن يقول:

- صحيح.. أنا الذي اتصلت..

ثم أطرق.. وقد عاد إلى التفكير.. وقال:

- ولكن.. ماذا كنت أريد؟! لماذا اتصلت؟

نظر لي وجدني واقفًا أمامه. حقيبتي مدلاة من على كتفي. وعلى وجهي المكتئب إرهاقٌ بادٍ. كأنما انتبه فجأة. فقال:

- اجلس يا حمزة. أنا آسف.اجلس.

أغمضت عينيَّ المُرهَقتيْن وظللتُ واقفا أهز راسي قبل أن أجن فنهض وربت على كتفي.

- خلاص يا عزيزي، لا تغضب، اجلس...!

"..........

لم أكن أشعر بنفسي او اسمع شيئا. نهض الدكتور وربت على كتفي ببطء. رفعتُ وجهي إليه فوجدته يحاول تجنب أن ينظر إليَّ مباشرةً.

جلستُ بهدوء.

ظل الصمتُ والسكون يخيمان علينا..

بعد دقائق قال:

- نعم..! أنا تذكرت لماذا اتصلت بك!!

نظرتُ له دون أن أرد. تابعَ:

- آ. كانت هناك مفاجاة ورأيت الا أستاثر بها بمفردي...

-.........!!

نهض بصعوبة من على المقعد وسار تجاه المنضدة الصغيرة التي تتوسط الصالة وأمسك (الريموت) الخاص بالتيلفزيون وضغط عليه. ابتسم وهو ينظر لي وقال:

- الليلة سيذيعون أوبرا «زواج فيجارو». أعرف أنك تحبها!

نظرتُ إليه نظرة يائسة منه ومن نفسي ومن الدنيا. جلست.

قال لي: والآن صارحني. ماذا فعلت لتجعل ضابط قسم الشرطة يتصلون بي في الواحدة صباحًا؟!

- لم افعل شيئًا....!

عاد يصرخ:

- لا تكذب ولا تضع الوقت في مقدمات.أنت فعلت مصيبة ولا شك.

أجبت بهدوء وقد استسلمت:

- نعم فعلت..!

عاد صوته إلى الهدوء:

- شفت؟ أهو كدا! صارحني ولا تخف. ماذا فعلت؟!

تنهدت قبل أن أنظر له في يأس

- مشيت في الشارع.

أخذ يحدق في وجهي وهو يتمتم بكلمات لا أسمعها، خلع النظارة بهدوء وضيّق من حاجبيه.

- أي شارع؟! ماذا تعني بأنك مشيت في الشارع.

نهضت وألقيت حزام حقيبتي على كتفي، ومددت يدي أمامي وأنا أحركهما مجسدًا في الهواء هيئة شارع.. وحركتهما تجاه الدكتور بما يعني أنني أطلب منه أن ينتبه لي. فنظر مندهشًا.

رحت أجوب الصالة مشيًا من عند النافذة تجاه التليفزيون. وعائدًا من عنده للنافذة مرة أخرى وحقيبتي تتأرجح على كتفي وأنظر للدكتور بين الوقت والآخر..

نهض واقفًا وصاح:

- ما هذا الذي تفعله؟!

- أمثل الجريمة!! أرد على سؤالك كيف مشيت.

أخذ يحملق فيَّ عدة دقائق. قبل أن ينهض من على المقعد. ويتجه نحوي وأنا واقف. قرَّب وجهه مني، وأمسكني من معصمي وهو ينظر في ساعته، بعدها أفلت معصمي ووضع يده على جبهتي وهو ينظر إلى السقف ويُقدِّر شيئاً. نظر نحوي وقال:

- من الواضح أنك مُتعَب يا عزيزي، خلاص: أنا لا أريد أن أعرف ما الذي ارتكبته.. يبدو أن المسألة تسبب لك ضغطا نفسيًا!

عدت أرد عليه بهدوء:

- سرت في الشارع يا دكتور. أقول لك جريمتي أني سرت في الشارع.

- أي شارع؟!

- اسمه شارع المجد...

حملق فيَّ مستغربًا وراح يتمتم في سِرّه بما لم أسمع، خُيِّلَ لي أنه يردد اسم الشارع، رفع وجهه نحوي مسرعًا وقال وهو يقطب جبينه ويضيق ما بين حاجبيه:

- شارع المجد؟!

- نعم!!

- تعال!..

أشار لي وهو يسبقني تجاه البلكونة المجاورة للنافذة العريضة التي تطل على الحديقة، إلا أن لها زاوية جانبية، دخلت وراءه فأشار إلى الشارع الذي أتيت منه:

- هذا؟!

- نعم..

استدار بجسده نحوي وهو يهز رأسه مؤنبًا محنقًا..

- هذا الشارع يعيش فيه واحد من أكبر الرؤوس في البلد، ابن واحد من الكبار قوي!!

*

ران الصمت بيني وبين الدكتور..

جلست شارداً.. أنظر من النافذة إلى الشارع المظلم، وأنا أشعر أن روحي تضيع في سراديب مظلمةٍ أخرى أكبر..

نظرت للدكتور فوجدت على وجهه ترقب وقد اكتسى وجهه بمسحة من طفولةٍ وبراءة لا اعرف من أين يأتي بها!

قلت:

– هاه يا دكتور؟ ماذا هناك الآن من مصائب لم تحدث؟ ما المصيبة القادمة التي سألتقيها؟ الحمد لله كدت أن يعتقلني أمن الدولة قرب شارعك، وقبلها ذهبت بي إلى هانز بليكس نفسه. والآن.. ماذا أيضاً؟

صرخ:

– يعني ماذا تريد الآن؟ هل هذا جزائي؟ وأنا فكرت فيك واتصلت بك خصيصاً لأني عملت لك مفاجأة؟ أنت لا يرضيك شيء.

زفرت ونهضت واقفاً..

– يا دكتور. يا عزيزي الدكتور أنا لا اريد مفاجآت ولا سواه. الله يخليك. كفانا مفاجآت الحياة التي تقفز علينا أنا وأنت من أين لا أدري!

نظر لي ساخطاً.. ولم يرد..

تحرك نحو المقعد القريب من النافذة وجلس وهو يتمتم غاضباً..

نظر لي في ضيق وعاد ينظر من النافذة ويتمتم، شعرت بأنني أحزنته.. فسرت ناحيته ووقفت أمامه. قلت:

- طيب يا دكتور.. لا تزعل. أنا فقط كنت مشدوداً من (بتوع) الأمن هؤلاء.. عموماً يالله اخبرني ما المفاجأة، وسنفرح بها معاً.

قال لي وهو يهز رأسه..

- لن أخبرك بشيء. أنت عديم النفع. ابن عاق. لا تستحق.

قلت:

- خلاص يا دكتور. قلت حقك عليَّ. أنا آسف يا سيدي. يالله قولي ما المفاجأة.

نهض وسار ببطء عاقداً يديه خلف ظهره، وهو يفكر.. كأنما كان بينه وبين نفسه يحاول ان يحسم الأمر إن كان يقول لي أم لا. قبل أن يزفر كمن ليس أمامه حل آخر. رفع حاجبيه في عظمة وقال:

طيب يا سيدي.. أنا أحضرتك لتشاهد معي الأوبرا. وأي أوبرا.. «زواج فيجارو».

صمتّ. لم أصمت فقط وإنما خرست! شعرت أنني سأموت وأنا واقف!

نظر لي وقد تضايق من عدم تهليلي للمفاجأة...

- إيه.. ألا تعجبك؟! ألا تُحب مشاهدتها؟!

هززتُ رأسي مستسلمًا.. بلى.. أحبها، عادت أساريره تنفرج..

- عظيم.. سنشاهدها معًا إذن.. لا شك أن نصفها قد انتهى الآن... بسبب ما حدث الليلة، وضياع الوقت، ولكن لا بأس سنشاهد النصف الثاني، وفيجارو ينادي على حبيبته أسفل شباكها ومعه صديقه، وهي قادمة تهرول إليه قائلة:

اتخذ الدكتور هيئة مطرب أوبرالي ولملم الكيمونو في منصته وقد اشرأبّ بعنقه وراح يصيح بسرعة «فيجاروووو... فيجاروو... فيجاروو»!

نهضت نحوه وزحت أربت على كتفه:

- خلاص يا دكتور .. عظيم عظيم! ولكن اخفض صوتك قليلاً فربما لا يُحب الجيران فيجارو مثلنا خاصة في الواحدة والنصف صباحًا!

تنحنح وهو يلملم الكيمونو ويتحرك رافعاً أنفه في عظمة:

- آه! صحيح ربما معك حق.

أفلت الكيمونو وسار تجاه الريموت وضغط أزراره، واستدعى قناة "ميتزو".. رفع مستوى الصوت فانهمرت الموسيقى تغمر ليل البيت.

صاح الدكتور رافعًا صوته على صوت التليفزيون وقد وصل صوته لآخر مصر الجديدة : عظيم يا بطل.. والآن الموسيقى... الحياة...! ماذا ينقص في هذه النشوة..!

هززت رأسي في يأس صحيح. ماذا ينقص!

طرقع بأصبعه جذلاناً:

- ينقص أن (نُحلي) ونحن نشاهد الأوبرا..

قلت شارداً:

- نعم لنزيح المرار..!

- أي مرار؟!

- لا شيء..

- طيب حيث لا شيء إذا سمحت.. بدون تكليف يعني، فهذا بيتك! آه.. أقول اذهب إلى الثلاجة واحضر لنا طبقين أرز باللبن، اشتريتهم لك خصيصًا من المحل الذي تحبه في ميدان الجامع، اليوم نزلت بمفردي، وسألت عن المحل وأحضرتهما لك.. شفت؟!

قلت متصنعاً الاندهاش:

- لا...!

قال وهو يهز رأسه في تمكن:

- أمَّال؟!

ظللت واقفاً مكاني أتساءل عن سبب مجيئي للدنيا بس!

بينما أردف في حماس:

- يا الله يا بطل ستفوتنا الأوبرا هكذا...!

ذهبتُ إلى المطبخ، وبمجرد أن دخلته حتى أغلقتُ الباب، استندت براحتيَّ إلى المنضدة الكبيرة التي تتوسطه وأطرقت مغمضًا عيني وأنا أزفر.

لا أعرف ماذا ارتكبت في حياتي لتلقي بي أقداري في طريق كل هذا الجنون وماذا لو تركته فعلاً؟ هل سيطلق عليَّ النار؟!

بينما أتساءل عن انفصالي عنه رفعت وجهي إلى المكان حولي.هذا البوتاجاز! كان يقف أمامه في أول أيام رمضان ليُعد لي الإفطار وأنا أنتظره بالخارج!

تحركت ناحية الثلاجة، وفتحتها ؛ طبقا الأرز باللبن عليهما اسم المحل الذي أحبه اشتراهما لي منه دون أن أعرف، راحت صور أخرى تنثال على ذاكرتي.

افتعاله للمشاكل معي من أجل أن أحضر لأبيت معه، أو نسهر. رقده المتكرر لي، وبعدها بلحظات يكلفني بالمزيد من المهام.

ابتسمت..

نظرت من الشباك، المُطل على شارع الحجاز البعيد. الساعة الثانية صباحًا، والأضواء الخافتة تلقي شحوبًا شفيفًا على الشارع.

عدت إلى الثلاجة.تناولت طبقي الأرز باللبن، وضعتهما على صينية، ووضعت معهما ملعقتان نظيفتان، واتجهتُ لباب المطبخ.

كان مطرب الأوبرا متجليًا يلعلع، رحت أسير في الطرقة، وقد ابتسمت لكي أشارك الدكتور مرحه وحماسه.

دلفت إلى الصالة، وعيني على التليفزيون، متابعًا الثلث الأخير من الأوبرا، صحتُ محاولاً رفع صوتي على صوت التليفزيون:

- يا الله يا دكتور، الأرز باللبن، تعبت نفسك وكان يمكن أن تكلف عبد المنعم بشرانه.

لم يرد. فأكملت:

- عموماً.. الآن استمتاعنا بالأوبرا سيكون كاملاً...

نظرت لمقعده المواجه للتليفزيون..

كان رأسه مائلاً على الكنبة الجلدية وقد راح في نوم عميق!

*

جلس الدكتور أمامي يفطر وأنا أشرب الشاي معه، كان وجهه قلقًا.. فبادرته..

- هل هناك شيء يا دكتور؟!

نظر نحوي كأنما أفقته من شروده، لمحت عينيه من وراء النظارة السوداء السميكة التي كانت تنعكس عليها في خفوت. قال في أسى:

- يريدون تقليص مساحة المقال الذي أكتب فيه في الأهرام..

- لماذا؟!

- لا أعرف! تكلمت مع أحمد القُرعي كثيرًا، ولا فائدة.. كل مرة يحذفون ربع المقال ويشوهونه.

قلت وأنا أركّز في كلماتي:

- أعتقد أن السبب هو رجالات لجنة السياسات الذين يوصي عليهم من الحزب الوطني ويحتلون الصحيفة يومًا بعد آخر. كل يوم يطالعنا وجه جديد لا نعرفه، ويكتب كلامًا بلا معنى، يأخذون من مساحتك لأجلهم.

هز رأسه مؤمّنًا على كلامي:

- يا أخي لا يمكن أن يكون هذا هو الأهرام.!

- معك حق.. ولكن.. صدقني أحمد القرعي، لن يفعل شيئًا ولا أعتقد أن في يديه فعل شيء، تصور أن لجنة السياسات هي التي تحدد له أسماء الكتاب ولا شك تتدخل في مساحات نشرهم، فماذا سيفعل هو؟!

وجدته ينصت باهتمام فأكملت:

-.. ثم إنه مدير عام في الأهرام، وعضو مجلس إدارة في مكتبة الإسكندرية التي تتولاها السلطة بالكامل وعضو في الحزب الوطني.. و..و... المسألة متعلقة بالتوازنات والمصالح والحفاظ على الامتيازات الممنوحة، ليس في حساباته -فيما أظن- أن ترتبك بنية مقالك أو يُنشر مبتورًا، المسألة بها أرقام ومصالح ورضا " اللي فوق "..!!

حدق الدكتور في وجهي مندهشًا متفرسًا. أخذ يتمتم بكلمات لا أسمعها.

نظر نحوي في تعجب وقال:

- من أين تأتي بهذه التحليلات يا نابغة زمانك؟! أنا نفسي لا أفكر في كل هذه الأبعاد!

- آتي بها من الواقع، من الأرض، أنت يا دكتور تراهما من طابقك السادس. من أعلى مصر الجديدة.

استمر ينظر لي متفرسًا، قبل أن يقول:

- صرت غلباويًا! لمض..!

نهض عاقدًا كفيه خلف ظهره وأكمل:

... لكن يبقى السؤال الأساسي المُحرِّك للإيجابية: ما العمل؟!

أطرق مفكرًا، فرحت أطرق مفكرًا بدوري..

*

رأيت نفسي أسير في طريق طويلٍ أبيض، وعلى جانبيه بحرٌ هادرٌ من البشر ملايين البشر، وقفوا يصيحون ويهتفون.فقراء وبسطاء وجوعى.. نظرت أمامي رأيتُ صديقي الدكتور يسير وحوله رفاق أعرف وجوههم، زملاؤه في المعتقل ومفكرون كبار وماركسيون وشعراء، كانوا يسيرون تجاه عمودٍ منصوب في نهاية الممر، كانوا سبعة أو ثمانية، رأيت بينهم شهدي عطية الشافعي، وسعد زهران ومحمد سيد أحمد، وعبد العظيم أنيس، وآخر نحيل ذو عوينات شفافة لعله هنري كورييل أو صنع الله إبراهيم. ظللت أسير وراءهم تفصلني عنهم مسافة كبيرة. نظرت ورائي لم أجد أحدًا. ولم تصل عيني لآخر الطريق. كان الصخب هادرًا من ملايين البشر المصطفين على الجانبين وهم يشيرون لهم، ويمدون أيديهم نحوهم، نظرت للأيدي،كانت جميعها مشدودة على آخرها، ممدودة بقوة، متوترة، كأنها تنتظر منهم أن يمدوا أيديهم بدورهم لهم، حدقت في الوجوه، وجوه صفراء وسمراء وسوداء ولا يجمع ملامحها سلالة أو تكوين واحد.

كانوا بشرًا من أنحاء الأرض

وكانت أنظارهم جميعًا متعلقة بالسائرين أمامي بينما لا ينظر لي أحد.

كنت اتبعهم مدفوعًا بقوة لا أعرفها، وأسير وجلًا.

كان العمود البعيد يقترب مع سير الموكب في الممر، ولا أتبين أعلاه، لا أرى سوى السارية البيضاء.

كان صديقي الكبير يميل على أذن محمد سيد أحمد ويقول له شيئًا وكان من المستحيل أن أسمع صوته من الصراخ الهادر من ملايين الحناجر المنطلقة من الجانبين حدقت في الوجوه خائفًا. هذه ملامح بشر مقاومين من فيتنام، وهؤلاء صينيون جوعى. كأنما عادوا من عصر ما قبل "المسيرة الطويلة" من كهوف الصين إلى الميدان الأحمر أو ميدان تيانينمين مع الثورة الشيوعية، وهؤلاء عمال روسيون مغبونون فقراء، طالتهم يد جباة القياصرة في روسيا قبل البلشفية.

لمحت أمًّا إفريقية سوداء، تغطي بكفيها جبهة طفلها الرضيع وهي تلقمه ثديًا غاض منه الحليب، وتشير بيدها الأخرى تجاه كوكبة السائرين وقد علت وجهها بسمة مغتصبة ذابلة، رأيتها تهوي على الأرض إعياءً وهزالًا، وتحرص على جعل ابنها آخر ما يسقط على الأرض.

ورأيت وجوهًا عربية طالها السَغب والإرهاق وقد انتزر أصحابها بملابس من أقمشة المخيمات.

لمحت شيخًا سبعينيًا مكتهلاً يسقط في الزحام، ويهوي على الأرض مبتسمًا، تكونت حوله دائرة من البشر، تحاول رفعه، كان يقبض على تراب الأرض متشبثًا، رغم روحه التي فارقته.

خلت نفسي في يوم الحشر، وأنا أنظرُ للناس على الجانبين، ولا أرى ذلك السور أو الحاجز الخفي الذي يفصلهم عن الالتحام بالكوكبة السائرة.

رأيتُ نفسي أصغر السائرين في الممر الأبيض الغريب.

رأيتُ العمود المشع يقترب، رُحت أنادي على صديقي الدكتور فلم يسمعني، كان يشير إلى الناس باسمًا مطمئنًا، فينظرونَ حيث يشير، رأيته يشير إلى صور كبيرة راحت تُحلّق فوق رؤوس الناس وتظهر كالسحب.

صور ماركس وماوتسي تونج، وجمال عبد الناصر، وجيفارا، وكاسترو، ولينين، وسيمون بوليفار، وغاندي، ولوركا ولويس أراجون. وصورة علم أحمر، نبتت بين مطرقته ومنجله حبات قمح خضراء ذات عود أبيض.

وكان الناس فرحون يُشيرون له ولزملائه أنْ تقدّموا، بينما يهوي منهم من يهوي، ويسلم الروح. وقد استمر يشير لهم بالتقدم وهو يسقط. رأيت نفسي صغيرًا في طريق طويل.عيني على السارية التي ترتفع في نهايته. وخطاي على خطى السائرين.

سمعت في الزحام من ينادي باسمي. تلفت يميني، فلمحت أمي بوجهها النحيل المتألم تناديي لكي أرجع وأنضم للزحام الهادر. ولمحت إخوتي الفقراء يصيحون بما لا أسمع. ولا أرى سوى شفاههم تتحرك، وهم يبكون ويشيرون!

ظللتُ سائرًا، تظللني الصور التي تنقلها الريح والسحب فوق رؤوس الناس المتلفتين إليها في بشر.

لمحت فصولاً تسقط من تقاويم حائط في الطريق، وعُمرًا تتوالى عليه السنوات وهو يسير في طريق ممتد إلى سارية بعيدة، راحت السارية تقترب.

عندما اشتدت الشمس وراح الناس يتساقطون من نيرانها التي صبت توقدها على رؤوس الملايين الحاشدة المهزولة، راح العلم الأحمر ذو حبات القمح يقترب شيئًا فشيئًا، نازلاً من السماء إلى الأرض مقتربًا من رؤوس الناس وراح حجمه يكبر ويكبر حتى امتد ليشملهُم ويظلهم. بينما يرفعون إليه أياديهم رجاءً وأملاً في الاقتراب أكثر وأن تتحول السنبلات المنقوشة عليه إلى سنبلات حقيقية تسكن جوعهم وعطشهم.

راحوا يهللون فرحين.

بينما ظلت الكوكبة في طريقها يتقدمها صديقي ورفاقه.

رحت أحاول مد خطاي لألحق بهم إلا أن خطواتي كانت أقصر منهم، ووراءهم بكثير.

كان الضجيج مُصِمًا للآذان تتلاقى فيه لغات الأرض..! وكنت أنظر للسارية التي تقترب، وإلى أيدي البشر التي راحت تُشير للكوكبة السائرة بأن تتوجه إلى الأمام.

اقتربت السارية التي شمخت في الفضاء.

.. اقتربت..

نظرت أمامي، فرأيت السائرين وقد وصلوا لها تقريبًا.

رأيتُ أحدهم يتقدمهم منفصلاً عن المجموعة التي استمر في مسيرتها..
حدقت فيه. كان (شهدي عطية).
رفعتُ بصري للسارية.
لمحتُ أنشوطة غليظة معلقة أعلاها...!
راح شهدي يصعد سلمات السارية / المشنقة في ثقة وثبات، بينما استمر رفاقه في سيرهم خلفه.
ارتبكت.. نظرت للناس، متلمسًا منهم العون..
رأيتهم يصرخون ويبكون عاجزين عن فعل شيء.
راح العلم ذو السنبلات يصعد لأعلى متموجًا في الهواء مبتعدًا متلاشيًا
وراحت صور الشخصيات تنسحب طائرة مختفية في بطء إلى أركان السماء البعيدة.
نظرت إلى أعلى المشنقة التي انحصرت الكوكبة في حومتها.
لمحت في قمتها علمًا أزرق وأحمر شكلت نجماته الخمسون جماجم سوداء وعظام أطفال راح يرفرف مثقلاً بها جميعًا!

*

- حمزة...!
-........!
استيقظ يا ابني. صرنا العاشرة صباحًا. ولا شك أن الدكتور ينتظرك.
فتحت عيني. فلمحت أمي جالسة على طرف السرير، اعتدلت مستغربًا. وأنا أبحث عن الجموع والمسيرة والمشنقة تحت العلم الأمريكي، لم أجد شيئاً.
أمسكت بيدها، وأخذت أقبلها.. ألقيت بنفسي في حضنها وأسندت رأسي المتعب على يدها.
- ماذا بك يا ابني، كفى الله الشر!!

*

نزلت من بيت الدكتور في الثانية عشرة والنصف بعد أن أعطاني المقال الأسبوعي لأسلمه إلى الدكتور أحمد القُرعي في مكتبه بالأهرام.
كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يثق فيها لإيصال المقال إلى القُرعي. بالرغم من (جهازَيْ) الفاكس في بيته، والإنترنت وغير ذلك، إلا أنه لم يكن يرى بديلاً عن ذلك الأمر، وكنت أقطع شوارع القاهرة لإيصال المقال بحسب الوقت الذي يتواجد فيه دكتور القرعي في مكتبه.إما في الثانية ظهرًا (في عز الظهيرة). أو بعد الثامنة مساءً، قافزًا كالبهلوانات بين المواصلات من مصر الجديدة إلى شارع الجلاء. حيث مبنى الأهرام، ولم يكن هناك مجال لتأخير المقال. فيجب عليَّ الوصول به في موعده.
رحت أمد في طريقي بشارع نهرو. قاطعًا إلى شارع جسر السويس. ومنه أسير إلى شارع القبة، قبل أن أنعطف مع قصر الطاهرة. عند مدخل كوبري السواح، مخترقًا الممر الطويل الذي ترتمي فيه تلك الحديقة الصغيرة على يساره وفي نهايته أصل إلى محطة المترو، مترو أنفاق سراي القبة، نصف ساعة سيرًا من بيت الدكتور.

أقف متصبب العرق أمام شباك التذاكر. مخرجًا الجنيه للموظف. وبعد أن أمر بالتذكرة من البوابات الحديدية أقف تحت المظلة آملاً ألا يتأخر المترو أو يبطئ لكيلا أتأخر عن موعد د. أحمد القرعي.

أتذكر الدكتور منذ قليل وقد وقف يصيح بي . "لا طبعًا.. لن أعطيك.. نقوداً للتاكسي! تاكسي الساعة الثانية ظهرًا هل جننت؟ ستصل غداً إذن".

- طيب للطوارئ يا دكتوري!

انفجر صارخاً:

- طوارئ ماذا؟ هل ستعمل عملية جراحية؟! هل أرسلتك في بعثة استكشافية في آسيا؟! أنت يا ابني ذاهب إلى وسط البلد..!

صحت مستنكراً:

- وهل سأذهب على قدميَّ؟!

نهض وهو نظر في الساعة:

- مع السلامة.. تأخرت على القرعي..!

....

دوت صفارة المترو في المحطة فتقدمت للأبواب مع المتقدمين، حشرت نفسي مع طلاب المدارس والموظفين، وانهصر جسدي مع الأجساد المتلاحمة على الباب الملاصقة لزجاجه كان الزحام خانقًا والحر ورائحة العرق يزيدان الأمر سوءًا، لم أكن مهتمًا سوى بضم المقال إليَّ لاويًا كوعي به إلى صدري! فرض عليَّ الزحام والتلاصق أن أظل على هذه الهيئة طيلة نصف ساعة إلى أن وصل المترو إلى محطة جمال عبد الناصر. فنزلتُ بظهري إلى الرصيف بمجرد أن انسحب بابا المترو يمينًا ويسارًا، مدفوعًا بالنازلين.

وقفتُ على الرصيف ملتقطا أنفاسي، متنفسًا الهواء وقد احتقن وجهي وتعرقت ملابسي، وكان الجو حارًا.

صعدت إلى أعلى. في الطريق إلى شارع الجلاء، سأمر على صيدلية الإسعاف، ثم أقطع الطريق نحو مستشفى الجلاء للولادة، وأصل إلى مبنى الأهرام، وأتحمل سخافات رجال الأمن في الأهرام كأني صاعد إلى الجنة وبعد الكثير من الأسئلة سيطلبون أحمد القرعي فيأذن لي بأن أصعد، وبعدها أسلمه المقال في مكتبه الذي لا توجد به مساحة قدم واحدة فارغة من أكوام الكتب والجرائد التي تملأ المكان. ثم أعود إلى مصر الجديدة.

*

كنت جالسًا إلى مكتبي في اليوم الذي سبق سفر الدكتور إلى فرنسا أراجع قائمة المهام التي سأنجزها في غيابه، حين رن الهاتف، رفعت السماعة، جاء صوته منفعلاً.

- آلو.. حمزة.

- ....!

- تعال فورًا... هناك مشوار يجب أن نذهبه معًا..

- حسنًا..

أغلقت الخط وأنا أستفسر عن ذلك المشوار الصباحي الذي سأذهبه مع الدكتور، كنت أعرف أنه حريص على أن يستريح في اليوم السابق لسفره. كانت الساعة تشير إلى منتصف النهار.

نهضت وغيرت ملابسي.

نظرت نظرة طويلة إلى الغرفة. قبل أن أغادرها إلى باب الصالة ومنها إلى باب الشقة.

....

أنزلني الميكروباص بالقرب من بيت الدكتور، في شارع نهرو، فترجلت منه وسرت إلى العمارة. أمام العمارة وجدت سيارة الدكتور متأهبة وعبد المنعم يجلس متيقظًا مستعدًا للقيادة.!

مررت بجوار السيارة، رأيت الدكتور جالسًا بالخلف. بادرني:

- إيه البطء ده؟ إنت لسه عندك؟!

- خير يا دكتور.. أول مرة تنتظرني بالسيارة أسفل البيت. هل المشوار عاجل إلى هذا الحد؟!

- طيب ممكن جنابك تتعطف وتركب أولاً يا بيه يا ابن البهوات؟

استدرتُ إلى الباب الآخر بسرعة، وركبت بجوار الدكتور.

انطلقت السيارة بنا عبر شوارع القاهرة، محاولة أن تتلمس طريقًا في الزحام، والدكتور على صمته.

- لم أشأ أن أسأله لأنه عندما لا يريد الكلام فلن تكون النتيجة سوى العصبية والصراخ.

صمت وأنا أراقب الشوارع التي تنطلق فيها السيارة محاولاً توقع الوجهة. دون جدوى، شارع رمسيس بدءًا من ميدان روكسي ثم ميدان العباسية ومنه انطلقت السيارة في شارع امتداد مدينة نصر تاركة جامعة عين شمس وراءها.

وهناك أسفل كوبري أكتوبر انحنت، فصرنا في مواجهة الجبل الأخضر.

نظرتُ إلى الدكتور ساهمًا، لا ينطق بكلمة، مرتديًا حلته الكاملة، وعلى وجهه تركيز شديد.

نظرت إلى عبد المنعم الذي لم ينطق بكلمة منذ تحركت السيارة. رأيته يقودها كأنه مُبرمج!

....

صعدت بنا السيارة طريقًا ترابيًا طويلاً.. وهناك أشجار على جانبيه، كان ممتدًا لأعلى، واستمرت السيارة في قطعه، حتى نظرت ورائي من زجاجها الخلفي، فوجدت العباسية صغيرة بعيدة في الأسفل، ورأيت مدينة نصر على اليسار واضحة للغاية، معرض القاهرة للكتاب، المنصة، ومنطقة رابعة العدوية، خزان المياه الضخم الخاص بنادي القاهرة، وجامعة الأزهر للبنين.

ملأني شعور بالدهشة.

بعدها بلحظات توقفت السيارة بعدما عاد الطريق الصاعد إلى الاستواء كقاعدته بأسفل.

فتح الدكتور باب السيارة، ففتحت الباب المجاور لي بدوري ونزلت، التقط شيئًا من على المقعد الخالي بجوار عبد المنعم وأغلق الباب بينما ظل عبد المنعم صامتًا مُسمَّرًا أمام عجلة القيادة.

نظرت إلى ما في يدي الدكتور فوجدته (بوكيه) ورد.

نظرت ورائي. وجدتُ نفسي أطل على مشارف القاهرة من أعلى.
شعرت بدوار ورهبة.
عدت أنظر أمامي. وجدت الدكتور يسير متقدمًا بصعوبة، فتبعته.

جاورته كالمعتاد ليتكئ على ذراعي من نفسه دون أن أمد له يدي محافظة على شعوره إلا أنه لم يتكئ على يدي هذه المرة إنما استمر يسير وقد انحنى ظهره بعض الشيء وهو يتجاوز بصعوبة حقيقية الطرق الترابي غير الممهد المنحني بخفة ويميل لأعلى..!

سرت معه إلى أن طالعتنا المقابر.. استمر يسير وهو ينظر لها جميعاً يمنة ويسرة! إلى أن وصل لإحداها فوقف أمامه قليلاً قبل أن ينحني ليضع بوكيه الورد أعلاه. وينتصب واقفًا. وهو يتمتم في سره بما لم أسمع.

وقفتُ خلفه أتمتم كان منظرنا غريبًا، كشبحين تحت شمس عالية كنا بمفردنا في هذا الوادي المرتفع بالجبل الأخضر، هذا المكان الغريب، وتحتنا مدرجات من الخضرة والزرع ترتمي أسفلها القاهرة. وحدنا واقفان في العراء بين المقابر وظِل الدكتور يرتمي على وجهي. ويحجب عن قامتي التي تقصره أشعة الشمس بينما هو مستمر في تراتيله وصلواته.

أخذت أهمس أنا أيضاً وأتمتم، وقد انشغلت عما حولي..

وُضعت يد على كتفي، فتحت عيني المغمضتين وأنزلت كفيَّ المفتوحتين وتوقفتُ عن التمتمة. رأيت الدكتور مندهشاً..

- ماذا تفعل؟
- آ.. الحقيقة يعني.. كنت.. آ.. أقرأ الفاتحة.

أخذ يحدق فيَّ مندهشًا.

نظرت بطرف عيني للمقبرة، عليها اسم رومنسي لامرأة، وبجواره علامة الصليب.

عدت أنظر له فوجدته ما زال يتأملني. توقعت انفجارًا مؤجلاً.

ابتسم وقد علت وجهه بسمة حنون، وهو يضع يده على كتفي.

- أشكرك على شعورك الطيب.

رفع عينيه إلى السماء في السرعة وأردف:

- ربنا يتقبل منا معًا.

سار أمامي عائدًا في بطء (وانكسار أيضًا) حيث تقف السيارة.

بينما لمحتُ وردةً كانت قد سقطت من الباقة على الأرض بعيدًا عن المقبرة ببضعة أمتار. اتجهت لها وانحنيت والتقطتها.

سرت عائدًا إلى المقبرة.

قبلت الوردة، ووضعتها على القبر إلى جوار رفيقاتها.

*

وقفت أمام الدكتور في الصالون وقد جلس على الكرسي المواجه للنافذة العريضة المُطلة على الحديقة التي تُذهب خضرتها أشعة الصباح. كان يضع نظارته الغامقة الثقيلة على وجهه،

ويتأمل السماء قبل أن ينظر لي طويلاً ويدير وجهه في بطء إلى الجهة الأخرى. تمنيت لو تمكنت من رؤية عينيه لأعرف فيم يفكر أو...

كنت ممسكًا المقال الجديد الذي سيُنشر في الأهرام الثلاثاء القادم.

التفت لي الدكتور وقال وهو يضغط على الكلمات:

- انتبه للمقال جيدًا. إياك أن يضيع منك أو تفقده.

- حاضر يا دكتور.. لا تقلق..

راح يتأملني طويلاً. وهو يهز رأسه في بطء.

- إسمع! خذ تاكسي هذه المرة! وانزل أمام باب الأهرام. لا تسر في الشارع مترًا واحدًا. هناك قلق في البلد بسبب المادة (٧٦) التي يريدون إدخالها على الدستور، وإضرابات في السلك القضائي لأن القضاة لم يُشرفوا على الانتخابات، و«كفاية» تتظاهر اليوم في وسط البلد، البلد مقلوبة.

المخبرون منتشرون في كل مكان في وسط البلد.. سامع؟!

أومأت برأسي في بطء.. فقال:

- طيب اذهب الآن.. وكلمني من مكتب أحمد القرعي بمجرد وصولك.

استدرت لأذهب..

- حمزة!

استدرت له وقد اقتربت من الباب..

بادرني في كلمات متسارعة كأنما يملؤها القلق أو العصبية؟!

- تفتكر حينشر المقال؟!

-.........!

- أعتقد أنهم سينشروه، لا أجد مبررًا قويًا لعدم نشره.

هز رأسه متأملاً شيئًا وهو ينظر لسماء مصر الجديدة

- أخشى أنني تجاوزت شيئًا هذه المرة.

قلت:

- الظروف لا تسمح سوى بذلك الأمر في وضع البلد هذا. كشف الحقائق أهم من البلاغة والأسلوب، الناس يا دكتور..!

هز رأسه قائلاً:

- نعم.. الناس!

أطرق قليلاً قبل أن يرفع رأسه نحوي ثانية وقال بحماس مفاجئ:

- مع السلامة إذن! خذ بالك من المقال، تشبث به جيدًا.. حاذر يا عزيزي أرجوك...! وفي الزحام ألصق المظروف بصدرك! مع السلامة..!

الطريق يمتد أمامي مغبرًا في شارع نهرو، شمس الظهيرة حارة والمقال تحت ذراعي.

توجهتُ إلى شارع القبة.

رجال كثيرون في ملابس مدنية يتراصون على جانبي الشارع... عيونهم تتفرس في السائرين، رحت أنظر في الوجوه.. كأنما كان فيها ما يوترها... الناس تسير خائفة مما لا أعرف، والطريق إلى المترو بعيد، وقفتُ أشير إلى تاكسي قادم، توقف.

- شارع الجلاء يا أسطى؟

حرك عصا القيادة وانطلق وهو ينظر لي ساخطًا كأنني شتمته!!

وقفتُ أنظر مستغربًا للسيارة المنطلقة.

انتبه لي أحد الرجال الذين يملؤون الرصيف، فبدأ يتفرسني.

تظاهرتُ بعدم الاكتراث وأنا أنظر إلى أول الشارع مترقبًا تاكسي آخر.

لاح واحد من بعيد، فأشرتُ له

- شارع الجلاء يا أسطى...!

تفرس في وجهي من أعلى لأسفل.. وقال:

- شارع الجلاء "قلق" من أول رمسيس لحد مجمع التحرير كل وسط البلد فيها مشاكل دلوقتي يا بيه.!!

ظللتُ واقفًا أتأمله وأنتظر.. أكمل:

- هاخد (٣٠) جنيه..

قلت له: وأنا أشعُر بالعرق يتصبب تحت قميصي ويغرق جسدي:

- سأدفع (٢٠) فقط.

انقلب وجهه وبدا عليه تعبير مُرغم، وقال في خشونة:

- اركب.

جلستُ إلى جانبه قبل أن يُغيِّر رأيه...!

*

كنت أطل على القاهرة التي امتدت شوارعها تحت شمس الظهيرة، على كوبري الجلاء اصطف عدد كبير من العساكر وهم يتأملون الشوارع بأسفل، وكان هناك كناسون وعمال نظافة يملأون الكوبري أكثر من المعتاد ويراقبون السيارات (مخبرين)!، رحت أطل من أعلى على التجمعات التي بدت واضحة أمام دار القضاء العالي وسينما راديو ونقابة المحامين، وجارتها نقابة الصحافيين، كانت عربات الأمن المركزي تملأ الشارع، وتطوق الشوارع الجانبية والجنود متأهبين وفي أيديهم عصي غليظة والمتظاهرون واقفين في ثبات وتحدٍّ يطلقون حناجرهم بالغضب ضد النظام الفاسد وتوريث الحكم.

بعدها بقليل كنت في الشارع، أسير تحت الشمس اللاهبة وأمامي وخلفي المتظاهرون، قطعت شارع رمسيس في اتجاه شارع الجلاء، فجأة صاح أحد المتظاهرين وهو يقتحم الطوق الأمني من العساكر، فاندفعت خلفه الحشود، كنت بين رجال الأمن والمتظاهرين، واقفاً في منتصف الشارع الذي خلت منه السيارات، بينما يسرع الجمعان نحوي، وقفت أتشبث بالمقال وأنا أضمه لصدري بقوة.

اشتبك رجال الأمن مع المتظاهرين الذين صرت في منتصفهم تماماً، سقطت بين الأجساد الملتحمة، حاولت النهوض سريعاً وأنا أبعد المقال عن المتشابكين، هوت على كتفي هراوة ثقيلة

فشعرت به يتهشم، سقطت على الأرض وأنا أتألم بشدة، سقطت ورقة من المقال، وداستها الأقدام. لمحت جندياً من الأمن المركزي ينهال على شاب نحيل بهراوته الثقيلة حتى ينزف من وجهه ويسقط على الأرض فيحيطه مجموعة من "البلطجية" وينهالون على جسده بالركلات.

نهضت بصعوبة، واتجهت نحوه أحاول أن أبعدهم عنه، فانهالوا عليّ بالصفع والركلات، كنت لا أزال متشبثاً بالمقال، فجأة صاح أحدهم (معاه منشورات)!

مُدت يدٌ نحوي وجذبت الأوراق من تحت إبطي بشدة، وانهالت يد أخرى بعصا عليّ فهويت على الأرض..

......

كنت أموت تحت الشمس.

تحت شمس مصر وبين ناسها.

ومن بعيد رأيت أوراق المقال تتناثر في الريح، ويأخذها الهواء ويصعد بها، كانت تتحول وجوه بشر طيبين، وعرقاً وخبزاً وتاريخ ظلم لا ينتهي في مصر.

كانت حروف المقال تتحول لملامح بشر أعرفهم، كدحوا وشربوا المُر في شوارع هذه البلد وبيوتها الفقيرة ولم يصلوا لشيء سوى الموت على الأسفلت.

كانت الأوراق تطير في الهواء كورود تطير نحو موتها. وكانت الشمس لاهبة على رأسي، وأنا أغيب عن وعيي لا أرى شيئاً سوى وجه جنديٍ قاسٍ يضرب الناس، ومن خلفه شعارات مبايعة الرئيس، وأوراق تبتعد نحو الشمس، لا تلمحها الناس.

انتهى

القاهرة – باريس – الشارقة

٢٦ ابريل ٢٠٠٩

شكر واجب:

للأستاذ صنع الله إبراهيم، الروائي الكبير، على دعمه لي ومساعدته في ظهور هذا الكتاب، وعدم تأخره في تقديم التوجيه والنصح بشأنه كدأبه دوماً.

ولدار الثقافة الجديدة على إخراجها الكتاب وتحمسها له.

كما أشكر الدكتور فكري أندراوس الذي قدم لي الكثير من الملحوظات بشأن الكتاب منذ وساعد على ظهوره بهذا الشكل.

رأيت نفسي أسير في طريقٍ طويلٍ أبيض، وعلى جانبيه بحرٌ هادرٌ من البشر، ملايين البشر، وقفوا يصيحون ويهتفون. فقراء وبسطاء وجوعى.. نظرت أمامي فرأيتُ صديقي الدكتور يسير وحوله رفاق أعرف وجوههم، زملاؤه في المعتقل ومفكرون كبار وماركسيون وشعراء ، كانوا يسيرون تجاه عمودٍ منصوب في نهاية الممر. ظللت أسير وراءهم تفصلني عنهم مسافة كبيرة. نظرت ورائي لم أجد أحدًا. ولم تصل عيني لآخر الطريق. كان الصخب هادرًا من ملايين البشر المصطفين على الجانبين وهم يشيرون لهم، ويمدون أيديهم نحوهم، نظرت للأيدي، كانت جميعها مشدودة على آخرها، ممدودة بقوة، متوترة، كأنها تنتظر منهم أن يمدوا أيديهم بدورهم لهم، حدقت في الوجوه ، وجوه صفراء وسمراء وسوداء ولا يجمع ملامحها سلالة أو تكوين واحد.

كانوا بشرًا من أنحاء الأرض.

وكانت أنظارهم جميعًا متعلقة بالسائرين أمامي بينما لا ينظر لي أحد.

كان العمود البعيد يقترب مع سير الموكب في الممر، ولا أتبين أعلاه، لا أرى سوى السارية البيضاء.

تصميم الغلاف أحمد م




دار الثقافة الجديدة